مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغات وآدابها

مجلة علمية محكَّمة نصف سنوية

العدد السادس عشر

١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

قـواعــد النشـــر

١– تُقبل الأعمال المقدمة للنشر في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها حسب المواصفات التالية:

أ. يقدم صاحب البحث أربع نسخ ورقية، ونسخة واحدة على أسطوانة ممغنطة (CD).

ب. يطبع البحث على برنامج Microsoft Word بالخط العربي التقليدي Traditional Arabic (بنط ١٦) على وجه واحد، مقاس A4 (٢١ X ٢٩,٧سم)، بما لا يزيد حجم البحث عن خمسين صفحة، بما فيها المراجع والملاحق والجداول.

ج. تُرَقَّم صفحات البحث ترقيما متسلسلاً، بما في ذلك الجداول والأشكال وقائمة المراجع، وتطبع الجداول والصور والأشكال واللوحات على صفحات مستقلة، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن، وتكون الهوامش مكتوبة بطريقة آلية وليست يدوية.

د. يُرفق ملخصان بالعربية والإنجليزية لجميع الأبحاث، بما لا يزيد عن ٢٠٠ كلمة.

هـ. يُكتب المؤلف اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، مع إرفاق نسخة موجزة من سيرته الذاتية، وتعهد خطي موَّقع من الباحث / الباحثين بأن الباحث لم ينشر من قَبْل، أو قُدِّم للنشر لدى جهات أخرى.

و. تُرفق أصول الأشكال مرسومة باستخدام أحد برامج الحاسب الآلي ذات العلاقة على أسطوانة ممغنطة (CD).

٢– توضع إحالات البحث وهوامشه وتعليقاته في نهاية البحث، بالإشارة إلى اسم العائلة للمؤلف، ثم الاسم الأول، وعنوان كتابه، ورقم الصفحة المحال إليها؛ وإن كانت الإحالة على مقالة فتذكر المعلومات وافية بحسب الضوابط السابقة.

٣– تُعرض المصادر والمراجع في نهاية البحث، على أن ترتب هجائياً، حسب اسم العائلة للمؤلف، ثم الأسماء الأولى أو اختصاراتها، متبوعاً باسم الكتاب أو المقال، ثم رقم الطبعة، فاسم الناشر (في حالة الكتاب) أو المجلة (في حالة المقالة)، ثم مكان النشر (في حالة الكتاب) وتاريخ النشر. أما في حالة المقال فيضاف رقم المجلة، أو العدد، وسنة النشر.

٤– يُمنح الباحث عشر مستلات من بحثه، مع نسخة من العدد الذي يظهر فيه عمله. كما تمنح نسخة واحدة من العدد هدية لكاتب المراجعة العلمية، أو التقرير، أو ملخص الرسالة الجامعية.

المراسلات: ترسل جميع الأعمال والاستفسارات مباشرة إلى رئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب ٧١٥).

البريد الالكتروني: E-mail: jll@uqu.edu.sa

حقوق الطبع: تُعَبِّر المواد المقدمة للنشر عن آراء مؤلفيها، ويتحمل المؤلفون مسؤولية صحة المعلومات ودقة الاستنتاجات. وجميع حقوق الطبع محفوظة للناشر (جامعة أم القرى)، وعند قبول البحث للنشر يتم تحويل ملكية النشر من المؤلف إلى المجلة.

التبادل والإهداء: توجه الطلبات إلى رئيس تحرير المجلة (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب: ٧١٥)

الاشتراك السنوي: خمسة وسبعون ريالاً سعودياً أو عشرون دولاراً أمريكياً، بما في ذلك أجور البريد.

تنويه: تصدر مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها بمسماها الحالي، بعد أن كانت جزءاً من مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، في مجلداتها (١–٢٠) الصادرة خلال الفترة (١٤١٩هـ– ١٤٢٨هـ) الموافق (١٩٩٩م –٢٠٠٧م).

رقم الإيداع ١٤٣٠/٢٣٥٩ وتاريخ ١٤٣٠/٣/١٨هـ - ردمد: ١٦٥٨/٤٦٩٤

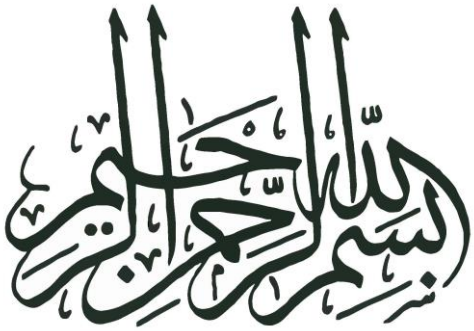
بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغـات وآدابها

مجلة دورية علمية مُحَكَّمة نصف سنوية، تصدر عن جامعة أم القرى، لنشر الأبحاث العلمية الأصيلة في مجال اللغات وآدابها، وفروعها المختلفة ذات الصبغة اللغوية، وفي أطرها النظرية والتطبيقية. وتُرَحِّب المجلة بنشر جميع ماله علاقة بما سبق، من مراجعات كتب، وتقارير أبحاث مُمَوَّلة، وتوصيات مؤتمرات وندوات وأنشطة علمية أخرى، وملخصات رسائل جامعية، باللغتين العربية والإنجليزية، والتي لم يسبق نشرها، أو تقديمها للنشر لدى جهات أخرى، وذلك بعد مراجعتها من قِبَل هيئة التحرير، وتحكيمها من الفاحصين المتخصصين.

المشرف العام

د. بكري بن معتوق عساس

مدير الجامعة

نائب المشرف العام

د. ثامر بن حمدان الحربي

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس هيئة التحرير

د. محمد بن حمَّاد القرشي

هيئة التحرير

أ. د. عبدالرحمن بن حسن العارف — د. عبدالله بن محمد مسملي

أ. د. عمر بن الصديق عبدالله — د. عبدالله بن عبدالرحمن با نقيب

د. أحمد بن يحيى الغامدي — د. هيفاء بنت عثمان فدا

د. مريم بنت عبدالهادي القحطاني

المحتويـات

البحوث باللغة العربية :

- **أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ (دراسة نحوية دلالية)**

د. عامر فائل محمد بلحاف ..... ٩ – ٥٤

- **أنساق الخطاب الحكائي: التجليات النسقية لنظرية العصا في نموذج حكائي للجاحظ**

د. يوسف محمود عليمات ..... ٥٥ – ٩٤

- **مشكلة نطق صوت الضاد عند الناطقين باللغة العربية وبغيرها " تشخيصًا وعلاجًا "**

د. هيثم حماد احمود الثوابية ..... ٩٥ – ١٥٤

- **نحو بلاغة إقناع رقمية تنظيرا وتطبيقا: تويتر نموذجا دراسة في ضوء رؤية أرسطو**

د. مشاري الموسى ..... ١٥٥ – ١٩٠

- **العتبات وخطاب المتخيل في الرواية العربية المعاصرة**

د. حبيب بوهرور ..... ١٩١ – ٢٣٩

- **لطائف الإعجاز في آيات الأحكام**

د. منال مبطي المسعودي ..... ٢٤١ – ٣٠٢

البحوث باللغة الإنجليزية :

- **A Contrastive Linguistic Analysis of Arabic Conjunctive Nouns in their Syntactic Structures and their English Counterparts**

Dr. Hamdan Mohammed E. Al-Ghamdi **7-49**

أثر أسلوب الاستثناء
في تحقيق مقاصد سورة سبأ
(دراسة نحوية دلالية)

د. عامر فائل محمد بلحاف(*)

* أستاذ اللغة والنحو المشارك في قسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب بجامعة نجران – المملكة العربية السعودية.

ورد البحث في ١٨/ ١١/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٦/ ٢/ ١٤٣٧هـ

أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ
(دراسة نحوية دلالية)

د. عامر فائل محمد بلحاف

ملخص البحث

حاول هذا البحث دراسة أسلوب الاستثناء في سورة سبأ دراسةً نحويةً دلالية، من خلال الإجابة عن تساؤل مركزي هو: لِمَ تكرر هذا الأسلوب في هذه السورة في خمسة عشر موضعًا بهذا النسق التعبيري اللافت؟ وهل لهذا التكرار علاقة ما بمقاصد السورة وغاياتها ومعانيها؟ لذا قدّم الباحث لهذه الدراسة بمدخل مقتضب في الاستثناء، أعقبه الحديث عن مقاصد السورة وعددها ثلاثة، شكّلت بدورها مباحث الدراسة الثلاثة وهي: إبطال قواعد الكفر والشرك، وإحاطة علم الله بما في السموات وما في الأرض، وإثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم. وتخلل ذلك تفضيل القول في توظيف الاستثناء بأنواعه (المفرغ والمتصل والمنقطع) في تحقيق هذه المقاصد.

ABSTRACT

The effect of exception style on the Surah of Sheba Purposes: A Syntactical and Semantic study

This research attempted to study the exception method in Surah of Sheba semantically and grammatically, by answering the central question: why has this method been repeated in this sura in fifteen places in this striking expressive pattern? Is this repetition related to the purposes and objectives of the Sura and its meanings? So the researcher of this study made a brief introduction about the exception, and followed by an account about the three purposes of the Sura, and in turn, it formed the investigation of the three topics of the study as follows: Abolition of the rules of disbelief and polytheism, informing the omniscience of God, including the heavens and the earth, and to prove the sincerity of the Prophet peace be upon him. It is permeated by explaining in detail the use of exception types (disconnected, connected and uninterrupted) in achieving these objectives.

مقدمة:

يعدّ القرآن الكريم موردًا عذبًا نهل منه العلماء والمتعلمون قديمًا وحديثًا، فهو المعين الخصب الذي لا تنضب أسراره ودرره، ومن ثَمَّ غدا متنًا حيًّا لمقاربات الباحثين في كافة فروع المعرفة الإنسانية، ومصدرًا ثريًّا لاجتهادات النحاة واللغويين والبلاغيين وغيرهم من ذوي الصناعة وأهل الاختصاص، يفيدون منه في أعمالهم العلمية، ويستدلون به في خطاهم البحثية.

وتأسيسًا عليه تعالج هذه الدراسة اللغوية موضوع الاستثناء في سورةٍ من سور القرآن الكريم، والاستثناء أسلوب من الأساليب النحوية التي خصّها الدارسون قديمًا وحديثًا بمزيد عناية، ففصّلوا القول في أركانه، وأنواعه، وأحكامه، موظفين كتاب الله العزيز، ومستشهدين بآياته الكريمة. وتأتي هذه الدراسة التي تحمل عنوان (أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ... دراسة نحوية دلالية) محاوَلةً لدراسة الأثر النحوي والدلالي لهذا الأسلوب في تحقيق مقاصد السورة.

ولذا انتظمت الدراسةُ في ثلاثة مباحث عبّر كل مبحث عن مقصد من المقاصد، وراح يتتبع أنماط الاستثناء في كل مقصد، وكيف استطاعت هذه الأنماط توضيح المعنى المراد، وتبيان الدلالة المقصودة. وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، وبثبتٍ للمصادر التي أفاد منها.

مدخل: في الاستثناء ومفهومه:

الاستثناء لغةً: مصدر للفعل (أستثني) من الثني، وللثني معانٍ عدة منها الصرف إذا صرفته عن الأمر، ومنها العطف تقول: ثنيتُ الحبل إذا عطفتَ بعضه على

بعض[١]. والمعنى الأقرب إلى موضوع بحثنا هذا هو (الصرف)؛ لأنّنا نصرف المستثنى عن الدخول في حكم المستثنى منه، فإذا قلنا: (قام القومُ إلاّ عليًّا) صرفنا (عليًّا) عن الدخول في حكم القيام.

وفي الاصطلاح: "إخراج الشيء من الشيء، لولا الإخراج لوجب دخوله فيه، وهذا يتناول المتصل حقيقةً وحكمًا، ويتناول المنفصل حكمًا فقط"[٢]. ومصطلح الاستثناء من المصطلحات التي ظهرت في مرحلة مبكرة من عمر النحو العربي، تعارف عليها بعض الباحثين بمرحلة (التهيئة لظهور المصطلحات النحوية) [٣]، حيث ورد هذا المصطلح عند الخليل (ت ١٧٥ هـ)، وعند سيبويه (ت ١٨٥ هـ)، وهو من المصطلحات التي ما زالت مستعملةً إلى يومنا هذا.

خصّ سيبويه الاستثناء بفصل مستقل، ونصّ عليه بالاسم حين قال: "هذا باب الاستثناء: فحرف الاستثناء (إلاّ)، وما جاء من الأسماء فيه معنى (إلاّ) فـ (غير وسوى)، وما جاء من الأفعال فيه معنى (إلاّ) فـ (لا يكون وليس وعدا)، وما فيه ذلك المعنى من حروف الإضافة وليس باسمٍ فـ (حاشى وخلا) في بعض اللغات، وسأبيّن لك أحوال هذه الحروف إن شاء الله عز وجل الأول فالأول"[٤].

ويلاحظ من حديث سيبويه أنّه ذكر المصطلح، بيد أنّه لم يُجلِّ المفهوم، بل انتقل مباشرة إلى أدوات الاستثناء، فذكر أم الباب (إلاّ)، وذكر ما يجيء في معناها من الأسماء والأفعال والحروف.

وعلى الدرب ذاته سار المبرّد (ت ٢٨٢ هـ) الذي لم يُعنَ بتوضيح المفهوم أو تعريفه، بل اكتفى بذكر المصطلح، وشَرَعَ بعد ذلك في بيان أقسامه عندما قال: "هذا باب الاستثناء: والاستثناء على وجهين..."[٥]. وسلك ابن السراج (ت ٣١٦ هـ)

مسلك سابقيه حين قصر كلامه على أقسام الاستثناء وأحكامه دون الخوض في مفهومه[٦]. على أنّ هذا لا يعني أن المفهوم كان غائبًا عندهم، بل ربما كان واضحًا في أذهانهم لكن دون عناية بتجليته باعتباره مفهومًا.

ينضج مفهوم الاستثناء أكثر في القرن الرابع الهجري، فهذا عالم العربية أبو الفتح بن جني (ت ٣٩٢ هـ) يحدّ الاستثناء بقوله: "الاستثناء: أن تُخرج شيئًا ممّا أدخلتَ فيه غيره، أو تدخله فيما أخرجتَ منه غيره"[٧]. ويبلغ المفهوم تمامه في القرن السابع الهجري عند ثلة من النحاة؛ فابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) ربط بين المعنيين اللغويّ والاصطلاحيّ للمفهوم حين قال: "اعلم أنّ الاستثناء استفعال من ثناه عن الأمر يثنيه إذا صرفه عنه. فالاستثناء: صرف اللفظ عن عمومه بإخراج المستثنى من أن يتناوله الأول، وحقيقته تخصيص صفة عامة؛ فكل استثناء تخصيص وليس كل تخصيص استثناء"[٨]. وعرّف الشلوبين (ت ٦٤٥ هـ) الاستثناء بقوله: "الاستثناء في الأصل: إخراج بعضٍ من كل بأداة من الأدوات المذكورة في هذا الباب"[٩]. ونصّ على الإخراج أيضًا ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) حين قال في تعريف المستثنى: "المُخرج تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروك بإلاّ أو ما بمعناها بشرط الفائدة"[١٠].

والناظر في مفهوم الاستثناء عند علماء العربية يُلفي أنّه لا يخرج عن معنى الصَّرف والإخراج بأداة من أدوات الاستثناء، وبقيد حصول الفائدة. كما سيلاحظ أنّ الاستثناء مصطلحًا استُخدم منذ وقت مبكر عند المتقدمين من علماء النحو، غير أنّ مفهومه أخذ ينضج شيئًا فشيئًا حتى استوى على سوقه عند المتأخرين منهم.

الدراسات السابقة:

يظهر أسلوب الاستثناء في مواضع كثيرة من كتاب الله العزيز، وقد عكف على دراسته بعض الباحثين الذين تنوعت مناهجهم في دراسة هذا الأسلوب بين الوصف والتحليل والتطبيق. ومن هذه الدراسات (أسلوب الاستثناء في القرآن – دراسة تطبيقية نحوية) للباحث محمد علي محمد جبران، وتألفت من خمسة فصول: عنى الأول منها بتعريف الاستثناء وأدواته، وعرض الثاني لأنواع الاستثناء وأحكامه، وخُصّص الثالث لعمل (إلاّ) الاستثنائية، وكان الرابع لـ (غير) الاستثنائية وبقية الأدوات، ووُضع الخامس للدراسة التطبيقية النحوية [١١]. ومن هذه الدراسات (أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية) للباحث محمد علي إبراهيم عجيزة تناول فيها: معنى الاستثناء وأغراضه وأدواته والعامل فيه، كما فصّل الحديث في الاستثناء من خلال الجمل: الخبرية، والتامة المنفية، والناقصة، والطلبية [١٢]. ومن هذه الدراسات أيضًا (أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم بين النحو والبلاغة) للباحث عزام محمد الشجراوي، وهدفت إلى دراسة هذه الأسلوب في آي الذكر الحكيم نحويًّا وبلاغيًّا [١٣].

وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة في تخصيصها لسورة سبأ، حيث يظهر الاستثناء بعدّه أسلوبًا نحويًّا متميزًا بصورة لافتة في هذه السورة، بدءًا من الآية الثالثة وانتهاءً بالآية السابعة والأربعين، فهذه السورة المكية ذات الأربع والخمسين آية وردت فيها (إلاّ) في خمسة عشر موضعًا في الآيات (٣، ١٤، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٨، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٤٦، ٤٧)، ووردت في الآية (٤٣) ثلاث مرات، ولم ترد في السورة أي أداة استثناء أخرى عدا (إلاّ)؛ فلم ترد (غير) أو (سوى) أو غيرهما.

والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا، والذي يقوم عليه البحث: لِمَ تكرر الاستثناء بـ (إلاّ) في سورة سبأ بهذا النسق التعبيريّ اللافت؟ وهل لهذا التكرار علاقة بمقاصد السورة ومعانيها؟

مقاصد السورة:

ذكر أبو حيّان (ت ٧٤٥ هـ) سبب نزول السورة فقال: "وسبب نزولها أنّ أبا سفيان قال لكفّار مكة لمّا سمعوا: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾[١٤] إنّ محمدًا يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدًا ولا نُبعث"[١٥].

وتأسيسًا عليه: ربّما كان أول مقصد من مقاصد هذه السورة الرد على الكفار بشأن إنكارهم البعث وتكذيبهم بالساعة، فهل هناك مقاصد أخرى؟

استهل ابن عاشور تفسيره لسورة سبأ بذكر أغراض هذه السورة فقال: "من أغراض هذه السورة إبطال قواعد الشرك، وأعظمها إشراكهم آلهةً مع الله... وإثبات إحاطة علم الله بما في السموات وما في الأرض، فما يُخبر به فهو واقع، ومن ذلك إثبات البعث والجزاء. وإثبات صدق النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما أخبر به، وصدق ما جاء به القرآن، وأنّ القرآن شهدت به علماءُ أهل الكتاب، وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حلّ ببعض الأمم المشركين من قبل"[١٦].

إذن يمكن تلخيص مقاصد السورة – في رحاب تفسير التحرير والتنوير – في النقاط الآتية:

- إبطال قواعد الكفر والشرك.

- إثبات إحاطة علم الله - عزّ وجل- بما في السموات وما في الأرض، ومن ذلك البعث والجزاء
- إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا ما بحثنا عن هذه المقاصد في المواضع الخمسة عشر التي وردت فيها (إلاّ) فهل سنجد أسلوب الاستثناء حاضرًا في خدمة المعنى المراد؟ وهل وُظّف هذا الأسلوب في تحقيق مقاصد السورة؟ الإجابة في الصفحات الآتية:

المبحث الأول: أثر الاستثناء في إبطال قواعد الكفر والشرك:

ضرب الله قصة سبأ عظةً وعبرةً للمشركين من قريش، فهؤلاء القوم – أي سبأ – كانوا مضرب المثل في رخاء البلدان، وسعة الأرزاق، وأمن الطرقات، غير أنّهم أعرضوا، فانتقم الله منهم وشرّدهم، وتحولوا إلى مضربِ مثلٍ في التفرق والشتات. قال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ): "وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيديَ سبأ، أي: مذاهب سبأ وطرقها"(١٧).

إذن هذه القصة مثل لكفار قريش بقوم أنعم اللهُ عليهم، وأرسل إليهم الرسل فكفروا وعصوا، فانتقم الله منهم، أي: فأنتم أيّها القوم مثلهم، ولذلك يدور هذا المقصد بين تهديد المشركين والكفار تارة، ووعظهم تارة أخرى.

وُظّف أسلوب الاستثناء خدمةً لهذا المقصد في خمسة مواضع: ثلاثة منها بصيغة الاستثناء المفرغ، وموضعين يحتملان الاتصال والانقطاع. وهذا بيانٌ وتفصيل:

١. قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾(١٨).

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن قوم سبأ، وكيف أنّ الله – عزّ وجل – أنعم عليهم في مساكنهم، وبَدَل أن يقابلوا نعمة الله بشكره وعبادته، قابلوها بالإعراض والشرك والكفر، فكان الجزاء من جنس العمل، غير أنّ السؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا: لِمَ خصّ المولى جلّ جلاله الكفور بالمجازاة؟

أثار هذا السؤال عددٌ من أرباب النحو والتفسير، منهم الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) حين قال: "يقول القائل: كيف خصّ الكفور بالمجازاة، والمجازاة للكافر وللمسلم وكل واحد؟ فيقال: إنّ جازيناه بمنزلة كافأناه، والسيئة للكافر بمثلها، وأمّا المؤمن فيُجزى لأنّه يُزاد ويتفضل عليه ولا يُجازى. وقد يقال: جازيتُ في معنى جزيت، إلاّ أنّ المعنى في أبينِ الكلام على ما وصفتُ لك، ألا ترى أنّه قد قال: ذلك جزيناهم ولم يقل: جازيناهم؟"[١٩].

إنّ الفرّاء يجعل المجازاة للكافر والجزاء للمؤمن، فالأخير تُكفّر عنه سيئاته وتُضاعف له حسناته، وقد فصّل في هذا المعنى أيضًا الزّجاج (ت ٣١١ هـ) حين قال: "والمعنى في هذه الآية أنّ المؤمن تُكفّر عنه السيئات، والكافر يحبط عمله فيُجازى بكل سوء يعمله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[٢٠]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[٢١]، فأعلمَ – جلّ وعزّ – أنّه يُحبط عمل الكافر، وأعلمنا أنّ الحسنات يذهبنَ السيئات، وأنّ المؤمن تُكفّر عنه سيئاته"[٢٢]. وجعل أبو حيان الجزاء في الخير والمجازاة في الشر، لكن في تقييدهما قد يقع كل واحد منهما موقع الآخر[٢٣].

وخالف بعض المفسرين فجعل المجازاة بمعنى المناقشة، قال النحّاس: "هو المناقشة في الحساب، ومن نوقش عُذّب"[٢٤]. وتابعه ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ) حيث

قال: "قوله: وهل يُجازى؛ أي: يُناقش ويُقارض بمثل فعله قدرًا بقدر"[٢٥]. وخالفهم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ إذ جعل المجازاة بمعنى المعاقبة، قال: "قيل: (وهل يُجازى إلاّ الكفور) بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح؛ وليس لقائل أن يقول: لِمَ قيل: وهل يُجازى إلاّ الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء، والجزاء عام للكافر والمؤمن؟ لأنّه لم يرد الجزاء العام، وإنّما أراد الخاص وهو العقاب"[٢٦]. وظاهرٌ من كلام الزمخشري أنّ الجزاء للمؤمن والكافر، إلاّ أنّ تخصيصه أفاد معنى العقاب.

وكما اختلف المفسرون في معنى المجازاة، اختلف القرّاء أيضًا في القراءة، وتبعًا لاختلاف القراءة اختلف إعراب الاسم الذي يلي (إلاّ)؛ قال ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ): "واختلفوا في الياء والنون من قوله: (وهل نجازي إلاّ الكفور)، فقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (وهل نجازي) بالنون، (إلاّ الكفورَ) بالنصب... وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (وهل يُجازى) بالياء، (إلاّ الكفورُ) رفعًا"[٢٧].

جاء الاستثناء في هذه الآية مفرغًا فتوسط بين الفعل والمفعول، أو بين الفعل ونائب الفاعل على قراءة، وسُبق بالاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى النفي[٢٨]، فإذا علمنا أن التفريغ في الاستثناء هو: "كون ما قبل إلاّ طالبًا لما وقع بعدها طلبًا لا يفتقر إلى (إلاّ) من حيث التركيب فلا يتم الكلام من حيث القصد إلاّ به"[٢٩] أدركنا أنّ (إلاّ) هنا حصرت معنى المجازاة، أيًّا كان معناها، في الكفور.

وقد تعاضد في هذا الاستثناء عدة عناصر نحوية لتجلية المعنى؛ فجاء أولاً الاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى النفي، وحق حرف النفي أن ينفي الواجب بحاله وهيئته[٣٠]، ثم جاء المستثنى منه المحذوف، وتقديره – والله أعلم-: وهل نجازي أحدًا إلاّ الكفور، فكأنّ المجازاة لا تقع إلاّ عليه، وأخيرًا جاءت صيغة المبالغة

(الكفور)؛ ففي صيغة المبالغة ما يقوّي دلالة المجازاة بمعنى المعاقبة، كما تقدّم تقريره عند الزمخشري، ولعلّ صيغة (فعول) أنسب لقوم سبأ الذين تمادوا في الشرك، بل وصلوا إلى الكفر.

٢. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣١).

يستمر الأسلوب القرآني في إبطال قواعد الكفر بالحديث عن عاقبة تكذيب سبأ، وإعراضهم عن دعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس، بعد أن أقلعوا عنها في زمن بلقيس، وتماديهم في جحد النعمة حين دعوا الله أن يباعد بين أسفارهم، فكانت النتيجة أن سُلبت النعمة، وتفرقوا التفرق الشهير، فصاروا عبرةً لغيرهم وموعظة. وفي الآية تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان، ومنها الوقوع في الشرك أو الكفر.

افتتح المولى – عزّ وجل – هذه الآية بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ فما هو هذا الظن؟ أجاب عن هذا السؤال ابن عطية فقال: "ومعنى الآية أنّ ما قال إبليس من إنّه سيفتن بني آدم ويغويهم، وما قال من أنّ الله لا يجد أكثرهم شاكرين، وغير ذلك كان ظنًّا منه فصدق فيهم، وأخبر الله تعالى عنهم أنّهم اتبعوه، وهو اتّباع في كفر لأنّه في قصة قوم كفار"(٣٢). وفصّل الزمخشري (فاتبعوه) فقال:" واتّبعوه: إمّا لأهل سبأ أو لبني آدم، وقلّل المؤمنين بقوله (إلاّ فريقًا) لأنّهم قليل بالإضافة إلى الكفار"(٣٣). وجعل أبو حيان هذا الاتّباع في الكفر حين قال: " (فاتبعوه): أي في الكفر. (إلاّ فريقًا) هم المؤمنون "(٣٤).

يحتمل الاستثناء في هذه الآية الاتصال والانقطاع؛ فهو استثناء متصل إنْ كان ضمير (اتّبعوه) عائدًا على المشركين، وحينها سيكون الاستثناءُ تامًا موجبًا، وأمّا إنْ كان عائدًا على سبأ، فهو بدوره يحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين، وإلاّ فهو

استثناء منقطع؛ أي: لم يعصه في ذلك إلاّ فريقٌ من المؤمنين وهم الذين آمنوا من كفار مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبأ؛ إذ يُحتمل أن تكون فيهم طائفة مؤمنة ممّن نجوا قبل إرسال السيل.

وفصّل السمين الحلبيّ (ت ٧٥٦ هـ) فقال: "والظاهر أنّ الضمير في (عليهم) عائدٌ على أهل سبأ، (إلاّ فريقًا) استثناء من فاعل (اتبعوه)، و(من المؤمنين) صفة (فريقًا)، و (من) للبيان لا للتبعيض لئلا يفسد المعنى؛ إذ يلزم أن يكون بعض من آمن اتّبع إبليس"(٣٥).

ولي مع قول السمين هذا وقفتان: الأولى: أنّه رجّح أن يكون الضمير في (عليهم) عائدٌ على أهل سبأ لا على عموم بني آدم – عليه السلام، وأتّفقُ معه في هذا الترجيح؛ ذلك أن سياق الآيات التي سبقت هذه الآية في قوم سبأ، وفي كفرهم بالرسالة الإلهية، فكان ظن الشيطان صادقًا عليهم بالتكذيب ونكران النعمة. والثانية: أنّ (مِنْ) هنا لا تحتمل أن تكون دالة على التبعيض؛ لأنّ في التبعيضية هنا قلبًا للمعنى؛ إذ سيجعل عددًا من المؤمنين أتباعًا لإبليس، في حين أنّ من اتّبع إبليس هم الكفار.

ومهما يكن من أمر فقد قصد الأسلوب القرآني إلى إخراج الفريق المؤمن من أتباع الشيطان باستخدام (إلاّ)، وفي ذلك دلالة واضحة أنّ المؤمن الحق لا يقع في مكائد الشيطان وفي مقدمتها الكفر أو الشرك بالله، وكأنّ في الآية أيضًا إشارة للعداء القديم بين إبليس وبني البشر ومحاولاته الدائمة لاستدراجهم وغوايتهم.

٣. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾(٣٦).

تصف هذه الآية مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، ساقها الأسلوب القرآني لإبطال اعتقادات الشرك عامة، إذ لن يشفع للمشركين في هذا اليوم نبيٌّ مرسل، ولا ملكٌ كريم ولا غيرهما، إلاّ من أَذِن له المولى عزّ وجل.

فسّر قوله تعالى: (إلاّ لمن أَذن له) عددٌ من اللغويين والمفسرين، فقال الفراء: "أي: لا تنفع شفاعة ملك مقرب ولا نبي حتى يؤذن له في الشفاعة، ويقال: حتى يُؤذن له فيمن يشفع، فتكون (مَنْ) للمشفوع له"(٣٧). وقال الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ): "لا يشفع إلاّ لمن أذن له"(٣٨). وقال الزجاج: "المعنى: لمن أذن له، أي: لمن أذن الله له أن يشفع، ويجوز: إلاّ لمن أذن أن يُشفع له، فيكون (مَنْ) للشافعين، ويجوز أن يكون للمشفوع لهم، والأجود أن يكون للشافعين لقوله: (حتّى إذا فُزّع عن قلوبهم)..."(٣٩). وتابع أبو جعفر النحاس الزجاج في قوله(٤٠). وقد اتفق هؤلاء المفسرون على أنّ الشفاعة لا تكون إلاّ بإذنٍ من الله عزّ وجل، كما رأى بعضهم أن الإذن بالشفاعة قد يكون للشافع، وقد يكون للمشفوع.

سار متأخرو المفسرين على درب متقدميهم حين فسّروا الآية الكريمة في إبطال قواعد الشرك؛ فقال ابن عطية: "المعنى أنّ كل من دعوتم إلهًا من دون الله لا يملكون مثقال ذرة، ولا تنفع شفاعتهم إلاّ بإذن فيمن آمن، فكأنّه قال: ولا هم شفعاء على الحد الذي ظننتم أنتم"(٤١). وقال الزمخشريّ: "أي لا تنفع الشفاعة إلاّ كائنةً لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له، أو لا تنفع الشفاعة إلاّ كائنة لمن أذن له، أي: لشفيعه"(٤٢). وفصّل أبو حيان فقال: "ولما كان من العرب من يعبد الملائكة لتشفع له نفى أنّ شفاعتهم تنفع، والنفي منسحب على الشفاعة؛ أي: لا شفاعة لهم فتنفع، وليس المعنى أنّهم يشفعون فلا تنفع شفاعتهم، أي: لا يقع من معبوداتهم شفاعة أصلاً؛ لأنّ عابديهم كفار، فإن كان المعبودون أصنامًا أو كفارًا كفرعون فسلب الشفاعة عنهم

ظاهر، وإنْ كانوا ملائكةً أو غيرهم ممّن عبد كعيسى – عليه السلام – فشفاعتهم إذا وُجدت تكون للمؤمن"(٤٣)

وظّفت الآية الكريمة الاستثناء المفرّغ للدلالة على أنّ الشفاعة إنّما تكون بإذن الله، فجاءت أداة النفي (لا) لتنفي أي نفع للشفاعة، تلى ذلك المستثنى منه المحذوف المقدر من جنس المنطوق (٤٤) وتقديره: ولا تنفع الشفاعة لأحدٍ من الشفعاء إلاّ لمن أذن له، ثم جاءت (إلاّ) التي حصرت الشفاعة في الاسم الموصول (مَنْ) بإذنٍ من الله.

وفصّل السمين الحلبي القول اللغوي فقال: "فيه أوجه:

أحدها: أنّ اللام متعلقة بنفس الشفاعة، قال أبو البقاء: كما تقول: شفعتُ له.

الثاني: أن يتعلق بـ (تنفع)، قاله أبو البقاء وفيه نظر؛ وهو أن يلزم أحد أمرين: إما زيادة اللام في المفعول في غير موضعها، وإمّا حذف مفعول (تنفع)، وكلاهما خلاف الأصل.

الثالث: أنّه استثناء مفرّغ من مفعول الشفاعة المقدر؛ أي: لا تنفع الشفاعة لأحد إلاّ لمن أذن له.

الرابع: أنّه استثناء مفرّغ أيضًا لكنْ من الأحوال العامة تقديره: لا تنفع الشفاعة إلاّ كائنةً لمن أذن له"(٤٥).

ذكر السمين الحلبي في هذا النص التوجيهات النحوية لهذه اللام الداخلة على (إلاّ لمن أذن له)، وساق الآراء المختلفة في هذا الشأن، بيد أنني أرى أن التوجيه الثالث ربّما كان أقرب للمعنى المراد؛ ذلك أنّ الأصل في المستثنى منه أن يُقدّر من جنس المنطوق؛ لأنّ الأصل أن يكون الاستثناء من الجنس، كما أنّ تقدير تعلق اللام بالمستثنى المحذوف (أحدٍ) أدعى إلى ترسيخ القول بأنّ الشفاعة لا تكون إلاّ بإذن.

تجدر الإشارة إلى أنّ ابن عاشور ختم حديثه في هذه الآية عن نظمها فقال: "وإنّما جيء بنظم هذه الآية على غير ما نُظمت عليه غيرها؛ لأنّ المقصود هنا إبطال رجائهم بأن تشفع لهم آلهتهم عند الله فينتفعوا بشفاعتها، لأنّ أول الآية توبيخ وتعجيز لهم في دعوتهم الآلهة المزعومة، فاقتضت إبطال الدعوة والمدعو"(٤٦). وفي الآية أيضًا لطائف أخرى: فَلِمَ قيّد الشفاعة بالإذن؟! وما جدوى الشافع وهي آلهة الشرك؟! فبطلت الشفاعة لبطلان شافعها.

٤. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٤٧).

هذه الآية مشهدٌ آخر من مشاهد يوم القيامة، حيث يندم المشركون على صنيعهم في الحياة الدنيا بعدما كفروا بالله وكذّبوا رسله، إذ يُؤمر فتوضع الأغلال في أعناقهم جزاء عملهم غير الصالح.

فسّر ابن عاشور هذا المقطع من الآية فقال: "الاستفهام بـ (هل) مستعمل في الإنكار باعتبار ما يعقبه من الاستثناء، فتقدير المعنى: هل جُزوا بغير ما كانوا يعملون؟ والاستثناء مفرّغ... وجُعل جزاؤهم ما كانوا يعملون على معنى التشبيه البليغ؛ أي: مثل ما كانوا يعملون... واعلم أنّ كونه مماثلاً في المقدار أمر لا يعلمه إلاّ مقدر الحقائق والنيات، وأمّا كونه (وفاقًا) في النوع فلأنّ وضع الأغلال في الأعناق منع من حرية التصرف في أنفسهم، فناسب نوعه أن يكون جزاءً على ما عبّدوا به أنفسهم لأصنامهم"(٤٨).

جاء الاستثناء المفرغ في هذه الآية متوسطًا بين الفعل ومفعوله، وقد تعاضدت فيه العناصر الثلاثة: أداة النفي، والمستثنى منه المحذوف، وعمل إلاّ فيما بعدها؛ أمّا أداة النفي فقد استعمل الأسلوب القرآني (هل) ولم يستعمل واحدةً من أدوات النفي

الشهيرة للمبالغة في الإنكار ولتقرير معنى الاستثناء المفرغ بعده. وأمّا المستثنى منه المحذوف فتقديره: هل يجزون جزاءً إلاّ جزاءً موافقًا لأعمالهم غير الصالحة. وأمّا إلاّ فكانت مفرغةً الفعل للمفعولية، وحاصرةً الجزاء في الاسم الموصول (ما) الذي وقع عليه فعل الجزاء.

إنّ لاستعمال الاستثناء المفرّغ هنا أثرًا بيّنًا في تحقيق المعنى المراد؛ فالجزاء من جنس العمل، وسيلاقي الكافر حسابه وفق ما اقترف من إثم، ومن أعظم الآثام التي يُعاقب عليها بنو البشر الكفر بالله – عزّ وجل – أو الإشراك به تقدست أسماؤه وتنزهت صفاته. وفي الآية الكريمة مناسبة دلالية لطيفة بين طبيعة جزاء الكفّار وهي الأغلال، وطبيعة العمل المقترف وهو الشرك بالله، ففي توظيف كلمة (الأغلال) في هذا السياق ما يوحي بسلب إرادتهم وحريتهم في التصرف، مثلما منعتهم معبوداتهم من توحيد الله – عزّ وجل – فكأنّها قيّدتهم وحالت بينهم وبين طريق الحق.

٥. قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾[٤٩].

وردت هذه الآية في سياق كفر الأمم بالله عزّ وجل، ومفاخرتهم بالأموال والأولاد، فجاء الرد القرآني بأنّ الأموال والأولاد لا تقرّب أحدًا إلى الله، بل الإيمان والعمل الصالح هما اللذان يقربان، وهما المنجيان من سوء العذاب.

ذكر الفرّاء التوجيه النحوي لهذه الآية فقال: "وقوله (زلفى إلاّ من آمن)، (مَنْ) في موضع نصب بالاستثناء، وإنْ شئت أوقعتَ عليها التقريب؛ أي: لا تقرّب الأموال إلاّ من كان مطيعًا، وإنْ شئتَ جعلته رفعًا؛ أي: ما هو إلاّ من آمن"[٥٠]. فالاستثناء في هذه الآية محتمل للاتصال والانقطاع.

وقال الزجّاج: "موضع (مَنْ) نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم، على معنى: ما يقرَّب إلاّ من آمن وعمل صالحًا، أي: ما تقرّب الأموال إلاّ من آمن وعمل بها في طاعة الله "(٥١).

وقال ابن عطية: "وقوله تعالى (إلاّ من آمن) استثناء منقطع، و (مَنْ) في موضع نصب في الاستثناء "(٥٢). وتابع الزمخشريُّ الزجّاجَ فقال: "إلاّ من آمن: استثناء من (كم) في (تقرّبكم) والمعنى: أنّ الأموال لا تقرّب أحدًا إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرّب أحدًا إلاّ من علّمهم الخير، وفقّههم في الدين، ورشّحهم للصلاة والطاعة "(٥٣). ورجّح أبو حيّان أن يكون الاستثناء منقطعًا فقال: "إلاّ من آمن: الظاهر أنّه استثناء منقطع وهو منصوب على الاستثناء؛ أي: لكنْ من آمن وعمل صالحًا فإيمانه وعمله يقرّبانه "(٥٤).

إذن في هذا الاستثناء رأيان هما: الاتصال والانقطاع، والظاهر – والله تعالى أعلم – أن القول بأنّه استثناء منقطع هو الأرجح؛ لأنّ فيه نوعًا من الانقطاع بين المستثنى والمستثنى منه، ذلك لأنّهما ليسا من النوع نفسه: فالأموال والأولاد شيء، والإيمان والعمل الصالح شيء آخر.

تحدث عن الاستثناء المنقطع سيبويه، وعقد له بابًا بعنوان: "هذا بابٌ يُختار فيه النصب؛ لأنّ الآخر ليس من نوع الأول "(٥٥). وخصّه المبرّد أيضًا بباب: هذا باب ما يقع في الاستثناء من غير نوع المذكور قبله، ومثّل له بعد ذلك بقولهم: ما جاءني أحدٌ إلاّ حمارًا (٥٦).

وفصّل ابن يعيش القول فيه فقال: "يُسمى المنقطع لانقطاعه منه إذا كان من غير نوعه، وهذا النوع من الاستثناء ليس على سبيل استثناء الشيء ممّا هو من جنسه؛

لأنّ استثناء الشيء من جنسه إخراج بعض ما لولاه لتناوله الأول، ولذلك كان تخصيصًا على ما سبق، فأمّا إذا كان من غير الجنس فلا يتناوله اللفظ، وإذا لم يتناوله اللفظ فلا يحتاج إلى ما يخرجه منه؛ إذ اللفظ إذا كان موضوعًا بإزاء شيء وأُطلق فلا يتناول ما خالفه، وإذا كان كذلك فإنّما يصح بطريق المجاز، والعمل على (لكنْ) في الاستدراك، ولذلك قدّرها سيبويه بـ (لكنْ)، وذلك من قبل أنّ (لكنْ) لا يكون ما بعدها إلاّ مخالفًا لما قبلها، كما أنّ (إلاّ) في الاستثناء كذلك، إلاّ أنّ (لكنْ) لا يُشترط أن يكون ما بعدها بعضًا لما قبلها، بخلاف (إلاّ) فإنّه لا يُستثنى بها إلاّ بعض من كل"[٥٧].

إنّ الرأي القائل بجعل الاستثناء في هذه الآية منقطعًا هو الرأي الراجح برأيي المتواضع؛ ذلك أنّ الآية ستستدعي أن يكون المستثنى من غير نوع الأول، وأن تكون (إلاّ) بمعنى (لكنْ) ما يجعل الكلام متطابقًا مع مقصد الآية الكريمة التي نصّت على أنّ الأموال والأولاد لا تقرّب لله، لكنّ المقرّب هو الإيمان بالله والعمل الصالح.

المبحث الثاني: أثر الاستثناء في إثبات إحاطة الله بما في السموات وما في الأرض:

مضى القول في أنّ إحاطة علم الله بما في السموات وما في الأرض أحد مقاصد سورة سبأ، وتشمل هذه الإحاطة علمه سبحانه بالساعة والبعث والجزاء؛ لذا وظّف الأسلوب القرآني أسلوب الاستثناء في ثلاثة مواضع خدمةً لهذا المقصد، وهذه المواضع هي:

١. قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾[٥٨].

درج المشركون في هذه الآية على إنكار الساعة، وتكذيب البعث كما هي عادتهم، وتمادوا في جحدها وإبطال القول بها، فجاءهم الرد القرآني عاجلاً، حيث لقّن الله – عزّ وجل – رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – الإجابة عن قول الكافرين، فمهما تمادوا في الإنكار، ومهما بلغ الإبطال فإنّ الساعة حق، وإنّ البعث حق.

قال الزمخشري: "قولهم (لا تأتينا الساعة) نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة، أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية"(٥٩). وثمة إشارة لطيفة في وقت الساعة أوردها ابن عاشور، وهي قوله: "إنّ وقتها وأحوالها من الأمور المغيبة في علم الناس، وفي هذه الصفة إتمامٌ لتبيّن سعة علمه تعالى"(٦٠).

ختم المولى – عزّ وجل – هذه الآية بالاستثناء المفرّغ فقال: (إلاّ في كتاب مبين) في إشارة منه سبحانه إلى اللوح المحفوظ، فإذا علمنا – وقد مضت الإشارة إلى ذلك – أنّ التفريغ في الاستثناء: كون ما قبل إلاّ طالبًا لما وقع بعدها، فلا يتم الكلام إلاّ به(٦١) أدركنا أنّ (إلاّ) هنا حصرت المعنى المراد في الكتاب المبين، وأسهمت في نقل الدلالة المقصودة وهي إثبات إحاطة علم الله تعالى بما في السموات وما في الأرض، كما أنّ في الإبانة (مبين) تحقيقًا للعلم الإلهي الأزلي، وتجسيدًا لمعنى الإحاطة الشاملة الكاملة.

هذا وقد نقل أرباب التفاسير قراءتين في (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) الأولى برفع أصغر وأكبر، وهي قراءة المصحف الذي بين أيدينا، والثانية بنصبهما (٦٢)، فعلى الأولى يكون (إلاّ في كتاب مبين) عطفًا على (مثقالُ) أو خبرًا لمبتدأ، وعلى الثانية يكون معطوفًا على (ذرة) (٦٣). والحق أنّ كلا القراءتين يحقق المعنى المراد من إحاطته سبحانه وتعالى حتى بالأجزاء الدقيقة التي لا يُعبأ لها، فكلٌ في كتاب مبين.

٢. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[٦٤].

تتحدث هذه الآية عن موت سليمان عليه السلام، وبقاء الجن تعمل بعد موته مدة طويلة من الزمن، في إشارة واضحة إلى إحاطة علمه سبحانه بالغيب، فلا يعلم الغيب إلاّ هو.

قال أبو جعفر النحاس: "وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلمّا مات سليمان عليه السلام، ولم تعلم به الجن، تبيّنت الجنُّ للإنس أنهم لا يعلمون الغيب"[٦٥]. وجعل السمين الحلبي ادّعاء الجن لعلم الغيب بين بعضهم بعضًا، فقال: "وذلك أنّ المَرَدَة والرؤساء من الجن كانوا يوهمون ضعفاءهم أنّهم يعلمون الغيب، فلمّا خرّ سليمان عليه السلام ميتًا، ومكثوا بعده عامًا في العمل تبيّنت السَفَلة من الجن أنّ الرؤساء منهم لو كانوا يعلمون الغيب – كما ادّعوا – ما مكثوا في العذاب"[٦٦]. وربط ابن عاشور بين هذا الادّعاء والشرك فقال: "فإنهم لو كانوا يعلمون الغيب لكان علمهم بالحاصل أزليًّا، وهذا إبطال لاعتقاد العامة يومئذٍ، وما يعتقده المشركون من أنّ الجن يعلمون الغيب"[٦٧].

وظّف الأسلوب القرآنيّ الاستثناء المفرغ مرة ثانية في (إلاّ دابة الأرض)، وموقع (دابة) هنا هو الرفع بالفاعلية، وكأنّه قصد إلى إظهار عجز الجن مقابل هذه الدويبة الصغيرة التي بعثها الله سبحانه وتعالى لتعلن للملأ أنّ سليمان – عليه السلام – قد مات. وظاهر الآية الكريمة – من توظيف الاستثناء المفرغ – تأكيد بطلان معرفة الجن بالأمور الغيبية، ويشهد على ذلك أنّ وفاة سليمان – عليه السلام – أفضت إلى كشف زيف ادّعائهم الغيب، وأنّ الدابة هي التي أرشدت إلى موته.

٣. قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾[٦٨].

هذه الآية في قوم سبأ، "وكانت قصة سبأ قد ضُربت مثلاً وعبرة للمشركين من قريش، وكان في أحوالهم مثيلٌ لأحوال المشركين في أمن بلادهم، وتيسير أرزاقهم، وتأمين سبلهم في أسفارهم"(٦٩)، غير أنّ هؤلاء أعرضوا كما أعرض أولئك.

سُبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾[٧٠] ثمّ أتبعها بقوله عزّ وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ ﴾ فهل يعني ذلك أنّ العلم غير متحقق سلفًا؟

علم الله – عزّ وجل – بالغيب وإحاطته بما في السموات وما في الأرض أزليّ وسابقٌ على كل ذلك، قال الزجّاج: "أي: إلاّ لنعلم ذلك علم وقوعه منهم، وهو الذي يُجازون عليه، والله يعلم الغيب ويعلم من يؤمن ممّن يكفر، قبل أن يؤمن المؤمن ويكفر الكافر، ولكنّ ذلك لا يوجب ثوابًا ولا عقابًا، إنّما يثابون ويُعاقبون بما كانوا عاملين"[٧١]. وفسّر أبو جعفر النحاس الآية فقال: "أي: ما امتحانهم به إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة علم شهادة، فأمّا علم الغيب فالله – جلّ وعز – عالمٌ به قبل أن يكون"[٧٢]. وقال ابن عطية: "إلاّ لنعلم: أي: لنعلمه موجودًا، لأنّ العلم به متقدمٌ أزلاً"[٧٣].

يتجلى الاستثناء المفرغ للمرة الثالثة على التوالي في هذا المقصد، ففي هذه الآية توقف الكلام الذي قبل (إلاّ) عن التمام وتحقيق الفائدة، وصار محتاجًا لما بعدها كي نتبيّن المعنى المراد. وقد جعل السمين الحلبي الاستثناء في هذه الآية مفرغًا من العلل

العامة؛ والتقدير عنده: ما كان له عليهم استيلاء لشيء من الأشياء إلاّ لهذا، وهو تمييز المحق من الشاك [٧٤].

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأخفش الأوسط جوّز أن يكون ما بعد (إلاّ) في هذه الآية على البدل أيضًا حين قال: "إلاّ لنعلم: على البدل؛ كأنّه قال: وما كان ذلك الابتلاء إلاّ لنعلم" [٧٥]. وهو – في رأيي المتواضع – بعيد.

إنّ جميع الآيات الثلاث السالفة التي تحدثت عن مقصد إحاطة علم الله بما في السموات وما في الأرض – ومنها الساعة والبعث – وظّفت الاستثناء المفرغ فقط، ولم توظف أي نوع آخر من الاستثناء، فهل لذلك دلالة ما؟ وهل قصد الأسلوب القرآني إلى ذلك قصدًا؟

تحدث سيبويه عن الاستثناء المفرغ، وعن الدلالة التي يحملها والفائدة التي يحققها فقال: "فأمّا الوجه الذي يكون فيه الاسم بمنزلته قبل أن تلحق (إلاّ) فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه، وذلك قولك: ما أتاني إلاّ زيدٌ، وما لقيتُ إلاّ زيدًا، وما مررتُ إلاّ بزيدٍ، تجري الاسم مجراه إذا قلت: ما أتاني زيدٌ، وما لقيتُ زيدًا، وما مررتُ بزيدٍ، ولكنّك أدخلتَ (إلاّ) لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتنفي ما سواها، فصارت هذه الأسماء مستثناة" [٧٦].

فإذا علمنا أنّ الاستثناء المفرغ يوجب الحكم لما بعد (إلاّ) وينفيه عمّا قبلها، أدركنا أنّ الدلالة المقصودة في الآيات الثلاث تكمن في ما بعد (إلاّ)، وأنّ الأسلوب القرآني قصد إلى ذلك قصدًا، وعمد إليه عمدًا:

- ففي الآية الأولى: تحقق المقصد في إثبات أنّ كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم؛ إنّما هي في كتاب مبين.

- وفي الآية الثانية: تحقق المقصد بإثبات أنّ الجن لا تعلم الغيب، ولو كانت تعلمه لعلمت بموت سليمان – عليه السلام – غير أنّ الذي دلّهم على موته إنّما كان تلك الدويبة التي لا حول لها ولا قوة.
- وفي الآية الثالثة: تحقق المقصد فيما بعد (إلاّ) وهو (لنعلم) علم وقوع لا علم غيب؛ لأنّه لا يعلم الغيب إلاّ علاّم الغيوب.

وتابع المبرّد سيبويه فنصّ على ما ذكره، غير أنّه أضاف: "وإنّما احتجتَ إلى النفي والاستثناء لأنّك إذا قلت: جاءني زيدٌ فقد يجوز أن يكون معه غيره، فإذا قلتَ: ما جاءني إلاّ زيدٌ نفيتَ المجيء كله إلاّ مجيئه "(٧٧).

والحق أنّ في قول المبرّد هذا إشارة لطيفة لتحقق مقصد الآيات التي مضت باستعمال الاستثناء المفرغ؛ إذ نُفِي أي علم لم يرد في اللوح المحفوظ، ونُفِيتْ أي معرفة للجن بموت سليمان، ونُفي أي سلطان لإبليس على البشر، وإنّما هو تمحيص الله عزّ وجل لخلقه.

درج على تفسير الاستثناء المفرغ بعد ذلك عدد من النحويين؛ فحاموا في فلك سيبويه والمبرّد مع زيادة شرحٍ أو تفسيرٍ أو تفصيل؛ فتحدث ابن يعيش عن فائدة الاستثناء المفرغ قائلاً: "وفائدة الاستثناء في قولك: ما قامَ إلاّ زيدٌ إثبات القيام له ونفيه عمّن سواه، ولو قلت: قامَ زيدٌ لا غير لم يكن فيه دلالة على نفيه عن غيره فاعرفه"(٧٨). وعلّل ابن هشام الأنصاريّ (ت ٧٦١ هـ) سبب تسميته بالمفرغ فقال: "ويسمى ذلك استثناءً مفرغًا لأنّ ما قبل (إلاّ) قد تفرغ لطلب ما بعدها، ولم يشتغل عنه بالعمل فيما يقتضيه "(٧٩).

هكذا، وُظّف أسلوب الاستثناء في تحقيق مقصدٍ من مقاصد سورة سبأ، وهو إحاطة علم الله – عزّ وجل – بما في السموات وما في الأرض، وقد لوحظ أنّ نوع الاستثناء الذي وُظّف كان المفرغ فقط، قصدًا لإثبات الحكم لما بعد (إلاّ).

المبحث الثالث: أثر الاستثناء في إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

أمعن مشركو مكة في تكذيب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنكار رسالته، وإبطال ما جاء به، فوصفوه مرة بأنّه كاهن، ومرة بأنّه ساحر، ومرة بأنّه مجنون، وكانت القيامة والبعث من أعظم ما أنكروه في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد دفعهم هذا الإمعان في التكذيب إلى ابتكار أساليب عدة في الإنكار منها: إتيانهم باسمه – عليه السلام – نكرة في بعض المواضع، واسمه عليه السلام أشهر من أن يُنكّر! قال أبو حيّان: "ولّما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يُخبر عن وقوعه في حيّز من يُتعجب منه، وأتوا باسمه عليه السلام نكرة في قوله: ﴿ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ﴾[٨٠]، وكان اسمه أشهر علم في قريش، بل في الدنيا، وإخباره بالبعث أشهر خبر؛ لأنّهم أخرجوا ذلك مخرج الاستهزاء، والتحلي ببعض الأحاجي المعمولة للتلهي والتعمية، فلذلك نكّروا اسمه"[٨١].

شرع الأسلوب القرآني في إثبات صدق النبي – صلى الله عليه وسلم – موظفًا الاستثناء هذه المرة في سبعة مواضع، واللطيف في هذا التوظيف أنّه لم يستعن بغير الاستثناء المفرغ في هذه المواضع السبعة، وكأنّه قرّر إثبات الحكم لما بعد (إلاّ) ونفيه عن ما قبلها. وفيما يلي بيان بالمواضع السبعة:

١. قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٨٢].

يرى ابن عاشور أنّ الأسلوب القرآني انتقل في هذه الآية من إبطال ضلال المشركين في أمر الربوبية إلى إبطال ضلالهم في صدق الرسول عليه السلام، كما رأى بأنّ أسلوب الكلام قد تغيّر من "الأمر بمحاجة المشركين إلى الإخبار برسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – تشريفًا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض. وفي هذه الآية إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على منكريها من العرب، وإثبات عمومها على منكريها من اليهود "[٨٣].

بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس كافة، وفي هذا إثباتٌ لصدقيته عليه السلام، وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من متقدمي المفسرين، حيثُ نُقل عن ابن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨ هـ) قوله في لفظ (كافة) من الآية الكريمة: " أي إلى العرب والعجم وسائر الأمم، وتقديره: إلى الناس كافة "[٨٤]. وقال أبو جعفر النحاس: " قال مجاهد: أي إلى الناس جميعًا، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: أُرسلت إلى كل أحمر وأسود "[٨٥]. وفصّل الزجاج فقال: " معنى (كافة): الإحاطة في اللغة، والمعنى: أرسلناك جامعًا للناس في الإنذار والإبلاغ، فأرسل الله النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى العرب والعجم، وقال: أنا سابق العرب إلى الإسلام، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس؛ أي: الرسالة عامة "[٨٦]. وقال ابن عطية: " الكافة: الجمع الأكمل من الناس "[٨٧].

جاء الاستثناء في هذه الآية مفرغًا، والتفريغ في الاستثناء إنّما يكون باعتبار ما يتفرغ له الفعل من فاعل أو مفعول أو خبر أو غيرها، وقد تفرغ الفعل هنا لـ (كافةً)

في إشارة جليلة إلى إثبات عموم الرسالة، وعدم تخصيصها بقوم دون قوم، فهي ردٌّ على من أنكر الرسالة، وردٌّ على من أنكر عمومها.

وقد اختلف المفسرون والنحاة في إعراب (كافة)؛ فذهب ابن عطية إلى أنّها منصوبة على الحالية، وتقدمت على صاحبها (للناس) للاهتمام [٨٨]. وعارض الزمخشري وقوعها حالاً جاعلاً إيّاها نعتًا لمصدر محذوف؛ أي: إرسالةً كافة [٨٩]. ورجّح أبو حيّان أن تكون حالاً، وردّ قول من جعلها صفةً لمصدر محذوف وهو الزمخشري، وقول من جعلها بمعنى (جامعًا) والهاء فيها للمبالغة وهو الزجاج [٩٠].

وجمع السمين الحلبي الخلاف في (كافة) فقال: "فيه خلاف:

- أحدها: أنّه حال من كاف (أرسلناك)، والمعنى: إلاّ جامعًا للناس في الإبلاغ.
- الثاني: أنّ (كافة) مصدر جاء على الفاعلة كالعافية والعاقبة، وعلى هذا فوقوعها حالاً: إمّا على المبالغة، وإمّا على حذف مضاف؛ أي: ذا كافة للناس.
- الثالث: أنّ (كافة) صفة لمصدر محذوف تقديره: إلاّ إرسالةً كافة.
- الرابع: أنّ قوله (كافة) حال من (للناس)؛ أي: للناس كافة" [٩١].

والحق أنني أميل إلى الرأي القائل بأنّ (كافةً) في الآية الكريمة حالٌ من (الناس)، تقدمت على صاحبها للعناية والاهتمام، وقد يعترض معترضٌ بأنّ جمهور النحويين منعوا تقديم الحال على صاحبها إذا كان مجرورًا بحرف؟ والإجابة عن هذا الاعتراض بأن الجمهور وإنْ كانوا قد منعوا ذلك إلى أنّ السماع قد ورد به، كما رجّح هذا الرأي القائل بالتقديم عددٌ من النحاة منهم الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، وابن مالك[٩٢]، ولهم في ذلك شواهد مذكورة في المظان النحوية. ومرجع هذا الميل أنّ هذا

التوجيه النحوي لـ (كافة) سيكون له أثره في الاستثناء المفرغ من حيث حمل الدلالة المطلوبة والمعنى المقصود الذي يُثبت فيه عموم رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم-.

وثمة إضافة بلاغية أوردها ابن عاشور في هذا الشأن وجديرة بأن تُذكر وهي: " وأفاد تركيب ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ قصر حالة عموم الرسالة على كاف الخطاب في قوله (أرسلناك) وهو قصر إضافي، أي دون تخصيص إرسالك بأهل مكة أو بالعرب أو بمن يجيئك يطلب الإيمان والإرشاد... ويقتضي ذلك إثبات رسالته بدلالة الاقتضاء؛ إذ لا يصدق ذلك القصر إلاّ إذا ثبت أصل رسالته، فاقتضى ذلك الرد على المنكرين كلهم سواء من أنكر رسالته من أصلها، ومن أنكر عمومها بتخصيصها " [٩٣]. وإضافة ابن عاشور النفيسة هذه تشير إلى علاقة محكمة ووشيجة ومنتظمة بين الاستثناء والقصر.

٢. قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[٩٤].

يرى أغلب أرباب التفسير [٩٥] أنّ هذه الآية تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – وتخفيف عنه جرّاء ما لقيه من قومه من تكذيب واستهزاء وعناد وكفر، إذ هي سيرة الأمم من قبله، وسنة درجوا عليها مع أنبياء الله. وعادةً ما يتقدم التكذيبَ والهزء المترفونَ، وهم الرؤساء والزعماء وأولو المال. قال الزجاج: " مترفوها: أولو التُّرفة، وهم رؤساؤها وقادة الشر ويتبعهم السَفَلة "[٩٦]. وقال النحاس في (مترفوها): "رؤساؤها ومتكبروها وقادتها" [٩٧]. وقد خصّهم الله تعالى بالذكر لأنّ عادتهم المبادرة بالتكذيب[٩٨].

استعمل الأسلوب القرآنيّ الاستثناء المفرغ، حيث تفرّع الفعل (أرسلنا) للجملة الحالية (قال مترفوها) هنا للدلالة على أنّ أول المكذبين هم المترفون، وإنّما

سابقوا إلى التكذيب نظرًا لانشغالهم الدائم بالدنيا وزخرفها، فتأبى عقولهم وقلوبهم خلافها، لذا يسارعون في الكفر.

جعل الزمخشري جملة (قال مترفوها) حاليةً [٩٩]، وتابعه السمين الحلبيّ بزيادة وتفصيل فقال: " إلاّ قال مترفوها: جملة حالية من (قرية) وإن كانت نكرة؛ لأنّها في سياق النفي. قوله (بما أرسلتم) متعلق بخبر إنّ، و (به) متعلق بـ (أرسلتم)، والتقدير: إنّا كافرون بالذي أُرسلتم به، وإنّما قدم للاهتمام، وحسّنه تواخي الفواصل " [١٠٠].

وفي قول السمين هذا إشارة جلية إلى أنّ الآية جاءت في سياق تكذيب الرسل.

٣. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٠١].

قال ابن عاشور في مطلع تفسير هذه الآية: " انتقالٌ من حكاية كفرهم وغرورهم وازدهائهم بأنفسهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتاب والدين الذي جاء به " [١٠٢].

إذن.. يستمر كفار مكة في تكذيب النبي عليه السلام، وجاء تكذيبهم في هذه الآية على مستويات: ما هذا إلاّ رجل – ما هذا إلاّ إفك – ما هذا إلاّ سحر مبين، فكذّبوا أولاً النبي صلى الله عليه وسلم، وكذّبوا ثانيًا القرآن، ثمّ كذّبوا الحق وهو الدين كله.

طعن كفار مكة أولاً في النبي عليه السلام لأنّه يقدح في الأوثان ودين الآباء والأجداد [١٠٣] فقالوا: ما هذا إلاّ رجل بصيغة الاستثناء المفرغ الذي يتفرغ فيه المبتدأ للخبر، فهو في نظرهم مجرد رجل، لا هو نبيٌّ مرسل، ولا هو رسولٌ مصدّق، وقد نقلت صيغة الاستثناء هذه المعنى المراد.

ثم طعنوا في القرآن فقالوا: (ما هذا إلاّ إفك) بصيغة الاستثناء المفرغ أيضًا، إذ القرآن في رأيهم مجرد كلام مفترى ومصنوع من محمد وليس كلام الله عزّ وجل [١٠٤]. وقد جعل ابن عاشور جملة "(وقالوا ما هذا إلاّ إفك) عطف على جملة (وقالوا ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدكم) فالفعلان مشتركان في الظرف" [١٠٥].

وطعنوا أخيرًا بالحق أو بعموم الرسالة فقالوا: (ما هذا إلاّ سحر مبين) بصيغة الاستثناء المفرغ أيضًا، وفي مسعى منهم إلى حصر ما جاء به الرسول عليه السلام بالسحر البيّن، حيث يرى المشركون أنّ انجذاب الناس له، واستماعهم إليه، وإقبالهم عليه إنّما هو عمل ساحر.

لقد وُظّف الاستثناء المفرغ في المواضع الثلاثة من الآية لنقل الدلالة التي ارتضاها المشركون، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – عندهم مجرد رجل، والقرآن عندهم إفك، والحق عندهم سحر، وقد توقف الكلام الذي قبل (إلاّ) عن التمام، فلم يتم إلاّ بما بعدها. كما أنّ الاستثناء هنا استثناء لغوي لا استثناء نحوي[١٠٦]؛ والفرق بينهما أنّ الأول اعتمد المعنى الدلالي، فيما اعتمد الآخر الأثر النحوي، لذا بقيت هذه الأسماء على حالها من الإعراب قبل دخول (إلاّ).

٤. قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [١٠٧].

تصف هذه الآية بعض الأراجيف التي أثارها المشركون حول الرسول – صلى الله عليه وسلم – من كذب أو جنون، لذا انتصر القرآن له عليه السلام بـ (إن هو إلاّ نذير). قال الزجاج في تفسير (إن هو إلاّ نذير): "أي: لينذركم أنّكم إن عصيتم لقيتم عذابًا شديدًا" [١٠٨]. وقال فيه أبو حيان: "ولمّا نفى تعالى عنه الجِنّة أثبت أنّه نذير بين

يدي عذاب شديد؛ أي: هو متقدم في الزمان على العذاب الذي توعدون به، و (بين يدي) يشعر بقرب العذاب "[١٠٩].

وقد ساعد في تحقيق هذا المعنى أسلوب الاستثناء المفرغ المتوسط بين المبتدأ والخبر، حيث تعاضد حرف النفي (إنْ) الذي يحمل معنى (ما) مع المستثنى منه المحذوف الذي قد يُقدّر بـ (الإخبار) [١١٠] لنفى عنه عليه السلام الجنون، وحصره في إنذار البشر جميعهم.

وأضاف ابن عاشور لهذا المعنى اللغويّ معنىً بلاغيًّا حين قال: " فالقصر المستفاد من (إنْ هو إلاّ نذير لكم) قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا؛ أي: هو مقصور على صفة النذارة، لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها "[١١١].

وما من شك في أنّ هذا المعنى البلاغي اللصيق بالمعنى اللغوي قد أسهم في تبيان الدلالة وإيضاح المقصود، فإذا علمنا أن القصر الإضافي هو: ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين؛ أدركنا أن الأسلوب القرآني عمد إلى قصر صفة النذارة على الرسول عليه السلام.

٥. قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١١٢].

" هذا استقصاء لبقايا شُبَه التكذيب لدحضها، سواء منها ما تعلقوا به من نحو قولهم: كاهن وشاعر ومجنون، وما لم يدّعوه ولكنّه قد يخطر ببال واحد منهم أن يزعم أنّه يريد بهذه الدعوة نفعًا لنفسه يكون أجرًا له على التعليم والإرشاد، وهم لّما ادّعوا أنّه ساحر أو أنّه شاعر أو أنّه كاهن لَزِم من دعواهم أن يتعرض لجائزة الشاعر وحلوان الكاهن، فلمّا نُفيت عنه تلك الخلال، لم يبق لهم في الكنانة سهم طعنٍ إلاّ أن يزعموا أنّه يطلب أجرًا على الإرشاد "[١١٣].

جاء الاستثناء المفرّغ في هذه الآية أيضًا (إنْ أجري إلاّ على الله) ليوضح أنّ الرسول عليه السلام طلب ثوابًا أخرويًّا، ولم يطلب مقابلاً ماديًّا، وهنا يتجلى معنى التفريغ في الاستثناء؛ إذ تفرّغ الاستثناء لما بعد إلاّ (على الله)، وإيجاب الحكم لما بعد (إلاّ)، وهو المراد من الاستثناء المفرغ؛ ذلك أنّ طلب الأجر الماديّ منافٍ لشرف الرسالة المحمدية ونبلها، وبهذا أوصل الاستثناء المفرغ الدلالة المقصودة وخدم المعنى المراد.

تحدث عن هذا المعنى عدد من أهل التفاسير، فقال الزجاج: " أي: إنّما أطلب ثواب الله بتأدية الرسالة "[١١٤]. وقال ابن عطية: " أَمَره الله تعالى في هذه الآية بالتبري من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على الله في الأجر"[١١٥].

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الجزء الأول من هذه الآية (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) يوحي بأنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد سأل المشركين شيئًا، وقد أوضح هذا المعنى السمين الحلبي فقال: " والمعنى يحتمل أنّه لم يسألهم أجرًا البتة، كقولك: إن أعطيتني شيئًا فخذه، مع علمك أنّه لم يعطك شيئًا، ويؤيده: (إن أجري إلاّ على الله)، ويحتمل أنّه سألهم شيئًا نفعه عائدٌ عليهم "[١١٦].

وثمة إشارة بلاغية لطيفة ساقها ابن عاشور في معرض حديثه عن الآية حيث قال: " وجملة (إن أجري إلاّ على الله) مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، جوابًا لسؤال مقدر أن يسأل السامع: كيف لا يكون له على ما قام به من أجر؟ فأجيب بأنّ أجره مضمون وعده الله به؛ لأنّه إنّما يقوم بعملٍ لمرضاته وامتثال أمره فعليه أجره. وحرف (على) يقتضي أنّه حق الله وذلك بالنظر إلى وعده الصادق" [١١٧]. وتقدير المحذوف – كما أشار ابن عاشور – هو الأسلم والأرجح في نفي ما قد يُتوهم من أخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – لأجر دنيويّ؛ وهو حق؛ إلاّ أنّ مرضاة الله – عزّ وجل – هي الأجر الأبقى.

خاتمة

درس هذا البحث مواضع الاستثناء في سورة سبأ دراسةً نحويةً دلالية، حيث حاول أن يربط بين هذا الأسلوب ومقاصد السورة في مسعىً منه إلى الإجابة عن تساؤل مركزي هو: لِمَ تكرر هذا الأسلوب بهذا النسق التعبيري اللافت؟ وهل لهذا التكرار علاقة ما بمقاصد السورة وأغراضها ومعانيها؟ وهل أسهم الاستثناء في إيضاح الدلالة المقصودة والمعنى المراد؟ لذا تعقّب البحث مواطن الاستثناء في السورة، واجتهد في تحليلها وربطها بالأغراض والمقاصد، ليصل في نهايته إلى النقاط الآتية:

١. قصدت سورة سبأ إلى تحقيق مقاصد ثلاثة ذكرها ابن عاشور في مستهل تفسيره للسورة، وليس للبحث فيها سبقٌ أو فضل. وهذه المقاصد هي: إبطال قواعد الكفر والشرك، وإثبات إحاطة علم الله بما في السموات وما في الأرض ومِن ذلك البعث والجزاء، وإثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته للناس أجمعين.

٢. وظّف الأسلوب القرآني الاستثناء لتحقيق هذه المقاصد في خمسة عشر موضعًا: ثلاثة عشر منها بصيغة الاستثناء المفرغ، وموضعين احتمل كلٌّ منهما الاتصال والانقطاع، وقد أثبت البحث أنّ الاستثناء كان باستعمال أم الباب فقط (إلاّ)، إذ لم ترد أي أداة سواها في السورة.

٣. استخدم الأسلوب القرآني صيغة الاستثناء المحتمل للاتصال أو الانقطاع في موضعين فقط، بقصد إخراج الفريق المؤمن من أتباع الشيطان في موضوع، وليثبت أنّ الإيمان والعمل الصالح هما المقربان لله، لا الأموال والأولاد في موضع آخر. وقد رجّح البحث أن يكون الاستثناء متصلاً في الموضع الأول، وأن يكون منقطعًا في الموضع الثاني.

٥. وظّف الأسلوب القرآني الاستثناء المفرغ لتقرير الحكم لما بعد (إلاّ)، ونفيه عن ما قبلها في موضوعات: مجازاة الكفار، الشفاعة بإذن الله، الجزاء من جنس العمل، كل صغيرة وكبيرة في كتاب مبين، الجن لا تعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلاّ الله، الرسالة للناس كافة، المترفون أول المكذبين، تكذيب الرسول والقرآن والحق. وقد تعاضد في صيغة التفريغ هذه النفي والاستثناء لتقرير المعنى المراد، كما أنّ صيغة التفريغ هذه التي طغت على مواضع الاستثناء في السورة أسهمت بصورة جلية في إيضاح مقاصد السورة وأغراضها.

الهوامش والتعليقات:

١ - ينظر: ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط (٣)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، مادة (ثني)

٢ - الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: محمد صدّيق المنشاوي، ط (١)، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص (٢٢)

٣ - ينظر: القوزي، عوض حمد، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ط (١)، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨١ م، الصفحات (٦٧، ١٠٧، ١٥٠).

٤ - سيبويه: عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق:عبد السلام هارون، ط (٣)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨ م، ٢ / ٣٠٩

٥ - المبرد: محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ط (٢)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤ م، ٤ / ٣٨٩.

٦ - ينظر: ابن السراج: محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط (٣)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦ م، ١ / ٢٨١ وما بعدها.

٧ - ابن جني: عثمان: اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، ط (٢)، دار الأمل، إربد، ٢٠٠١ م، ص (٣٨).

٨ - ابن يعيش: موفق الدين: شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ٢ / ٧٥ – ٧٦.

٩ - الشلوبين: أبو علي: التوطئة، تحقيق: يوسف أحمد المطوع، دار التراث العربي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٣ م، ص (٢٧٩).

١٠ - ابن مالك: محمد الأندلسي: شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، ط (١)، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٠م، ٢ / ٦٤.

١١ - جبران: محمد علي محمد، أسلوب الاستثناء في القرآن – دراسة تطبيقية نحوية (أطروحة دكتوراه)، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٨ م.

١٢ - عجيزة: محمد علي إبراهيم، أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية (رسالة ماجستير)، جامعة الزقاقيق، مصر، ١٩٩٤ م..

١٣ - الشجراوي: عزام محمد، أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم بين النحو والبلاغة (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٩١ م.

١٤ - الآية (٧٣) من سورة الأحزاب.

١٥ - أبو حيان: محمد بن يوسف: البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣ م، ٧ / ٢٤٧.

١٦ - ابن عاشور: محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م، ٢٢ / ١٣٤.

١٧ - النحاس: أبو جعفر: معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط (١)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩ م، ٥ / ٤٠٣.

١٨ - الآية (١٧) من سورة سبأ.

١٩ - الفرّاء: يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجّار، ط (٣)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ٢ / ٣٥٩

٢٠ - الآية (١) من سورة محمد.

٢١ - الآية (٢٨) من سورة محمد.

٢٢ - الزجّاج: إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط (١)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م، ٤ / ٢٤٩-٢٥٠

٢٣ - أبو حيان: البحر المحيط ٧ / ٢٦١.

٢٤ - النحاس: معاني القرآن الكريم ٥ / ٤٠٩.

٢٥ - ابن عطية: عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ٤ / ٤١٥.

٢٦ – الزمخشري: محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، ط (١)، مكتبة العبيكان، السعودية، ١٩٩٨م، ٥ / ١٠٦.

٢٧ – ابن مجاهد:أبو بكر: السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، ط (٣)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م، ص (٥٢٨ – ٥٢٩). ويُنظر: أبو حيان: البحر المحيط ٧ / ٢٦١. وابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ١٧٤.

٢٨ – ذكر محمد عبد الخالق عضيمة في كتابه (دارسات لأسلوب القرآن الكريم) ما نصّه: " الاستفهام كالنفي، وقد جاء الاستثناء بعد الاستفهام في آيات كثيرة، كما جاء بعد النهي". عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ١ / ٢٣٣

٢٩ – الشاطبي: إبراهيم بن موسى: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: عيّاد بن عيد الثبيتي، ط (١)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٧ م. ٣ / ٣٧٥.

٣٠ – ينظر: القرافي:شهاب الدين، الاستغناء في الاستثناء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م، ص (١٥١).

٣١ – الآية (٢٠) من سورة سبأ.

٣٢ – ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤١٧.

٣٣ – الزمخشري: الكشاف ٥ / ١١٨.

٣٤ – أبو حيان: البحر المحيط ٧ / ٢٦٣.

٣٥ – السمين الحلبي: أحمد بن يوسف: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، د.ت، ٩ / ١٧٧.

٣٦ – الآية (٢٣) من سورة سبأ. وجاء في كتاب السبعة في القراءات: " واختلفوا في فتح الألف وضمها من قوله ﴿ إلاّ لمن أُذن له ﴾، فقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿ أَذن له ﴾ بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿ أُذن له ﴾ بضم الألف ". ابن مجاهد: السبعة في القراءات، ص (٥٢٩).

٣٧ – الفراء: معاني القرآن ٢ / ٣٦١.

٣٨ - الأخفش الأوسط: سعيد بن مسعدة: معاني القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، ط (١)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م، ٢ / ٤٨٣

٣٩ - الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٢ – ٢٥٣.

٤٠ - ينظر: النحاس، ٥ / ٤١٥.

٤١ - ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤١٨.

٤٢ - الزمخشري: الكشاف ٥ / ١١٩.

٤٣ - أبو حيان: البحر المحيط ٩ / ٢٦٤.

٤٤ - ينظر: القرافي، الاستغناء في الاستثناء ص (١٨٠)

٤٥ - السمين الحلبي: الدر المصون ٩ / ١٧٨ بتصرف.

٤٦ - المصدر السابق ٢٢ / ١٨٨.

٤٧ - الآية (٣٣) من سورة سبأ.

٤٨ - ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢١١.

٤٩ - الآية (٣٧) من سورة سبأ.

٥٠ - الفرّاء: معاني القرآن ٢ / ٣٦٣.

٥١ - الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٥.

٥٢ - ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٢.

٥٣ - الزمخشري: الكشاف ٥ / ١٢٦.

٥٤ - أبو حيّان: البحر المحيط ٩ / ٢٧٢.

٥٥ - سيبويه: الكتاب ٢ / ٣١٩.

٥٦ - ينظر: المبرّد، المقتضب ٤ / ٤١٢. وقد أبطل القرافي في كتابه (الاستغناء) ها الحد الذي ذكره سيبويه والمبردّ، وحدّ الاستثناء المنقطع بقوله: "أن تحكم على غير جنسٍ ما حكمت عليه أولاً،

أو بغير نقيض ما حكمت عليه أولاً". إذ هو لا يوافق النحاة المتقدمين في أنّ المنقطع: ما كان من غير جنس الأول، وله حديث مفصل في كتابه المذكور آنفًا – الصفحة (٢٩٦) وما بعدها، والمقام هنا ليس مقام تفصيل في هذه المسألة.

٥٧ – ابن يعيش: شرح المفصّل ٢ / ٧٩ – ٨٠.

٥٨ – الآية (٣) من سورة سبأ.

٥٩ – الزمخشري: الكشاف ٥ / ١٠٦.

٦٠ – ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ١٤٠.

٦١ – ينظر: الشاطبي: المقاصد الشافية ٣ / ٣٧٥.

٦٢ – قرأ الجمهور بالرفع، وقرأ نافع والأعمش وقتادة بالنصب. ينظر: ابن مجاهد: السبعة في القراءات، ص (٥٢٧).

٦٣ – ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٥، وأبو حيان: البحر المحيط ٧ / ٢٤٨، والسمين: الدر المصون ٩ / ١٤٩.

٦٤ – الآية (١٤) من سورة سبأ.

٦٥ – النحاس: معاني القرآن الكريم ٥ / ٤٠٣.

٦٦ – السمين الحلبي:الدر المصون ٩ / ١٦٨. وينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤١٢، والزمخشري: الكشاف ٥ / ١١٣.

٦٧ – ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ١٦٥.

٦٨ – الآية (٢١) من سورة سبأ.

٦٩ – ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ١٨٥.

٧٠ – الآية (٢٠) من سورة سبأ.

٧١ – الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٢.

٧٢ – النحاس: معاني القرآن ٥ / ٤١٤.

٧٣ – ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤١٧.

٧٤ - ينظر: السمين الحلبي: الدر المصون ٩ / ١٧٧.

٧٥ - الأخفش الأوسط: معاني القرآن ٢ / ٤٨٣.

٧٦ - سيبويه: الكتاب ٢ / ٣١٠.

٧٧ - المبرد: المقتضب ٤ / ٣٨٩.

٧٨ - ابن يعيش: شرح المفصل ٢ / ٨٧.

٧٩ - ابن هشام الأنصاري:عبد الله بن يوسف: شرح قطر الندى وبل الصدى، ضبط: يوسف البقاعي، ط (١)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ص (٣٣٥ – ٣٣٦).

٨٠ - الآية (٧) من سورة سبأ.

٨١ - أبو حيان: البحر المحيط ٧ / ٢٥٠.

٨٢ - الآية (٢٨) من سورة سبأ.

٨٣ - ابن عاشور ٢٢ / ١٩٧ – ١٩٨.

٨٤ - أبو حيان: البحر المحيط ٩ / ٢٦٩.

٨٥ - النحاس: معاني القرآن الكريم ٥ / ٤١٨. والحديث صحيح الإسناد: أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. ينظر: الضياء المقدسي:أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط (٣)، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠ م، ٥/ ٤٣، برقم (١٦٥٥).

٨٦ - الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٤. والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين. ينظر:: الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ٣/ ٣٢١، برقم (٥٢٤٣). والطبراني في المعجم الأوسط، ينظر: الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٩٠م، ٣/ ٢٤١، رقم (٣٠٣٦).

٨٧ – ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٠.

٨٨ – ينظر: المصدر نفسه.

٨٩ – ينظر: الزمخشري: الكشاف ٥ / ١٢٣.وردّ قوله هذا ابنُ هشام الأنصاري بقوله: "ووهمه في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ إذ قدّر (كافة) نعتًا لمصدر محذوف؛ أي: إرسالةً كافة أشد؛ لأنّه أضاف إلى استعماله فيما لا يعقل إخراجه عمّا التُزم فيه من الحالية ".
ابن هشام: عبد الله بن يوسف: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م، ٢ / ٦٤٦ – ٦٤٧.

٩٠ – ينظر: أبو حيان: البحر المحيط ٩ / ٢٦٩.

٩١ – السمين الحلبي: الدر المصون ٩ / ١٨٦.

٩٢ – ينظر: ابن عقيل، شرحه على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط (٢٠)، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٠ م، ٢ / ٢٦٤.

٩٣ – ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ١٩٩.

٩٤ – الآية (٣٤) من سورة سبأ.

٩٥ – ينظر على سبيل المثال: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٢، والزمخشري: الكشاف ٥ / ١٢٥، وابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢١١.

٩٦ – الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٥.

٩٧ – النحاس: معاني القرآن ٥ / ٤١٩.

٩٨ – ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٢.

٩٩ – ينظر: الزمخشري: الكشاف ٥ / ١٢٥.

١٠٠ – السمين الحلبي: الدر المصون ٩ / ١٩٢.

١٠١ – الآية (٤٣) من سورة سبأ.

١٠٢ – ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٢٥.

١٠٣ – ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٤.

١٠٤ - ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٤.

١٠٥ - ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٢٦.

١٠٦ - يُراجع: حماسة: بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص (١٧١).

١٠٧ - الآية (٤٦) من سورة سبأ.

١٠٨ - الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٧.

١٠٩ - أبو حيان: البحر المحيط ٩ / ٢٧٧.

١١٠ - ينظر: القرافي، الاستغناء في الاستثناء ص (٢٣٨).

١١١ - ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٣٥.

١١٢ - الآية (٤٧) من سورة سبأ.

١١٣ - ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٣٥ – ٢٣٦.

١١٤ - الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٥٧.

١١٥ - ابن عطية: المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٥.

١١٦ - السمين الحلبي: الدر المصون ٩ / ٢٠٠.

١١٧ - ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٣٧.

مصادر البحث ومراجعه :

١. القرآن الكريم (مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبيّ).

٢. الأخفش الأوسط: سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، ط (١)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م.

٣. جبران: محمد علي محمد، أسلوب الاستثناء في القرآن – دراسة تطبيقية نحوية (أطروحة دكتوراه)، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٨ م.

٤. الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: محمد صدّيق المنشاوي، ط (١)، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٥. ابن جني: أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، ط (٢)، دار الأمل، إربد، ٢٠٠١ م.

٦. الحاكم: محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٧. حماسة: محمد عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٨. أبو حيان: أحمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣ م.

٩. الزجّاج: إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط (١)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠. الزمخشري: محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، ط (١)، مكتبة العبيكان، السعودية، ١٩٩٨م.

١١. ابن السراج: محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط (٣)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦ م.

١٢. السمين الحلبي: أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، د.ت.

١٣. سيبويه: عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، ط (٣)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨ م.
١٤. الشاطبي: إبراهيم بن موسى، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: عيّاد بن عيد الثبيتي وآخرين، ط (١)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٧ م.
١٥. الشجراوي: عزام محمد، أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم بين النحو والبلاغة (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٩١ م.
١٦. الشلوبين: أبو علي، التوطئة، تحقيق: يوسف أحمد المطوع، دار التراث العربي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٣ م.
١٧. الضياء المقدسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد، الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط (٣)، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠ م.
١٨. الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الاوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٩٠م.
١٩. عجيزة: محمد علي إبراهيم، أسلوب الاستثناء في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية (رسالة ماجستير)، جامعة الزقاقيق، مصر، ١٩٩٤ م..
٢٠. ابن عطية: عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
٢١. عضيمة: محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
٢٢. ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله، شرحه على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط (٢٠)، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٠ م.
٢٣. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٢٤. الفرّاء: يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجّار، ط (٣)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢٥. القرافي: شهاب الدين أحمد بن إدريس، الاستغناء في الاستثناء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م.
٢٦. القوزي، عوض حمد، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ط (١)، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨١ م.
٢٧. المبرد: محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ط (٢)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤ م.
٢٨. ابن مجاهد: أبو بكر، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، ط (٣)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م.
٢٩. محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط (٣)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٢م.
٣٠. ابن مالك: محمد الأندلسي، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، ط (١)، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.
٣١. ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط (٣)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
٣٢. ابن الناظم: بدر الدين بن محمد، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، د.ت.
٣٣. النحاس: أبو جعفر، معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط (١)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٩ م.
٣٤. ابن هشام الأنصاري: عبد الله بن يوسف، شرح قطر الندى وبل الصدى، ضبط: يوسف البقاعي، ط (١)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
٣٥. ابن هشام الأنصاري: عبد الله بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م.
٣٦. ابن يعيش: موفق الدين، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

أنساق الخطاب الحكائي:
التجليات النسقية لنظرية العصا
في نموذج حكائي للجاحظ

د. يوسف محمود عليمات

الأردن – الزرقاء

الجامعة الهاشمية – كلية الآداب – قسم اللغة العربية

ورد البحث في ٢/ ١٢/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٤/ ٣/ ١٤٣٧هـ

أنساق الخطاب الحكائي: التجليات النسقية لنظرية العصا في نموذج حكائي للجاحظ

د. يوسف محمود عليمات

ملخص البحث

تروم هذه الدراسة قراءة نموذج حكائي للجاحظ بالكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في بنية الحكاية.

وقد اتخذت الدراسة في هذا الصدد مسارين فاعلين هما:

أ- مسار نظري يحدّد المفاهيم التالية: النسق، والحكاية، والخطاب، كما بدت في النظرية النقدية المعاصرة، وتحديداً في كتابات: نيكلاس لومان، Niklas Luhmann، وجيرار جينت G. Genette، وفلاديمير بروب V. propp، ورولان بارت Roland Barthes وغيرهم.

ب- مسار إجرائي يجلّي العلاقة التوترية بين الذات العربية والآخر الشعوبي الذي سعى إلى انتهاك قدسية "العصا" وخصوصيتها بوصفها مرجعية للمحمولات الثقافية والتاريخية في الفكر العربي.

وفي هذا الإطار، تمكنت القراءة الفاحصة في هذه الحكاية من الكشف عن الفاعليات النسقية التالية: إشراقات التاريخ أو تاريخ الفتوّة، وجماليات الإكراه ونسقية العبور، والجسد المُتعب وسلطوية العصا، وعتبات الخوف: التوتر والعصا الساحرة، وإرهاصات الجوع ونار الحياة، والمكان المدنس وحضارة العصا، والهوية الثقافية وفلسفة الثبات، والتغلبي المخاتل ومناقب العصا.

The patterns of Narrative Discourse: The Patterned Revelations of stick theory in a narrative Sample by Al-Jahidh

By: Dr. Yousef M. Olaymat

ABSTRACT

The main aim of this study is to discuss a narrative sample by Al-Jahidh in order to reveal the implied cultural patterns in the structure of the narrative.

In order to achieve this aim, the study will be divided into two parts:

A- The theoretical part that will make use of the modern literary theory in order to highlight the concepts of pattern, narrative, and discourse. The study will define these concepts by referring to some critics like: Niklas Luhmann, Arthur Asa Burget, Michel Foucault, Gerard Genette, Vladimir Propp, Roland l3arthes, and others.

B- The practical part that will clarify the tension between the Arab ego and the Other that belongs to the People and seeks to violate the holiness of the "stick" and its uniqueness as a reference point to the historical and cultural implications in the Arab thought.

As a result, the close reading of this narrative reveals the following patterns, history revelations or the history of youth, the aesthetics of using force and the patterned crossing over, the exhausted body and the authority of the stick, the thresholds of fear: tension and the magical stick, anticipation of hunger and the "fire" of life, the violated place and the civilization of the stick, the cultural identity and the philosophy of stability, The Cunning Attaghlibi and the traits of the stick.

١:١: النسق، والخطاب، والحكاية: مدخل نظري

١:١: يتجلى النسق في النقد الثقافي Cultural Criticism ليكوّن طريقة منهجية للكشف عن مضمرات الخطاب الأدبي، وما يتوارى في ما وراء لغة الخطاب من جمالياتٍ ناجزة تتسم بالمخاتلة وتعدد المحتمل.

وتبدو علاقة هذه الأنساق بالخطاب الأدبي بما هو واقعة ثقافية – تبدو علاقة جذرية تتأسس، بدورها، على تفكيك الأبعاد الوظيفية للخطاب بوصفها معطيات نسقية قادرة على إنتاج مفاهيم وإشارات عائمة وغير متوقعة. ولهذا "توسم الوظائف في النص التخييلي بأنها تملك تنوعاً في الأبعاد الموضوعية، والتي تشارك بشكل مطابق المبادئ الموضوعية للعمل الأدبي في إطار التفكير الكلّي" (١).

وقد تحدّث نيكلاس لومان Niklas Luhmann عما سمّاه "البرنامج الشّرْطي" للنسق، بمعنى أن النسق يتوجه دائماً إلى حدود المدخلات، وينتج قرارات معينة عند وجود مدخلات معينة دون الاكتراث لأية تبعات (٢). ولأن النسق المفتوح، في رؤية لومان، يجسد الاختلاف بين النسق والبيئة، فهو يخطّ حدوده عبر عملياته النوعية الخاصة، ويميز نفسه عن البيئة، ولا يمكن مراقبته كنسق إلاّ بعد أن يقوم بذلك، وبهذه الطريقة (٣). وبما أن النسق Category نظام فاعل في بنية الخطاب، فإنه "يتحدّد عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرّد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلاّ في وضع محدّد ومقيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر" (٤).

إن جماليات الخطاب بوصفها تجلّياً رمزيّاً تفرض قانون "الدَّريَّة النسقية"، وهو قانون يفعّل حضور الأنساق الثقافية وتشظياتها لتشكل شبكة من العلائق والوظائف المنتجة.

ولهذا، فإن النسق بسبب طبيعته السردية، يتحرك في حبكة متقنة، فهو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائماً، ويستخدم أقنعة كثيرة أهمها قناع الجمالية اللغوية(٥).

وفي ضوء هذا المعطى التضافري بين الجمالي والنسقي، فإن النصوص "تتضمن في بناها أنساقاً مضمرة ومراوغة قادرة على المراوغة والتمنع، ولا يمكن كشفها أو كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي إلاّ بإنجاز تصور كلّي حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع" (٦). ولذلك فإن "النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية والذهنية وحتى الاقتصادية" (٧).

فالخطاب النسقي، إذن، ينفتح على جماليات الثقافة قصد استجواب الماورائيات الجمالية ذاتها؛ ذلك أن الاستجواب، كما يشير آرثر أيزا برجر Arthur Asa Barget هو العملية التي توجد بها التمثيلات في الثقافة، وهي إن جاز التعبير، تحمل الأفراد على قبول الأيديولوجية المحمولة بواسطة صنع تلك التمثّلات" (٨).

٢-١ يبرز الخطاب Discourse في نقد ما بعد الحداثة بوصفه نظاماً نسقياً ذا طابع دلالي غير متناهٍ، ووفقاً لهذا التصور يشكل الخطاب، كما يقول تزفيتان تودروف Tzvetan Todorov، مظهراً فعلياً للغة، وما تنتجه بالضرورة في سياق محدّد، إذ لا يتضمن الخطاب العناصر اللسانية فحسب، ولكنه يدرس ظروف إنتاجها (٩).

وقد تمكّن ميشيل فوكو Michel Foucault من إبراز فاعليات الخطاب وتمثيلاته النسقية بفعل التنظير لواشجة مؤثرة بين الخطاب والسلطة. فالسلطة في رؤية فوكو تشكل قوة جوهرية تسيّر التجارب الإنسانية كلّها، مثلما تتوق إلى فكرة الهيمنة والحكم (١٠).

وبناء على هذا، فإن "مفهوم الخطاب" يرتبط إلى حدّ بعيد بـ "السلطة"، وبالمعنى نفسه الذي يشير فيه الخطاب إلى شكل أو صيغة ما للغة المنظمة اجتماعياً"[١١].

ومن هنا، نلحظ أن فوكو يدعو إلى ما يسمى بـ "علمية الخطاب"، بحيث يسلّع العلم في الدراسات الإنسانية بوصفه دراسة، وليكون خطاباً موضوعياً لا يعوّل على التخمين الجمالي فحسب، وإنّما يعتمد الوثوق بتبصّر الحقيقة [١٢]. وهكذا يوظف الخطاب في الحساسية النقدية الجديدة بكونه مثالاً للكيفية التي توصف بها وظائف الخطاب التي تشكل نسقاً في إطار الممارسة النقدية المعاصرة، إذ يسهم الخطاب في تأسيس أو تنظيم مجال للمعرفة حول اللغة[١٣].

ونظراً لاقتران الخطاب بمفهوم المعرفة أو إعادة إنتاج المعرفة بوصفها قوة الفكر النقدي المعاصر، فقد بيّن فوكو أن السلطة لا توصف، فكرياً، بالسلب، أو القمع، أو الهيمنة، أو الكبت، بل على النقيض من ذلك؛ فيجب أن تلحظ بوصفها "صناعة الممكن"[١٤].

وتكريساً لهذا المفهوم، يقترح فوكو ونقاد ما بعد البنيوية بأن دراسة "الخطاب" تؤدي ضمناً، إلى دراسة المؤسسات، والأنظمة، والذهنيات[١٥]. وهذا يشي بأن "أنساق الخطاب، لا يمكن أن تلحظ من المشاهدة الأولى، لأن معظمها يثير مفاهيم سردية مخزونة في الصندوق"[١٦].

ولهذا يستنتج توين فان دايك Teun A. Van Dijk أن دراسات الخطاب النقدية تفضّل التركيز على خصائص الخطاب المرتبطة كثيراً بالتعبير عن السلطة الاجتماعية، وتأكيدها، وإعادة إنتاجها أو تحديها للمتحدث أو المتحدثين، وللكاتب أو الكتّاب بوصفهم أعضاء في الجماعات المهيمنة [١٧].

٣-١ يشير الناقد جيرار جينيت G. Genette إلى أن "كلمة حكاية تدل على المنطوق السردي، أي الخطاب الشفوي، أو المكتوب الذي يضطلع برواية حدث أو سلسلة من الأحداث"(١٨) وبمعنى آخر، حسب جينيت، فإن كلمة الحكاية تدل على سلسلة الأحداث الحقيقية أو التخييلية التي تشكل موضوع هذه الخطبة (١٩).

ولهذا يرى جينيت أنّ "التحليل السردي يستوجب دراسة العلاقتين؛ أي العلاقة بين هذا الخطاب والأحداث التي يرويها (الحكاية بمعناها الثاني)؛ ومن جهة أخرى، العلاقة بين هذا الخطاب نفسه والفعل الذي ينتجه"(٢٠).

فالحكاية في رؤية جينيت هي خطاب سردي؛ وهذا الخطاب السارد "يمثل نشاطاً ذهنياً ينظم العلاقات في إطار نسق خاص يمثل التجربة الإنسانية ويوضّحها"(٢١). ولهذا يعكس السرد في تصور باربر هاردي Barbar Hardy وظيفية إنسانية محورية؛ فهو جزء من الحياة بحيث يمكن تمثيله في شكل ما ضمن الأنواع الأدبية، أي أن السرد ذاته، حسب باربر، يمكن أن يلحظ بوصفه تمثيلاً أصيلاً، وبوصفه جزءاً من الحياة بكونها فنّاً(٢٢).

يؤكد فلاديمير بروب V. Propp أنَّ الدراسة البنيوية لوجوه الحكاية هي الشرط الضروري لدراستها التاريخية(٢٣)؛ذلك أن الحكاية تتأثر بالواقع التاريخي المعاصر، كما تحتفظ بآثار الوثنية الغابرة أو عادات العصور القديمة وطقوسها، إنها تتحول شيئاً فشيئاً، وهذه التحوّلات تخضع - هي الأخرى- لقوانين (٢٤)، ولذلك فقد عملت ذرية بروب Progeny of Propp على توسيع حدود السردية، لتشمل جميع مظاهر الخطاب السردي، وقد اتجهت بحوثهم اتجاهين كما يشير عبدالله إبراهيم، أولهما "السردية الحصرية" وتهدف إلى إخضاع الخطاب لقواعد محددة بغية إقامة أنظمة

دقيقة تضبط اتجاهات الأفعال السرديّة، وثانيهما "السردية التوسيعية"، وتهدف إلى إنتاج هياكل عامة توجه مكونات البنية السردية، وتنطوي على قدرة توليد نماذج شبه متماثلة على غرار نماذج التوليد اللغوي اللساني[٢٥].

وتذهب النظرية البنيوية إلى أن أيّ سرد يملك نسقين: قصة (تاريخ)، ومحتوى (سلسلة الأحداث)، وينضاف إليهما ما يمكن أن يسمّى بـ"الوجود: الشخصيات، ومفردات الأحداث، والخطاب بما هو تعبير "نضالي"، وبمصطلحات مبسطة، ترتبط القصة داخل السرد بـ"ماذا"؟، والخطاب بـ"كيف؟"، وهذا ما يفترضه المخطط التالي[٢٦]:

مواقف + عجائب = أحداث **قصة**

شخصيات + فضاء: مكاني و زماني = وجود **النص السردي خطاب**

يتأسس السرد في رؤية بعض النقاشات المعاصرة للبنية السردية نتيجة الأحداث، إذ يُفترض أن تظهر البنية جليّاً من خلال العلاقة بين الحدث المعطى والحدث ذاته[٢٧].

وقد عبّر رولان بارت Roland Barthes عن هذا المعنى عندما أشار إلى أنَّ القصة تمثل واقعة كونية[٢٨] ؛ وبالتالي لا يستطيع أحد أن يدرس قصة دون رجوع إلى النسق الداخلي للوحدات والقواعد التي أنتجتها وعملت على بنائها [٢٩].

وبما أنّ "الحكي" يعني في الاستعمال الجاري عند المنظرين والمحللين تتابع مجموعة من الأحداث: واقعية ومتخيلة تكوّن موضوع الخطاب "[٣٠]، فإن "البنية العميقة الملائمة للنص الحكائي تبدو في شكل تراتبيّة لمستويات متضامنة للدلالة تصب جميعها في البنيات السردية؛ بوصفها مخلّصة للبنية الأولية من عموميتها، وموظفة إياها وفق

قصدية مشروطة بمجموعة من الأوليات المتحكمة في الأهواء التاريخية والثقافية والأيديولوجية، ومؤسسة مباشرة للخطاب الحادث الذي لا يقوم إلاّ بإظهارها وتميزها باعتباره تجلياً لمادة ما وراء – لغوية، وشرحا لها"(٣١).

يرى سعيد بنكراد أن عملية السرد تكشف في كلّ تحقّق عن تلوين ثقافي بعينه، أو عن بعد أيديولوجي له طعمه الخاص (٣٢)، وبالتالي فإن "الذات لا تتحدّد إلاّ من خلال دخولها في علاقة مع موضوع ما"(٣٣).

ويشير بنكراد إلى أنَّ "النصّ السردي في كليّته يعدّ برنامجاً سردياً حسب توصيف كريماص A.J. Greimas؛ إذ يتحدد البرنامج السردي إما من خلال تعاقد بدائي يحدّد نمط تداول الموضوعات داخل المساحة النصية الفاصلة بين لحظتي البدء والنهاية، وإما من خلال إرساء قواعد بنية سجالية تضع على مسرح الأحداث ذاتين تتصارعان من أجل الحصول على الموضوع نفسه"(٣٤).

١:٤ واستنادا إلى مفهوم البرنامج السردي؛ توظف العصا في بنية الخطاب الحكائي عند الجاحظ لتكوّن نسقاً ثقافياً ينفتح بدوره على الجدلي والمعرفي والإنساني، ومن هنا فإن "ملاحظات الجاحظ المتنوعة تحتاج إلى إعادة تفهمهما في إطار اجتماعي"(٣٥).

ولهذا تكتسي العصا في حكايات الجاحظ أبعاداً نسقية لتشكل ما يمكن تسميته بـ "نظرية العصا"، إذ تبدو "العصا" في نصوصه "قرينة المهابة والحرية والتصدي والتباهي؛ فالهجوم عليها هو هجوم على البيان الشفهي ورموزه؛ ولذلك فإن كلام الشعوبية عن استخدام العصا ليس مجرّد هجاء للجفاء والعنجهية، إنه أشبه بأن يكون هجاء للبيان العربي قبل الإسلام" (٣٦).

إن نظرية العصا، كما تبدو في فكر الجاحظ، مسار في نهج السّجال أو الحجاج الذي أسّسه الجاحظ دفاعاً عن آلة البيان العربي أمام الحركة الشعوبية وقتذاك، إذ كان الجاحظ خصماً للشعوبية التي كانت قوة ثقافية وسياسية في عصره، مما جعله يكرّس حجاجه من أجل "العصا" بوصفها قضيَّة [٣٧].

وبناء على هذا التصوّر يرى عبد الله الغذامي أن العصا تبرز في خطاب الجاحظ بوصفها علامة ثقافية رمزية؛ فهي تأتي في مساق الدفاع عن الثقافة العربية ورموز هذه الثقافة[٣٨].

١ -٢ أنساق الخطاب الحكائي: التجليات النسقية في نموذج حكائي للجاحظ

يرى بول ريكور أن "تتابع قصة هو، في الواقع، أن تفهم الأفعال والأفكار والمشاعر المتلاحقة في القصة على أساس ماتقدمه من توجه خاص"[٣٩].وتظهر القراءة الفاحصة في نص الجاحظ أنّه نصٌّ نسقيّ يتجاوز في حضوره الأبعاد الجمالية بما فيها من مواقف للسخرية والنكتة والنقد، ليشكّل فضاءات نامية للرؤية وتشريح المتواري والمسكوت عنه في الخطاب[٤٠].

ووفقاً لهذا المجتلى، تتمظهر "العصا" في خطاب الجاحظ لتكوّن بنيةً نسقيَّةً لا سيَّما في خطاب الحكاية، ومرتكزاً موضوعياً يسعى الجاحظ، بفعله، إلى تأسيس ما يسمّى "ثقافة العصا" التي تجسد نسقاً مضاداً للمحمولات الفكريَّة والسياقية الناقضة لحضارة العرب من قبل الشعوبية في العصر العباسي. [٤١]

ولهذا، فإنّ "ثقافة العصا" في فكر الجاحظ تكتسي تجلّياتٍ حضارية، أي أنّ نصّ العصا هو نصّ تفاعلي وحضاري ينماز بالخاصيَّات الوجودية، والفلسفية، والتاريخية؛ وكأن الجاحظ في هذا كلّه يؤسّس مشروعية "العصا" بوصفها ثقافة وحضارة وتمثيلاً.

وتأسيساً على هـذا، فـإنَّ الأنسـاق الثقافيـة في هـذا النمـوذج الحكـائي تتسـم بقدرتها الفائقة على الاستيلاد والتشكّل، لتخرج الحكاية من دائرة السـرد الخطّـي إلى دائرة السرد العلائقي أو البرنامج السّردي.

وبالتالي يمكن لهذه القراءة أن ترصد التجليات النسقية والوظائفية الآتية في بنية الحكاية:

أولاً: إشراقات التاريخ أو تاريخ الفتوَّة.

ثانياً: جماليات الإكراه ونسقية العبور.

ثالثاً: الجسد المتعب وسلطوية العصا.

رابعاً: عتبات الخوف: التوتر والعصا السَّاحرة.

خامساً: إرهاصات الجوع ونار الحياة.

سادساً: المكان المدنّس وحضارة العصا.

سابعاً: الهوية الثقافية وفلسفة الثبات.

ثامناً: التغلبيّ المخاتل ومناقب العصا.

تنجدل هذه الوحدات الحكائية، إذن، لتتمحور حـول نسـق ثقـافي موجّـه لهـا، ومولّد من ناحية أخرى لدلالاتها التحوّلية على صعيد الرمز، وهـذا النسـق المحـوري الذي يجلّيه الجاحظ يتمثل بـ"حضارة العصا"؛ إنها الحضـارة الـتي تـبرز فاعليـة الـذات الإنسانية بما هي إحالة إلى "العِرْق العربي"، ومن ثمَّ خبراتها المعرفية في تأكيد قيمة الحياة عبر مواجهة العائق والمستحيل.

وهكذا تتمركز "العصا" في هاته البنى الحكائية بوصفها سلطةً ثقافية حجاجية تنزع إلى مواجهة النقيض / الآخر: الشعوبي، وإحباط مخططاته، ودحض مفاهيمه وتصوراته الساخرة.

ووفقاً لهذا التصور، فإنه "ليس من الضروري أن تنبني الغيرية على مرتكزات العرق والجنس والدين، واللسان، فالأهم أن تنهض على شبكة من القيم التخيلية التي تستثمر العلاقات غير المتوازنة بين الأطراف المشكلة للنص الأدبي، (الكاتب، والمتلقي، والفاعلين المتخيلين)، وتشعر القارئ الخاضع لشروط انتماءات ثقافية معقدة، بمستويات الصراع الأدبي بين الذات ومحيط ألفتها (أو غربتها)"[٤٢].

٢-٢ إشراقات التاريخ أو تاريخ الفتوّة:

ينطلق نصّ الحكاية عند الجاحظ بالفاتحة السرديَّة التي تحدّد هوية الراوي لهذه الحكاية، وتتبدّى ملامح هذه الهوية الناقصة، بدءاً، من خلال الإشارة إلى اللقب – أي راوي الحكاية وهو "الشرقي": "ثمَّ قال الشرقيّ: ولكن دعنا من هذا..."[٤٣].

واللافت أيضاً، أنَّ "الشرقي" السارد لهذه الحكاية يشكل محوراً أساسياً في تفاصيلها؛ إذ تصبح أحداث الحكاية مقترنة بشخصيته بوصفه فاعلاً، أي أن "الشرقي" يتموضع في الحكاية ليكون ساراداً وفاعلاً في آن. وتتضاد سيرورة الرواية في هذا النصّ، والحال هذه، مع طبيعة السَّند السّارد في المرويات الحكائية العربية، إذ تكون هوية السَّارد، محدّدة على مستوى النسب؛ كأن يقال: "حدثنا فلان بن فلان... إلخ".

ولكن الجاحظ، كما يبدو، في إثباته هذه الحكاية، وفق هاته الصيغة في الرواية يحرص على أن يكون السارد / البطل منفلتاً من التحديد، ومتحلّلاً من التقييد.

فالشرقي في هذا النصّ فاعلٌ له حضوره الإشاري والنسقي؛ فهو ينتمي إلى الجهة المكانية / كما أنّه يتعالق في الوقت نفسه ومفهوم "الإشراق"، وزمن الانبثاق / انبثاق الضياء: التوهّج. ولا غرو في أن هاته السمات تجعل السارد حاملاً لفلسفة التنوير التي تتحرك دائماً في إطار زمن الظَّلام.

وإذا كانت سلسلة السّند في النصوص المرويَّة تشي بثنائية الحياة والموت من خلال حضور الراوي / الإنسان الحيّ المنتسب إلى والدٍ غائب / فلان بن فلان؛ فإنَّ غياب التحديد الاسمي، والإصرار على اللقب المكاني / الشرّقي في نص الجاحظ يؤكّد خصيصة البقاء والديمومة للسارد، ممّا يعني أنَّ إشراقاته متجدّدة، كما أنها عصيَّة على الانمحاء والزوال.

ومما ينسجم مع "فلسفة الإشراق" التي يجسّدها "الشّرقي" في هاته الحكاية؛ قدرة السارد / البطل على التجاوز "ولكن دعنا من هذا"، وتبنِّي الحركة الغائية "خرجت من الموصِل وأنا أريدُ الرَّقَّة مُستخفِياً، في إطار مفهوم "الفتوَّة": "وأَنا شابٌّ خفيف الحاذِ..."[٤٤]

وهكذا تمثِّل الفتوة بما لها من خاصيات متفردة فضاءً رَحْباً لولادة مسار رحْليّ هادف إلى نشر فكره أو فلسفته في أفضية مكانية متغايرة < الموصل ← الرَّقَّة >. فالحركة من المكان الأوّلي "الموصل" توحي بإنجاز البطل مهمّته في حدود المكان / الإنسان، وها هو يبحث عن مكانٍ جديد لإشاعة محمولاته الفكرية. وقد تميزت الحركة في الفضاء المكاني الجديد / الرقَّة بتكثيف السرد عبر استدعاء الفاعل المصاحب، كما يبدو في قول السَّارد: "فَصَحِبَنِي مِنْ أَهْلِ الجزيرَةِ فَتىً ما رَأَيْتُ بَعْدَه مِثْلَه، فَذَكَرَ أَنَّهُ تَغْلِبِيّ، مِنْ وَلَدِ عَمرو بن كُلثوم، وَمَعَهُ مِزْوَدٌ ورِكْوَةٌ وعَصَا، فَرَأَيْتُه لا

يُفَارِقُها، وَطَالَتْ مُلازَمَتُه لها، فَكِدْتُ مِنَ الغَيْظِ أَرْمي بها في بَعْضِ الأودَيةِ، فَكُنَّا نَمْشي فَإِذا أَصَبْنَا دَوَابَّ رَكِبْناها، وإنْ لَمْ نُصِبِ الدوابَّ مَشَيْنا، فَقُلْتُ لَهُ في شَأْنِ عَصَاه، فقالَ لي: إنَّ مُوسَى بن عِمران صلى الله عليه وَسَلَّم حِيْن آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً، وَأَرادَ الاقتباسَ لأهله منها، لَمْ يَأْتِ النَّارَ في مقدارِ تِلك المسَافة القليلة إلاَّ ومعه عصاه، فلمَّا صَار بالوادي المقَدَّس من البقعة المباركة قيل له: أَلْقِ عَصَاك، واخْلَعْ نَعْلَيك. فرمى بِنَعليه راغباً عنهما، حينَ نَزَّه الله ذلك الموضِع عَنِ الجِلْدِ غَيْرِ الذَّكيّ، وجَعَل اللهُ حِماعَ أَمْرِهِ مِن أعاجيبه وبرهاناته في عصاه، ثمَّ كلَّمهُ من جَوْفِ شَجرةٍ وَلَمْ يُكلِّمْه من جَوْفِ إنسانٍ ولا جانّ. (٤٥)

يكتسي الفاعل المصاحب، كما نلحظ، سمة التفرّد أو اللانظير "فتىً ما رأيتُ بعده مثله"، وهي قيمة تتماهى بدورها مع المدلولات التي يضمرها لقب "الشرقي"، حيث تتبلور "الفتوّة" عند الفَاعِلَيْن المركزيين في الحكاية بوصفها شرطاً لتحقيق الفعل، وتفاعلات الحكي.

ويمكن أن نلحظ كذلك أنَّ الفاعل المصاحب يوجد في النص الحكائي دون تحديدٍ اسمي؛ فهو تغلبيٌّ من ولدِ عمرو بن كلثوم، مما يجعل حضوره الكياني عابراً للتاريخ بفعل الانفتاح على الحدث التاريخي والزمنية الجاهلية التي تحظى بقيمة مقدسة في الفكر العربي القديم أو ما يمكن تسميته بـ "الثقافة العالمة". فالفاعل المركزي / الشرقي يتّسم بالتوهّج والإشراق والتمكّن من إحداث التغيير، بينما يؤسس الفاعل الثانوي حضوره السلطوي على مفهوم الغلبة والانتصار.

إنَّ تناصّ الحكاية عبر العلامة "تغلب / عمرو بن كلثوم" يشي بتعالق مفاهيم: الفتوّة، والإرادة، والانتصار في الحكاية المنظورة مع المفاهيم ذاتها التي تجلّت في حكاية

الانتصار ذات زمن جاهلي ماضوي. (٤٦) ويكشف هذا التناصّ عن وظيفة نسقية يؤديها الحضور العلامي / عمرو بن كثلوم، إذ يختزل هذا الحضور حدث انتصار الذات المقهورة: المستعبدة: عمرو بن كلثوم / الشاعر على الآخر / عمرو بن هند ممثّل السلطة الفارسيَّة وقتذاك.

لقد حاول الملك عمرو بن هند، كما تشير الإخباريات، إخضاع الشاعر عمرو بن كلثوم وإذلاله بفعل التعالي الأنثوي / أمُّ الملك التي سعت إلى احتقار أم الشاعر؛ الأمر الذي دفع الشاعر الثائر إلى الانتصار لصرخة الأنثى المُهانة بقتل الملك عمرو بن هند.

ولا شك في أن هذا القتل يمثّل، سيميائياً، قَتْلاً واعيا للسلطة المضادّة، وإعلاناً لانتصار الهويَّة العربية التي ينتمي إليها الشاعر، ومن ثمَّ شق عصا الطاعة للخصم المناوئ.

فهذا التناص، إذن، يكشف عن صراع بين هويتين متناقضتن في الماضي والحاضر: عمرو بن كلثوم / عمرو بن هند، والشرقي: التغلبي / الآخر الشعوبي؛ وأنَّ نتيجة هذا التصادم محكومة بانتصار هوية الإشراق والتنوير.

يبدو أن تجليّات الفعل لدى الفاعل المصاحب / التغلبي في هاته الحكاية مرهونة بفاعليات العصا ذاتها؛ مما يعني أنَّ هذا الأفق التناسلي / التوالدي "من ولد عمرو بن كلثوم" بالنسبة للتغلبي هو أفق إسقاطي على موضوعة العصا.

ولذلك تضحي "التغلبية" في الحكاية مساراً يخترق الماضوي والآني ليجسد فكرة التفوق على كلِّ ما هو قهري، مما يشي بأن "استراتيجية الاختراق ليست بريئة، ولا يمكن لقرائها المرور على ما هي عليه من ظاهر" (٤٧).

وتجلّي أسلوبية الحوار بين الشرقي والتغلبي حقيقة التماسّ الجوهري بين الإشراق والانتصار بوصفهما ضرورة في زمن يحتد فيه الصراع بين فكرين متضادين أو هويتين متضادتين.

وفي هاته الحوارية، نلحظ الشرقي يفتعل قصداً موقف الامتعاض من "العصا"، إذ يظهر تبرّمه من هذا التعلّق المتزمّت بها من قبل التغلبي "فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية..."؛ بيد أنَّ هذا التبرّم الظاهر يضمر في داخله صورة الذات العارفة التي تتجاهل حقيقة الشيء بغية توكيده؛ إذ سمح هذا التجاهل بانفتاحٍ عميق على أدلّة وبراهين تجيب عن سؤال الجدوى والفاعلية.

وبما أنَّ الحِجاج في شأن العصا "فقلت له في شأن عصاه" يكشف، لأول وهلة، عن بحثٍ معرفي، فلا شك في أنَّ إنقاذ الذات المتبرّمة من قلق السؤال / الخطاب يستوجب إقناعاً مفحماً؛ وهذا ما صنعه التغلبي عندما تناصّ مع الديني المقدّس عبر استحداث النموذج البرهاني في قصة "عصا موسى" عليه السلام.

ويكشف التناص مع قصة العصا في النصّ القرآني عن أثرٍ رامزٍ للنص السابق في النص اللاحق / حكاية الجاحظ؛ إذ إن الحدث البؤري في النصّين يبرز صورة "العصا المقدّسة، بوصفها برهاناً إعجازيّاً في إنجاز اللامتوقع [٤٨].

فصورة العصا في النص القرآني باعثة على تحقيق "الأنس" أو الأمن الإنساني، كما أنها تمثل شرارة الانقداح المعرفي والنوراني بفعل ارتباطها بالنار "حين آنس من جانب الطور ناراً" [٤٩]، وتتماهى أيضاً مع التجليات المقدسة للمكان "فلما صار بالوادي المقدس من البقعة المباركة" [٥٠]، ويتسامى على ذلك كلّه أنها لفظة إلهية مباركة "قيل له: ألقِ عصاك، واخلع نعليك" [٥١].

تنبجس محورية "العصا المقدسة"، ومن ثمّ تعالي هاته الموضوعة من خلال النسقية التي يعكسها حدث "التكليم" المتعلق بمفهوم الطهر والقداسة، إذ يتجلى التكليم عبر الصامت/ جوف الشجرة، وليس الناطق أو المتحرك / الإنس، والجان "ثم كلَّمه من جوف شجرة ولم يكلمه من جوف إنسان ولا جانّ".

إن القراءة النسقية في تناصَّات العصا تظهر قصدية الجاحظ في الاختيار أو النمذجة؛ إذ لا يمكن قراءة هذه التجليات الخاصة بالعصا إلاّ في سياق الأحداث التي أسهمت، بدورها، في إنتاج البراهين.

فالبراهين المثبتة للعصا في قصّة سيدنا موسى عليه السلام جاءت بعد مسارٍ رِحْليٍّ حافل بالعناء والخوف والصراع، ولا سيِّما مع النسق المضاد / فرعون.

وبالفعل، فقد مثّلت العصا بوصفها معجزة مجالاً لعبور المحنة / المحن، بل إنها جسَّدت انتصاراً لفكرٍ إيجابي مرتبط بالخيريَّة على فكرٍ مضاد قرين بمفهوم الشرّ: انتصار عصا الخير / عصا موسى على عصيٍّ الشر / السحرة.

وهكذا يعمد الجاحظ عبر هذا التناصّ إلى برهنة الحضور الإعجازي للعصا، وإلى إمكانية تجلّيه واستحداثه في ضوء الصراع الفكري: العربي / الشعوبي.

وبما أن العصا حظيت على المستوى الديني بهذا الاحتفاء الذي يبرز عظمتها وقداستها؛ فإن كلام الآخر حول مثالب العصا والطعن على العرق العربي بسببها يصبح هرطقة وكلاماً مبتذلاً دونياً، إذ إن تجليات العصا تجسّد فكرة الإشراق والإحراق كما يبدو في عصا موسى /رحلة موسى/ وعصا الشرقي الجاحظ / رحلة الشرقي.

٣-٢ جماليات الإكراه ونسقية العبور:

يجسد "الإكراه" في الفكر الإنساني موقفاً انفعالياً تجاه السَّلب، لأنه يشكل تحدِّياً وعائقاً أمام النفس تجاه السيرورة الطبيعية للإنسان في إطار الحدث والزمنية.

ولكن الحكاية المراوغة في نصّ الجاحظ توسم بقدرتها الفائقة على التغاير والتحويل؛ بحيث ينطوي الحدث الإكراهي على أبعادٍ جمالية تسوّغ بالنتيجة، مشروعية هذا الإكراه.

وهذا ما يلمس في الوحدة الحكائية التالية في النص:

"قال الشَّرقي: إنَّه ليُكثرَ من ذلك وإني لأضحك متهاوناً بما يقول، فلّما برزنا على حمارِنا تخلَّف المُكاري فكان حمارُهُ يمشي، فإذا تلكَّأ أكرهَهُ بالعصا، وكان حماري لا ينساق، وعلم أنّه ليس في يدي شيء يُكرهه، فسبقني الفتى إلى المنزل فاستراح وأراح، ولم أَقْدِر على البَرَاح، حتَّى وافاني المُكاري، فقلت: هذه واحدة". (٥٢)

تنطوي جمالية الإكراه في هاته الوحدة التكوينية للحكاية على نسقية مخاتلة محورها: الشرقي، والتغلبي، والعصا، والحمار.

وتتمثل هاته الجمالية في أن هاته المكونات أو العناصر تتفاعل من أجل تأكيد الموضوعة المتكررة في الحكاية / العصا.

فالحمار في هاته الوحدة يجسد مفهوم "اللاَّعقل" الذي يُطوّع وفق ثقافة "العصا" الإكراهية؛ ليتحوّل إلى الفاعلية أو "العقل" الذي يمكّن حامل العصا/ التغلبي من تجاوز الإرهاق وتحديات الطبيعة والعبور إلى الراحة والدعة. وبمعنى آخر، فإن صورة الحمار، تشخص جدلية متناقضة بين الحركة "فكان حماره يمشي" واللاحركة "وكان حماري

لا يَنساق". وفي ظل هاته الجدلية المتراوحة بين الحركة والسكونية تبرز العصا بوصفها أداة للتمكين؛ أي تمكين الذات الإنسانية بغية توظيف أدواتها الثقافية للعبور والتخطي، مما يمنح "العصا الثقافية"، خاصّيات القدرة والاستطاعة والتحويل.

وينضاف إلى ذلك، أن حدث الإكراه بالعصا يؤدي، بالنتيجة، إلى تحقيق رغبة الذات وانتصارها، بينما يعكس اللاإكراه / غياب العصا، صورة تمرّد اللاعقل وانعدام خاصية التحوّل ومن ثمَّ فشل الذات في تحقيق مشروعها أو مآربها. ولهذا فإن "الذات مهما اختلفت طبيعتها، معرفية كانت أم منتجة أم نصيَّة- لا تتصل بموضوعها على نحو مباشر، بل من خلال توسط الآخر الرمزي، ومن ثمة لن يكون النصّ السردي إلاّ تعبيراً عن تنامي التوسّط الرمزي، بما يقوم عليه من توتر أو تسويات، إذ يعبر عن ذاته من خلال نوع المسافة التي تقام بين الذات والموضوع قياساً إلى العلاقة الماثلة بين التصور والتحقق، وبين الإمكان والمحصّل عليه، وقياساً إلى تموضع هذه العلاقة أثناء سيرورة التنامي النصي" [٥٣] ووفقاً لهذا المنطق، يغدو الفعل الإكراهي مقترناً بالفضاء الجمالي من خلال آلة الابتكار / العصا التي تنجز حقيقة السَّبق أو التقدم "فسبقني الفتى فاستراح وأراح ولم أقدر على البَرَاح"؛ بينما يؤدي غياب العصا إلى نتيجة سالبة قبحيَّة أساسها تجاهل اللاعاقل وتمرّده على الإنساني العاقل "وكان حماري لا ينساق، وعلم أنه ليس في يدي شيء يكرهه".

فهذه الوحدة النسقية، إذن، تؤكد معنى خضوع اللاعاقل / الجامد لمنطق الثقافة / العصا؛ وبفعل هذا الخضوع تسهم الثقافة في إبراز فتوة الذات وانتصارها "فسبقني الفتى إلى المنزل"، وإلغاء جمود الزمن "فكان حماره يمشي".

٤-٢ الجسد المتعب وسلطوية العصا:

من اللافت للنظر في هاته الوحدات البنيوية السبع للحكاية، أن الجاحظ يـؤطّر حكايته بالعامـل الـزمني "اليـوم الأول إلى اليـوم السـابع"؛ وهـذا التـزمين / التحقيـب يتماهى مع خصيصة الرقم "٧" في المخيال الثقافي والفكري العربي من حيث القداسة(٥٤).

وفي الوحدة التكوينية الثانية، تنبري العصا بوصفها تجلياً بؤريًّاً يهدف إلى تطهير الذات الإنسانية من الألم والتعب، وهو ما ينصّ عليه السارد بقوله:

"فلَّما أردنا الخروجَ من الغدِ لم نَقْدِرْ على شيءٍ نركَبه، فكنَّا نمشي، فإذا أعيا توكَّأَ على العصا. وربَّما أحْضَرَ ووضَعَ طرف العصا على وجه الأرض فاعتمدَ عليها ومـرَّ كأنَّه سَهْمٌ زالج، حتّى انتيهنا إلى المنزل وقَدْ تَفَسَّخْتُ من الكَلال، وإذا فيه فَضْلٌ كثير، فقلتُ: هذه ثانية"(٥٥). يسـتدعي حـدث الخـروج، هنـا، دلالات: التـورط، والتـأزيم، والمحنة؛ مما يجعل مسألة الخلاص من هذه اللحظة الزمنية الآسرة قضية ذات بال.

ففي هذه الوحدة تغيب أداة الثقافة التي كانت حاضـرة في الوحـدة السـابقة / الحمار؛ مما يعني انعدام الأمل بالعثور على وسـيلة منقـذة للـذات، أو مخلصـة لجسـد الذات من قيود الطبيعة التي تحول بين الإنسان وتحقيق لحظة العبور.

ولهذا، يرتبط حدث الخروج أو التَّسفار الشاق بجدليـة الإعيـاء / اللإعيـاء، إذ تؤدي العصا المعرفية دوراً فاعلاً في حسم هاته الجدلية.

فالجسدية في هذا التموضع بما هي نسقية للكينونة تتعرض للابتلاء / الإرهاق، بل إنها تظهر في صورتين متناقضتين: الأولى تمثل جسد التغلبي / مالك العصـا الـذي تسمح له العصا بعبور المحنة والشقاء "فكنَّا نمشي، فإذا أعيا توكَّأَ على العصـا..."، بينمـا تمثل الثانية جسد الشرقي / فاقد العصا المرتهن للزمنية القاسية. وبما أن الجسد خطاب

معرفي، فضلاً عن أنه دالّ ثقافي ومرتسم جمالي كأي خطاب أدبي أو فكري، فلا بدّ أن يخضع إلى سيرورة تفكيكية للوحاته النسقية والمعرفية الناظمة للبناء النصي [٥٦].

لقد وظّف التغلبي العصا بوصفها معتمداً ثقافياً وسلطوياً "فاعتمد عليها ومرّ كأنه سهم زالج"؛ إذا يكرس التشبيه صفات السرعة والقوة وإنجاز المبتغى، بينما أخفق الشرقي في إنجاز هذه المعاني مجتمعة نتيجة غياب العصا، الأمر الذي جعل عبوره الرِّحلي متوّجاً بحضور الشقاء الجسدي "حتى انتهينا إلى المنزل وقد تفسَّخت من الكلال".

ولهذا، يغدو حضور العصا بوصفها مخلّصاً للجسد من التعب والوعثاء والمصير المأساوي / غياب الخروج مقترناً بمفهوم "الحياة" أي حفظ الكينونة من التشرذم والفناء، مما يجعل فاقد العصا يحسّ وظيفتها النفعيَّة لحظة التمزّق، وأثناء قهر السيرورة الزمنية "وإذا فيه فضل كثير".

٥-٢ عتبات الخوف: التوتّر والعصا السّاحرة:

تجسد بؤرية العصا في البنية الحكائية الآنية صورة نسقية لعتبات الخوف والرهبة التي يُواجهها السارد / الشرقي في الفضاء المكاني، ذلك أن هذا الفضاء تحفّه الأخطار التي تعيق حركة الإنسان وتجعل مساره يتجه نحو اللاأفق والضبابيّة والمجهول:

"فلما كان في اليوم الثالث، ونحن نمشي في أرضٍ ذات أخافيقَ وصُدوع، إذ هجمنا على حيَّة مُنكَرة فَسَاوَرَتْنا، فلم تكن عندي حيلةٌ إلاّ خِذلانُهُ وإسلامَهُ إليها، والهَربَ منها، فضربها بالعصا فثَقُلَتْ، فلمَّا بَهَشَتْ ورفَعَتْ صَدْرَها ضَرَبها حتَّى وَقَذَها، ثم ضربها حتَّى قتلها، فقلتُ: هذه ثالثة، وهي أعْظَمَهُنّ". [٥٧]

ويتجلى الخطر الذين يعيق مسار هذه الرحلة المعرفية بحضور "الحيَّة"، بوصفها نسقاً لمفردات: الشر والخطيئة والمعصية حسبما تبدو في الفكرين الديني والميثولوجي. [٥٨]

فالسارد يوظف "الحية" لتكون نسقاً إشارياً مضمراً يحيل إلى الآخر / الشعوبي الزاحف الذي يهدد ثقافة المجتمع / العصا، ولهذا تضحي قولةُ السارد: "ونحن نمشي في أرض ذات أخافيق وصدوع" جملة نسقية تبرز صورة النفس الإنسانية المتصدّعة والمدمّرة نتيجة الخوف من الآخر / الشر: الحية؛ إذ يبدو هذا الشرّ منكراً وغريباً في رؤية السارد لأنه يدفع هذه الذات إلى التوتر والهروب من واقع مؤلم.

فالحية في ظل هذا التموقع ترمز إلى حدثٍ تدميري يسلم إلى إحداث الشرخ في العلاقة الإنسانية / الكيان الواحد "فلم تكن لديّ حيلة إلاَّ خذلانه وإسلامَه إليها، والهرب منها"؛ بيد أن العصا تلغي هذه الفكرة السالبة عبر قتل الآخر: الشعوبي / الحيَّة وإعادة التوازن للذات، وحماية الوجود الإنساني من التصدّع، وترسيخ معنى البقاء وديمومة السفر المعرفي، وهذا ما يبرهنه إقرار الذات الهاربة / الشرقي بجدوى فعل التغلبي "فقلت: هذه ثالثة، وهي أعظمهنّ".

إن عملية قتل الحيَّة بما هي مرجعية نسقية للميثي والأيديولوجي تنمذج بدورها إرادة واعية لتعطيل فاعلية الآخر القائمة على ثقافة الشرّ والاستئصال الفكري. وقد أفلحت عملية القتل بوصفها حدثاً تطهيرياً دمويًّاً وتضحويّاً في إلغاء تمزق الذات / الهوية "ذات أخافيق وصدوع".

ويشير السارد إلى أن حدث القتل – قتل الآخر / الحية لم يكن قتلاً سهلاً أو عاديًّاً، وإنما نلحظه يمر بتقاطعات ثلاثة أساسية "فضربها بالعصا فثقلت، فلمَّا بَهَشت له ورفعت صدرها ضربها حتى وَقدَها، ثمَّ ضربها حتّى قتلها". ولا شك في أن هذا التوصيف لحدث القتل يوحي بأن الصراع مع الآخر هو صراع شرس ومتكرّر، وأن التغلّب عليه لا يتمّ إلا بالمثابرة والتصميم وتكرار الفعل.

٦-٢ إرهاصات الجوع ونار الحياة:

تتعاضد الوحدتان البنائيتان الرابعة والخامسة في هاته الحكاية بغية التموضع حول فكرة "الحياة"؛ إذا تكتسي الحياة قيمتها بعد أن تخضع الذات الإنسانية لمحتمل الموت.

يقول السارد: "فلمَّا خرجنا في اليوم الرابع، وقد واللهِ قَرِمْتُ إلى اللَّحم وأَنا هارِبٌ مُعْدِم، إذا أَرْنَبٌ قد اعْتَرَضَتْ، فَحَذَفَها بالعصا، فما شَعَرْتُ إلاَّ وهي مُعلَّقةٌ وأَدْرَكْنا ذكاتَها، فقلتُ: هذه رابعة".

وأقبَلْتُ عليه فقلْتُ: لو أنَّ عندنا نَاراً لما أخّرتُ أَكْلَها إلى المنزل. قال: فإنَّ عندكَ ناراً! فأخرجَ عُوَيْداً من مِزْودِهِ، ثُمَّ حَكَّهُ بالعَصَا فَأَوْرَتْ إيرَاءً المَرْخُ والعَفَارُ عندَهُ لا شيء، ثمَّ جَمَعَ ما قَدَرَ عليه من الغُثَاءِ والحَشيش فَأَوْقَدَ نَارَهُ وأَلقَى الأَرْنَبَ في جَوْفِها، فَأَخرجناها وَقَدْ لَزِقَ بها من الرَّمادِ والتُّرابِ ما بَغَّضها إليَّ، فَعَلَّقَها بيدِه اليُسرى ثمَّ ضَرَب بالعَصا على جُنوبها وَأَعْراضِها ضَرْباً رقيقاً، حتَّى انْتَثَرَ كُلُّ شيءٍ عليها، فأكَلْناها وسَكَنَ القَرَم، وطَابت النَّفس، فقلتُ: هذه خامسةٌ"(٥٩).

يقدم نموذج ذبح الجميل / الأرنب صورة لفاعلية الحياة وإعادة التوازن إلى الذات في رحلة الشقاء والمسغبة؛ ويكتسي هذا القتل هالة من التسامي بفعل انسجامه وتماسّه مع حدث القتل في البنية الحكائية السابقة / قتل الحيَّة، إذ لا تنعم الذات الإنسانية ولا تتخلّص من جوعها إلاَّ بتدمير الآخر / الشرّ، فكان قتل الحيَّة بما هي نسق للضدّ إرهاصاً بحماية الثقافة من مؤامرات الآخر، وإعلاناً لولادة الحياة بتبدّد الجوع؛ إذ تتحول العصا إلى أداة معرفية تعيق الامتداد الحركي للموت / الجوع، وتلغي أو تحذف إمكانيات ديمومته التي تؤثر سلباً على الوجود الإنساني بسرعة لحظية فائقة "فحذفها، فما شعرت إلاَّ وهي معلّقة وأدركنا ذكاتها".

فالعصا المعرفية، إذن، تقتل القبيح / الحيَّة من أجل إنقاذ الإنسان من الموت والشرّ، وهي تؤدي الوظيفة ذاتها عبر ذبح الجميل المباح / الأرنب بغية تكريس معنى الحياة.

ويصرّ السارد، كما نلحظ، على إظهار الدور المعرفي والحيوي للعصا في هاتين الوحدتين عبر إثارة جدلية النيء / المطبوخ: الناضج بما لها من أبعاد ثقافية. فالنيئ في الثقافة البدائية كان يشكّل عائقاً أمام الإنسان مما دفعه إلى البحث عن أدوات ثقافية للتحويل والصيرورة فكان ابتكار النار.

وفي هذا النّص الحكائي تتدخل العصا لتكون وسيطاً ثقافياً يكرّس حركة التحويل من النقيض / الأرنب النيئ إلى النقيض الأرنب / الناضج، فيتمكن التغلبي من ابتكار النار بفعل العصا "قال: فإنَّ عندكَ ناراً! فأخرجَ عويداً من مزودهِ، ثمَّ حكَّهُ بالعصا فأورتْ إيراءً".

فالثقافة هنا – أي ثقافة العصا مَعْلَمٌ حضاري يكشف إبداعات الإنسان وابتكاراته؛ بل إن العصا التي تستحدث النار تصبح هي الأخرى مولّدة للمعارف التي تعكس حاجة الإنسان إليها.

تتضافر العصا والنّار بوصفهما نسقين للمعرفة قصد تحرير الجميل الثقافي / الأرنب من القبحيَّات "فأخرجناها وقد لزق بها من الرّماد والتراب ما بغضَّها إليّ...، ثمّ ضرب بالعصا على جُنوبها وأعراضها ضرباً رقيقاً، حتّى انتشر كلّ شيء عليها".

ويبدو في هذا الفضاء الحكائي أنَّ السارد ما زال متمسكاً بفلسفة الإحراق التي تمثّل عاملاً تطهيرياً للجميل مما وصفه بالغثاء "ثمَّ جمع ما قدر عليه من الغثاء والحشيش فأوقد نارَه..."، وفي ذلك إشارة نسقيّة إلى أنَّ ما دار حول العصا من صراعٍ كلامي وحجاجي قبيح من قبل الآخر الشعوبي مصيره الحرق والتدمير أمام سلطة العصا؛

كما أنَّ هذا الحِجاج التآمري على الرغم من أنه يكوّن ضاغطاً نسقيّاً إلاّ أنَّ جبروته سرعان ما يتلاشى أمام فعل العصا الحارقة، وإرادة الحياة أو إرادة الانبعاث "فأكلناها وسَكَن القرم، وطابت النفس".

٧-٢ المكان المدنّس وحضارة العصا:

يستأنف السارد عبر هذا السّفر المعرفي في عالم العصا – يستأنف القصّ عن أعاجيبها وإضماراتها النسقية. ويمكن أن يُلمح التجلّي الحضاري للعصا بوضوح في هذا المكون الحكائي الذي يقول فيه: "ثمَّ إنَّا نزلنا بعْضَ الخانات، وإذ البيوتُ مِلاَءٌ رَوثاً وتُراباً، ونَزَلْنَا بِعَقِبِ جُنْدٍ وخَرَابٍ مُتَقدِّم، فَلَمْ نجدْ مَوْضِعاً نَظلُّ فيه، فَنَظَرَ إلى حَدِيدةٍ مِسحَاةٍ مَطْرُوحَةٍ في الدَّار، فأخَذَها فجعلَ العَصَا نِصَاباً لها، ثُمَّ قامَ فَجَرَفَ جميع ذلك التُّرابِ والرَّوثْ، وَجَرَدَ الأَرْضَ بِها جَرْدَاً، حتَّى ظَهَر بياضُها، وطَابَتْ ريحُها، فقلتُ: هذه سادسة"(٦٠).

تطرح هذه الوحدة السرديَّة ثنائية نسقية محورها: الخراب / الحضارة؛ إذ يقدّم السّارد توصيفاً سالباً ومأساويّاً للفضاء المكاني "وإذ البيوتُ ملاءٌ رَوْثاً وتُراباً...، بِعَقِبِ جُنْدٍ وخَرَابٍ متقدّم".

وفي إطار هاته الجدلية يصبح المكان المدنّس نسقاً للعالَم الآني الذي يصيبه التشوّه والدمار مما يجعل الحياة الإنسانية منعدمة أو مستحيلة؛ إنه العالَمُ الذي أسهم الإنسانُ في تقويضه الشمولي بالفعل والفكر السَّالبين.

ولا ريبَ في أنَّ الانهيار المكاني يرمزُ بالضرورة إلى صورة الفكر التي أنتجت السَّلبيّتين الثقافية والمكانية وأفضت إلى تمثلاتها وعياً وحضوراً؛ وهذا المآل يلقي على الذات العاملة والعالمة مسؤولية حماية العالَم وتخليصه من تشكّلات الدَّنس، إذ تتجلى

صورة المنقذ/ الفادي: التغلبي الذي ينهض بفكرٍ مغاير / فكر العصا ليقودَ مساراً ثوريًّاً يستند إلى ثقافة العمل من أجل تأسيس حضارة المكان وطهارته "فنظر إلى حديدة مِسْحاةٍ مَطروحةٍ في الدّار، فأخَذها فجعَل العَصَا نِصَاباً لها، ثمَّ قامَ فجرَفَ جميع ذلك التّراب والرَّوث، وَجَرَدَ الأرضَ بها جَرْداً حتّى ظَهَرَ بَيَاضُها، وطابت ريحها".

لقد أظهرت جدلية الحضارة والخراب / التهدم الحضاري تمايزات بين صورتين للمكان / العالم: الدَّنس / الطهارة، السواد / البياض، والريح الخبيثة / الريح الطيبة، الأمر الذي أعاد المكان / العالم إلى سويّته الحضارية بما فيه من نقاء وتطهير في ظلّ رؤية ثاقبة للذات الحارسة للمكان / العالم بفعل العصا التي أحدثت هذا الانقلاب المكاني "فنظَرَ إلى حديدةٍ...، فأخذها...، ثمّ قام فجرفَ جميع ذلك...، وجردَ الأرض بها جرداً...".

٨-٢ الهوية الثقافية وفلسفة الثبات:

بعد أن تمكن التغلبي من إحداث تحوّل جذري في الفضاء المكاني السالب بفعل توظيف الثقافة أو إبداع العصا المعرفية "وجرد الأرض بها جَرْداً، حتى ظهر بياضها، وطابت ريحها"، نلحظه يعمد إلى تجذير الهوية الثقافية على صفحة المكان الحضاري. يقول السارد:(٦١)

"وعلى أَيّ حالٍ لم تَطِبْ نفسي أَنْ أَضَعَ طعامي وثيابي على الأرض، فَنَزَع والله العَصَا من حديدةِ المِسْحاة فَوَتَدَها في الحائِطِ، وَعَلَّقَ ثيابي عليها، فقلتُ: هذه سابعة".

يرمز حضور الشرقي والتغلبي في العالَم الحضاري الجديد، على المستوى النسقي، إلى هيمنة مطلقة على هذا العالم عبر وضعيَّة مختلفة تكرّس ديمومة الحياة / الطعام، وإشهار الهوية الثقافية / الثياب، وهو ما لم يكن متحصّلاً في الفضاء المكاني المدنّس.

وتكوّن عملية تعليق الثياب على الحائط علامة نسقية إشهارية تكشف عن مَنَعة المكان الجديد، ومن ثمَّ ثبات الهوية الثقافية التي كانت مغيَّبة، بالمطلق، في المكان السوداوي/المكان الخَرِب.

وبالتالي، فإن حالة تعليق الثياب بفعل العصا تشير، نسقياً، إلى رفعة هاته الهوية وجلال شأنها، وكأنَّ مسألة تثبيت الهوية وإعادة إنتاجها / إحيائها تشكل في وعي السارد هدفاً منشوداً في نهاية المطاف بعد تسفارٍ جسدي وفكري يبرهن في محطّاته الشّاقة كلّها سلطة العصا وحضارتها "فوتدها في الحائط، وعلّق ثيابي عليها".

٩-٢ التغلبي المخاتل ومناقب العصا:

تكشف خاتمة هذه الحكاية عن مخاتلات سرديَّة يجليها أسلوب الحوار المكثّف بين الفاعلين الحكائيين: الشرقي والتّغلبي، إذ يضمر هذا الحوار بوحاً يميط اللثام عن المستتر واللامعلوم:

"فلمّا صرتُ إلى مَفْرِقِ الطُّرق، وأَردْتُ مفارقَتَه، قالَ لي: لو عَدَلْتَ فَبِتَّ عندي كُنْتَ قد قَضَيْتَ حَقَّ الصُّحْبَة، والمنْزِلُ قَريب. فَعَدَلْتُ مَعَهُ فأدْخَلَني في مَنزِل يتّصِلُ بِبيعَتِه. قال: فما زالَ يُحدّثني ويُطْرِفني ويُلْطِفني اللَّيلَ كُلَّه، فلمَّا كانَ السَّحَرُ أَخَذَ خُشَيبَةً ثمَّ أخْرَجَ تلك العَصَا بِعَيْنِها فَقَرَعَها بها، فإذا نَاقُوسٌ ليسَ في الدينا مثلُه، وإذا هُو أَحْدَقُ النّاسِ بِضَرْبِه، فقلتُ لَهُ: ويلك، أمَا أنتَ مُسْلم، وأنتَ رجُلٌ منَ العَربِ من وَلَدِ عَمْرو بن كلثوم؟ قال: بلى. قُلتُ: فَلِمَ تَضْرِبُ بالنّاقوس؟ قال: جُعِلْتُ فِداك! إنَّ أبي نَصْرَانيّ، وهو صَاحِبُ البيعَة، وهو شيخٌ ضعيف، فإذا شَهدْتهُ بَرَرْتهُ بالكِفاية. فإذا هو شيطانٌ ماردٌ، وإذا أظْرَفُ النّاسِ كُلِّهم وأَكْثَرُهم أَدَباً وَطَلَباً، فَخَبَّرْته بالذي أحْصَيتُ من خِصَال العصا، بعد أن كنتُ هَمَمْتُ أَنْ أَرْمِيَ بها، فقال: واللهِ لو حَدَّثْتُكَ عَنْ مَنَاقِبِ نفع العَصَا إلى الصُّبح لما اسْتَنفَدْتَها" (٦٢).

لقد أسهم فضول الشرقيّ في قَطْع زمنية الفراق، والإقدام نحو الاتّصال بعالم التغلبي إلى استكشاف ماهية الرفيق الرّحلي التي جعلتها عجائب الأسفار مُؤجلة.

ولعلّ ضرْب الناقوس من قبل التغلبي هو ما أدّى إلى كشف المستور لهاته الشخصية العجائبية؛ وإثارة الأسئلة الباعثة على الذهول والدهشة "فقلت له: وَيْلَكَ، أما أنت مُسْلم، وأنت رجُلٌ من العرب من ولد عمرو بن كلثوم؟".

وتماسًّاً مع إقرار التغلبي بإسلامه، فإن "الناقوس" في ضوء التماهي مع العصا يمثّل علاّمةً نسقيّة لخيريَّة الفكر / العصا الذي يتعدى المركز / دولة الإسلام: فسطاط الإسلام إلى الأطراف / الديانة المغايرة، واستيعابه للآخر المختلف.

فهذا الناقوس الذي يجسّد صوت اليقظة والتعبّد / التبتّل لم يكن ليظهر لولا فضل العصا، بل إن جماليات هذا الفكر المتصالح مع الآخر / الدين المغاير تبرز مركزية الإنسان في مسارها الفلسفي "إنَّ أبي نصراني...، وهو شيخ ضعيف، فإذا شهدته بررتُه بالكفاية". كما أنّ نسقية "الناقوس" تلمح من ناحية أخرى إلى شهادة الآخر المختلف في قدسيّة العصا، وبهذا يتّحد المسلم وغير المسلم بغية دحض حجج النسق المضاد / الشعوبي.

وتظهر مخاتلات السرد شخصية الفاعل / التغلبي النسقي الذي تنتمي أفعاله العجائبية إلى الخارق والغيبي "فإذا هو شيطان مارد"، مما يؤكد أن الخروج من المآزق الرحليَّة لم يكن ليتمّ لولا تصاريف العصا، مثلما يجذر في الآن ذاته صورة للعصا القهرية التي تتفوّق على أنساقها الضدية بالعجائبي والعقل والبرهان، وهذا ما يسمح بامتداد الأفق العجائبي للعصا بحيث يظل هذا الأفق متجاوزاً للنهايات، ومفتوحاً للإمكانيات النسقية "فقال: والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفدتها".

3- تركيب:

لقد شكلت العصا في حكاية الجاحظ هـذه تمركـزاً للأنسـاق الثقافيـة الكاشـفة لعلاقات التوتر بين الذات العربية وآخرها الشعوبي الذي سعى إلى توظيـف خبراتـه المعرفية بغية إلغاء الهوية الثقافية للعرب، وتكريس واقع شعوبي جديد يتسم بالتعـالي والهيمنة.

ولهذا فقـد جسَّـدت حركيّـات الفـاعلين: الشَّـرقي والـتغلبي في هاتـه الحكايـة حضوراً نسقياً لصورة المثقف الجوّاب، الذي يحيل ضمناً إلى الجاحظ نفسه في محاولاته الدائبة قصد برهنة سلطوية العصا أو ما يمكن وسمه بـ"مؤسسة العصا".

والجاحظ في هاته الحكاية ينتخـب "العصـا، بوصـفها نسـقاً سـيميائياً للتكثيـف والاختزال، بمعنى أن فاعليات العصا في البنى الحكائية تمثـل علاقـةً رامـزة للإنسـان، والوجود، والتاريخ، والواقع، والعقل، في سياق الثقافة العربية المنتجة.

ولا شك في أنَّ التجليات النسقية للعصا، كما تبدو في المتن الحكـائي، تكشـف أنّ "أزمة العصا" علـى الصـعيد الفكـري تـؤدي بالنتيجـة إلى انفراجـة تؤكـد سـلطتها، وقوتها، وتوهجها، ومائيتها، على الرغم من مؤامرات الطمس والإلغاء.

الهوامش والتعليقات:

Rimmon Kenan, shlomith, narrative fiction: contemporary poetics, Methuen: London and New York, 1988, p.113

(١) لومان، نيكلاس، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، مراجعة وتدقيق: رامز ملاّ، منشورات الجمل (كولونيا- ألمانيا، وبغداد)، ط١، ٢٠١٠، ص٦٦.

(٢) ينظر: لومان، نيكلاس، مدخل إلى نظرية الأنساق، ص١١٥.

(٣) الغذّامي، عبد الله، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، (بيروت، الدار البيضاء)، ط٢، ٢٠٠١، ص٧٧.

(٤) المرجع نفسه، ص٧٩.

(٥) عليمات، يوسف، النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٩، ص١١.

(٦) يوسف، أحمد، القراءة النسقية: سلطة البنية ووهم المحايثة، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، ومنشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٧، ص ص ١٢١-١٢٢.

(٧) ينظر:أيزا برجر، آرثر، النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٣، ص١٥١.

(8) Todrov, Tzvetan, symbolism and interpretation, translated by: Cathrine porter, Routledge and Kegan paul, London, Melbourne and Henleg, 1983, p.9.

(٩) برانيغان، جون: السلطة وتمثيلها: قراءة تاريخانية في قصة "ثلجت" لـ"ريتشارد جيفري"، ترجمة: يوسف عليمات، نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد ٣٨، نوفمبر، ٢٠٠٧، ص٨٠.

(١٠) المرجع نفسه، ص٨٠.

(١١) المرجع نفسه، ص٨٠.

(12) Critical Terms for Literary study, Edited by: Frank Lentricchia and Thomas Mclaughlin, second edition, the university of Chicago press, Chicago and London, 1995, p.51.

(13) Ibid, p. 58

(14) Ibid, p. 59

(15) Currie, Mark, post-modern Narrative theory, London and U.S.A: Macmillan press Ltd, p. 26.

(١٦) ينظر: فان دايك، تـوين، الخطـاب والسـلطة، ترجمـة: غيـداء العلـي، مراجعـة وتقـديم: عمـاد عبد اللطيف، القاهرة: المركز القومي للترجمة، عدد ٢٤١٩، ط١، ٢٠١٤، ص٣٦.

(١٧) جينيت، جيرار، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم، وعبـد الجليـل الأزدي، وعمـر حلّي، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ط٢، ١٩٩٧، ص٣٧.

(١٨) المرجع نفسه، ص٣٧.

(١٩) المرجع نفسه، ص٣٨.

(20) Fludernik, Monik, Towards a "Natural", narratology, Routledge: London and new York, p. 26.

(21) Hutcheon, Linda, Narcissistic Narrative: the meta- fictional Paradox, Methuen, New York and London, 1980, p.89

(٢٢) بروب، فلاديمير، مورفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بـن عمّـو، شـراع للدراسـات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٦، ص٣٣.

(٢٣) المرجع نفسه، ص١٠٦.

(٢٤) ينظر:إبراهيم، عبد الله، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكـائي العربـي، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠، ص١٨.

(25) Chatman, Seymour, Story and discourse: Narrative structure in fiction and film, cornell university press, Ithaca and London, 1978, p.19.

(26) Holloway, John, Narrative and structure: exploratory essays, Cambridge University Press, London, New York, Melboarne, 1979, p.75.

(٢٧) بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: منذر عيَّاش، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٤، ص١٠.

(٢٨) المرجع نفسه، ص١٤.

(٢٩) يقطين، سعيد: تحليل الخطـاب الروائـي (الـزمن – السـرد – التبـئير)، المركـز الثقـافي العربـي، (الـدار البيضاء، بيروت) ط٤، ٢٠٠٥، ص٣٩.

(٣٠) محفوظ عبـد اللطيـف، البنـاء والدلالـة في الروايـة: مقاربـة مـن منظـور سـيميائية السـرد، منشـورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون (الجزائر، بيروت) ط١، ٢٠١٠، ص٥٩.

(٣١) ينظر:بنكراد، سعيد، السيميائيات السردية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠١٢، ص٧٢.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٩٦.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ص ١٢٤-١٢٥.

(٣٤) ناصف، مصطفى، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ٢١٨، فبراير/ شباط،١٩٩٧، ص٣٨.

(٣٥) المرجع نفسه، ص٥٥.

(٣٦) أومليل، علي، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٩٨، ص ص ٧٩-٨٠.

(٣٧) ينظر:الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي: قراءة ثقافية في الأنساق الثقافية العربية، ص٢٢٩.

(٣٨) ينظر:ريكور، بول، الزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي، الجزء الأول، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦، ص٢٣٧.

(٣٩) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، مولى لأبي القلمس عمرو بن قطع الكياني ثمَّ الفقيمي، وكان جدّه أحد النّسأة.

وقال الصّولي: حدّثني أحمد بن يزيد المهلّبي عن أبيه قال: قال المعتزّ: يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ، فقلت لأمير المؤمنين طول البقاء، ودوام العزّ، قال: وذلك في سنة خمس وخمسين ومائتين؛ إذ توفي الجاحظ في خلافة المعتز. ينظر: ابن النديم، الفهرست، المجلد الأول تحقيق ونشر: شعبان خليفة، ووليد محمد العوزة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ص ٣٣٥-٣٣٧.

وكان الجاحظ معتزلياً، ويمتاز بأنه لم يترك موضوعاً عاماً إلاّ وكتب فيه رسالة أو كتاباً، ومن يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف في النبات، والشجر، والحيوان، والإنسان، وفي المعاد والمعاش، وفي الجدّ والهزل، وفي الترك والسودان، وفي المعلّمين والقيان، والجواري والغلمان، وفي العشق والنّساء، وفي الزّيدية والرّافضة، وفي حجج النبوة ونظم القرآن، وفي البيان والتبيين، وفي حيل لصوص النهار، وحيل سُرَّاق الليل، وفي البخلاء واحتجاج الأشحّاء. ينظر: ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة، ١٩٧١، ص ص ١٦٠-١٦١.

(٤٠) بدأت الحركة الشعوبية في الفترة الأموية الأخيرة، واندفعت بقوة في العصر العباسي، وهي تمثل جانباً من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي من خلال الفكر والعقيدة، فهي في اندفاعها تكشف عن صراع ثقافي ديني واسع. وتنصبّ حملات الشعوبية، أساساً، على الجذور والأصول، فهي تهاجم العرب قبل الإسلام وتتهمهم في كل شيء، في أسلوب حياتهم، ومطاعمهم وملابسهم، وفصاحتهم، وخطبهم، وأساليب قتالهم، وأنسابهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، ومقاييسهم الخلقية. وقد بان نشاط الشعوبية والزنادقة في أيام المهدي، ولكن المعلومات عن الجيل الأول من هؤلاء تشير إلى وجودهم منذ زمن المنصور، ولكن الشعوبية بمفهومها الدقيق لم تتكشف تماماً إلاّ في العصر العباسي الأول. ينظر: الدوري، عبد العزيز، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١، ص ص ٩-٦٢.

(٤١) ماجدولين، شرف الدين، الفتنة والآخر: أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون ودار الأمان، (الرباط)، ومنشورات الاختلاف، (الجزائر، بيروت، الرباط)، ط١، ٢٠١٢، ص٢٨.

(٤٢) ينظر نصّ الحكاية: الجاحظ، البيان والتّبيين، الجزء الثالث، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٠، ص ص٤٥-٤٨.

(٤٣) البيان والتبيين، ص٤٥. الحاذ: قليل المال والعيال، كما يقال خفيف الظهر.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ص ٤٥-٤٦.

(٤٥) يذكر المؤرخون أن عمرو بن هند قتل على يدي عمرو بن كلثوم، وكان سبب قتله غروره البالغ، فقد قال لجلسائه يوماً: "هل تعلمون أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمّه أمي؟ قالوا: ما نعرفه إلاّ أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، وعمّها كليب وائل، وزوجها كلثوم، وابنها عمرو، فسكت مضّرط الحجارة أو محرّق على ما في نفسه، وأرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويأمره أن تزور أمه ليلى أمّه هند، وأخرج للناس الطعام، وحاولت أمّ الملك استخدام أمّ الشاعر، ولكنها رفضت وصاحت: واذلاه يا آل تغلب، فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم، وثار إلى سيف عمرو بن هند وهو معلق في السرادق، فضرب به رأس مضرّط الحجارة فقتله. ينظر: عبد العزيز سالم، السيد، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦، ص ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٤٦) الموسوي، محسن جاسم، سرديّات. العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء، بيروت)، ط١، ١٩٩٧، ص١٤.

(٤٧) لقد سكّت الناقدة جوليا كريستيفا Julia Kristeva مصطلح التناصّ Intertexuality، ليشير إلى أن النصّ الأدبي خطاب يخترق وجه العلم والإيديولوجيا والسياسة، ويتنطّع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها، ومن حيث هو خطاب متعدد، ومتعدد اللسان أحياناً، ومتعدد الأصوات غالباً، (من خلال تعدد الملفوظات التي يقوم بمفصلتها)، يقوم النصّ باستحضار وكتابة ذلك البلّور الذي هو محمل الدلالية، المأخوذة في نقطة معيّنة من لا تناهيها؛ أي كنقطة من التاريخ الحاضر حيث يلحّ هذا البعد اللامتناهي. ولهذا، فالنص، في رؤية كريستيفا، إنتاجية، وترحال للنصوص، وتداخل نصّي. ينظر: كريستيفا، جوليا، علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل كاظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢،١٩٩٧، ص.ص ١٣-٢١.

(٤٨) البيان والتبيين، ص٤٦، وفيها تناصّ مع قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ سورة طه الآيتان ٩-١٠.

(٤٩) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ سورة القصص آية:٣٠.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٤٦، وفيها تناصّ مع قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ سورة طه/ الآيتان ١١-١٢.

(٥١) البيان والتبيين، ص٤٦. المكاري: مَنْ يكري الدوابّ، ويغلب على البَغّال والحمَّار.

(٥٢) جيران، عبد الرحيم، علبة السّرد: النظرية السردية من التقليد إلى التأسيس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص ص ٢٩-٣٠.

(٥٣) هذا العدد كثير التردّد في الفكر العربي الإسلامي، فالطواف سبعة أشواط، وكذلك السّعي والجمرات سبع حصى، والسموات سبع، وفاتحة الكتاب سبع آيات، والطيف سبعة ألوان، وأيام الأسبوع سبعة، ينظر تفصيلاً لهذا: هزايمة، أحمد، الأرقام: الإشارات وحقيقة الأصل الحرفي، المركز القومي للنشر، إربد، الأردن، ط١، ٢٠٠٦، ص٧٣، وما بعد.

(٥٤) البيان والتبيين، ص٤٦، الإحضار: ضرب من العَدْو. الزَّالج: الذي إذا رماه الرامي فقصر عن الهدف، وأصاب صخرة استقل من إصابة الصخرة فقوي وارتفع.

(٥٥) ينظر:الحافظ، منير، الوعي الجسدي: الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي: دراسة، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ومحاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٢، ص٦٧.

(٥٦) البيان والتبيين، ص٤٧. الأخافيق، الشقوق: واحدها أُخفوق. بهشت له: أقبلت إليه تريده. الوقذ: شدة الضّرب.

(٥٧) ولعل أهمّ تجليات الأفعى الشريرة، على الأقل في الحضارات الساميّة، يتمثل في قيام الأفعى بإخفاء إبليس في جوفها على نحو جعلهما يتمكنان من إغواء آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرّمة التي نُهيا عنها، ومن ثمّ كان طردهما من الجنَّة. ينظر: أنس الوجود، ثناء، رمز الأفعى في التراث العربي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ١٩٨٤، ص٩ وما بعدها. وينظر كذلك: روابنية، حفيظة، التجليات الموضوعاتية للحية في نماذج من الشعر القديم، مجلة التواصل، جامعة عنّابة، الجزائر، العدد الرابع، جوان، ١٩٩٩، ص٨٠ وما بعد.

(٥٨) البيان والتبيين، ص٤٧، قرم إلى اللحم، اشتدّت شهوته له. الذكاة: الذّبح، أي كان بها بقية من حياة فذبحناها.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ص ٤٧-٤٨. الخانات: جمع خان؛ وهو الحانوت أو الفندق الذي ينزل به التجار. المسحاة: مجرفة من حديد.

(٦٠) البيان والتبيين، ص٤٨.

(٦١) المصدر نفسه، ص٤٨، البيعة بالكسر، كنيسة النصارى وقيل كنيسة اليهود.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن النديم، الفهرست، المجلد الأول تحقيق ونشر: شعبان خليفة، ووليد محمد العوزة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١.
- الجاحظ، البيان والتّبيين، الجزء الثالث، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٠.

ثانيا: المراجع

- إبراهيم، عبد الله، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠.
- أنس الوجود، ثناء، رمز الأفعى في التراث العربي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ١٩٨٤.
- أومليل، علي، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٩٨.
- بنكراد، سعيد، السيميائيات السردية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠١٢.
- جيران، عبد الرحيم، علبة السّرد: النظرية السردية من التقليد إلى التأسيس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- الحافظ، منير، الوعي الجسدي: الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي: دراسة، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ومحاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٢.
- الدوري، عبد العزيز، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١.
- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة، ١٩٧١.
- عبد العزيز سالم، السيد، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦.

- عليمات، يوسف، النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٩.
- الغذّامي، عبد الله، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، (بيروت، الدار البيضاء)، ط٢، ٢٠٠١.
- ماجدولين، شرف الدين، الفتنة والآخر: أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون ودار الأمان، (الرباط)، ومنشورات الاختلاف، (الجزائر، بيروت، الرباط)، ط١، ٢٠١٢.
- محفوظ، عبد اللطيف، البناء والدلالة في الرواية: مقاربة من منظور سيميائية السرد، منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون (الجزائر، بيروت) ط١، ٢٠١٠.
- الموسوي، محسن جاسم، سرديّات. العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء، بيروت)، ط١، ١٩٩٧.
- ناصف، مصطفى، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ٢١٨، فبراير/ شباط،١٩٩٧.
- هزايمة، أحمد، الأرقام: الإشارات وحقيقة الأصل الحرفي، المركز القومي للنشر، إربد، الأردن، ط١، ٢٠٠٦.
- يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي (الزمن – السرد – التبئير)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء، بيروت) ط٤، ٢٠٠٥.
- يوسف، أحمد، القراءة النسقية: سلطة البنية ووهم المحايثة، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، ومنشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٧.

ثالثا: المترجمة

- أيزا برجر، آرثر، النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٣.
- بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: منذر عيَّاشي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٤.

- بروب، فلاديمير، مورفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمّو، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٦.
- جينيت، جيرار، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلّي، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ط٢، ١٩٩٧.
- ريكور، بول، الزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي، الجزء الأول، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦.
- فان دايك، تون، الخطاب والسلطة، ترجمة: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، القاهرة: المركز القومي للترجمة، عدد ٢٤١٩، ط١، ٢٠١٤.
- كريستيفا، جوليا، علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل كاظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2،١٩٩٧.
- لومان، نيكلاس، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، مراجعة وتدقيق: رامز ملاّ، منشورات الجمل (كولونيا- ألمانيا، وبغداد)، ط١، ٢٠١٠.

رابعا: المراجع الأجنبية

- Chatman, Seymour, Story and discourse: Narrative structure in fiction and film, cornell university press, Ithaca and London, 1978.
- Critical Terms for Literary study, Edited by: Frank Lentricchia and Thomas Mclaughlin, second edition, the university of Chicago press, Chicago and London, 1995.
- Currie, Mark, post-modern Narrative theory, London and U.S.A: Macmillan press Ltd, 1997.
- Fludernik, Monik, Towards a "Natural", narratology, Routledge: London and new York, 1998.
- Holloway, John, Narrative and structure: exploratory essays, Cambridge University Press, London, New York, Melboarne, 1979.
- Hutcheon, Linda, Narcissistic Narrative: the meta- fictional Paradox, Methuen, NewYork and London, 1980.
- Rimmon Kenan, shlomith, narrative fiction: contemporary poetics, Methuen: London and New York, 1988.

- Todrov, Tzvetan, symbolism and interpretation, translated by: Cathrine porter, Routledge and Kegan paul, London, Melbourne and Henleg, 1983.

خامسا: المقالات

- برانيغان، جون: السلطة وتمثيلها: قراءة تاريخانية في قصة "أثلجت" لـ "ريتشارد جيفري"، ترجمة: يوسف عليمات، نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد ٣٨، نوفمبر، ٢٠٠٧.
- روابنية،حفيظة،التجليات الموضوعاتية للحية في نماذج من الشعر القديم، مجلة التواصل، جامعة عنّابة، الجزائر، العدد الرابع، جوان، ١٩٩٩.

مشكلة نطق صوت الضاد
عند الناطقين باللغة العربية وبغيرها
" تشخيصًا وعلاجًا "

د. هيثم حماد احمود الثوابية
الجامعة الألمانية الأردنية

ورد البحث في ٥/ ١١/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٤/ ٢/ ١٤٣٧هـ

مشكلة نطق صوت الضاد عند الناطقين باللغة العربية وبغيرها " تشخيصًا وعلاجًا "

د. هيثم حماد احمود الثوابية

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الاضطرابات النطقية في صوت الضاد عند الناطقين باللغة العربية والناطقين بغيرها، وتطوير برنامج علاجي يعتمد على المنجزات الغربية لأخصائي اللغة والنطق لمعالجة تلك الاضطرابات، ومن ثم اختبار أثره في تحسين المهارات النطقية عند المتعلمين.

وقامت الدراسة على تشخيص الاضطرابات النطقية، وتوصيف برنامج علاجي يهدف للحدّ منها، ومن ثم أجريت دراسة على مجموعة من المتعلمين ضمن ثلاث فئات، هي (متعلمو مدرسة الأمير هاشم، ومتعلمو مركز الفرقان، ومتعلمو مركز اللغات/ الجامعة الأردنية). وقد وزعوا على مجموعتين: المجموعة الضابطة وتكونت من (١٨) متعلما. والمجموعة التجريبية وتكونت من (١٨) متعلما، إذ خضع أفراد المجموعة التجريبية للبرنامج العلاجي المقترح، ولم يخضع أفراد المجموعة الضابطة لذلك.

وأظهرت نتائج هذه الدراسة تحسنا ملموسا على أفراد المجموعة التجريبية من خلال التخفيف من الاضطرابات النطقية لصوت الضاد علاوة على أنها أظهرت فعالية هذا البرنامج العلاجي للفئات الثلاث.

كلمات دالة: الاضطرابات النطقية، الناطقون باللغة العربية، البرنامج العلاجي.

Problem with Pronunciation of The Sound of The Letter (الضاد) for Native Arabic Speakers and Others "Diagnostic and Therapeutic"

Summary

This study aimed to develop a treatment program based on the Western achievements for specialists of language and speech to reduce speech disorders in the sound of (الضـــاد) for native Arabic Speakers and others, then testing its effect in improving the accent skills for learners.

This study was conducted on a group of learners into three categories: (Learners of Prince Hashim School, learners of Al-Forqan Center and learners of Languages Center / University of Jordan). They were distributed to two groups: control group consisted of (18) learners. The experimental group consisted of (18) learners, as only the members of the experimental group have undergone the proposed therapeutic program (Not the controlling group).

The results of this study showed a significant improvement on the experimental group through the reduction of speech disorders in the sound of (الضـاد).Furthermore, they showed the validity of this therapeutic program for the three categories.

Keywords: speech disorders, native Arabic speakers, therapeutic program

خلفية الدراسة ومشكلتها

المقدمة

لقد اعتنى الدارسون بموضوع النطق (Pronunciation) في تعليم اللغة عناية حثيثة؛ لأنه المنطلق الذي يعول عليه المتعلم في تواصله بمن يحيط به، ومتى ما كان نطق الكلمات والأصوات واضحا (Intelligibility) أمكنه ذلك من إيصال الرسالة الكلامية التي ينتوي إرسالها، بغض النظر عن مدى إتقانه لقواعد تركيب الجملة المنطوقة إلى حد ما [١].

ومن اللزام على المتعلم حتى يصل إلى الوضوح النطقي أن يتعلم الأصوات أو القطع الصوتية (Segments)؛ لأنها تشكل العنصر الرئيس في بناء النظام الصوتي، فالخلل في إنتاجها من خلال فقد أحد خصائصها الصوتية أو استبدالها بأصوات أخرى يؤدي إلى غموض الرسالة.

ويعد صوت الضاد أحد أصوات العربية التي تغنى بها أبناؤها خير غناء مطلقين على لغتهم لقبا هو "لغة الضاد"، وعلى الرغم من احتفاء أهل تلكم اللغة بهذا الصوت إلا أنه يعد من أثقل الأصوات على أبناء العربية أنفسهم[٢]، وليس أدل على هذا من عدم مقدرة أهل تلك اللغة على المحافظة على نطقه بالوصف الذي أثله علماء العربية المتقدمون، فنسمع الآن ما يسمى بالضاد المماتة أو المهجورة. وليس هذا فحسب بل إن أداءه اختلط بأداء أصوات أخرى كالظاء واللام والدال... وكذلك فإن الناطقين بغير العربية يعسر عليهم نطق هذا الصوت نطقا صحيحا، وهذا العسر الإنتاجي والإدراكي أدى إلى غموض رسالة المتكلم في أغلب الأحيان.

وإن التداول الشفوي لصوت الضاد في الواقع المعيش في خضم العملية التعليمية التي عاشها الباحث خلال١٤ عاما في التعليم المدرسي والجامعي في الأردن تكشف تحوله عند المتعلمين إلى (ظاء)، وهذا حضّ الباحث على القول: إن هذا التحول أصبح ظاهرة مستشرية في الواقع اللغوي عند متكلمي اللغة العربية من أبنائها فلا نكاد نسمع ناطقا لهذا الصوت إلا وينطقه ظاء[٣] كقولهم"بيظة"، وزايا كقولهم "زابط".

ولا غرو أن صوت الضاد قد وجد في اللغات السامية[٤]، وقد جرى تحول على نطق هذا الصوت، فيقول بروكلمان (brockelmann): " وفي معظم اللهجات العربية المعاصرة، التي تتكلم في المدن، اتفق نطق الظاء (z) مع نطق الضاد(d.) "[٥].

وما أشبه اليوم بالبارحة، فكأن هذا الصوت كتب عليه عدم الثبات والبقاء على صورته الأصلية، فإنه لم يعد يجري على ألسنة الناطقين باللغة العربية أيضا، وهذا أمر مشهود قديما وحديثا، فقد نقل لنا الجاحظ ذلك، فقال: "وزعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ظمياء، بالضاد. فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء. فناداها: يا ضمياء"[٦].

وما يدل على انتشار هذا التحول والاضطراب قيام كثير من اللغويين في حصر الأصوات التي انحرف فيها أبناء العربية عن صوت الضاد، فقرروا أن من الناطقين من ينطق الضاد من مخرجها الخالص، ومنهم من ينطقها مشوبة بالظاء، ومنهم من ينطق بها ظاء خالصة، ومنهم من يشمها الذال، ومنهم من يشمها الزاي، ومنهم من يشمها لاما مفخمة[٧].

وكذلك نجد في العصر الحاضر اللغويين المعاصرين يركزون على هذه القضية، فرمضان عبد التواب قرر أن أهل بلاد العراق وشمالي افريقيا يخلطون بين صوتي الضاد والظاء خلطا كبيرا، وأهل بلاد مصر يخلطون بين الضاد والزاي[٨].

وقد قام اللغويون بوصف الخصائص النطقية لصوت الضاد والأصوات المتحولة عنه نوعا من العلاج لهذا الاضطراب النطقي[٩]. ومن الأمثلة على ذلك تعليل اللغويين اختلاط الضاد والظاء عند متكلمي اللغة، فقال مكي: "والضاد يشبه لفظها لفظ الظاء؛ لأنها من حروف الإطباق ومن الحروف المستعلية، ومن الحروف المجهورة"[١٠].

ونتيجة لهذه التحولات ظهرت - في مطلع القرن الثالث الهجري – دعوة تفضي إلى جواز المعاقبة بين الضاد والظاء؛ فقد روى ابن خلكان أن ابن الأعرابي كان يقول: "جائز في كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه"[١١].

ويتضح من قول ابن الأعرابي أنه لم يسوِّ بين صوتي الضاد والظاء من ناحية اللفظ، ولكن جوز أن ينطق اللفظ الواحد بأي منهما، وهذا الأمر يلغي أثر اختلاف الصوتين في معنى الألفاظ، وهذا تأكيد بالعلاقة بين الصوتين بأن الضاد في حقيقتها ظاء. ولعل جواز المعاقبة بين الضاد والظاء أفضى عند بعض اللغويين إلى أن يطالبوا بحلول الظاء محل الضاد أو العكس علاجا للمشكلة.

وعلاوة على ما سبق، فإنه قد ظهر اتجاه جديد في معالجة مشكلة نطق صوت الضاد، يتمثل في العناية بالألفاظ التي تنطق بالضاد والظاء، والاشتغال بحصرها وتأليف الرسائل فيها، وهذه الرسائل عبارة عن معجمات صغيرة تعنى بقسم من ألفاظ اللغة[١٢].

ويخلص الباحث مما تقدم أن الضاد تميزت به العربية عن مثيلاتها من اللغات لصعوبة المخرج. ولعل عدم دربة اللسان على استخدام هذا الصوت لم تكسبه مرونة وليونة تسهم في سهولة نطقه؛ ونتيجة لهذه الصعوبة غير الوظيفية؛ وطلبا للسهولة واليسر تحول الناطقون به من هذا المخرج إلى مخرج آخر.

وأما بما يختص بالتحولات النطقية في الضاد عند الناطقين بغير العربية، فإنه من خلال وجود بعض متعلمي اللغة العربية باعتبارها لغة ثانية في بعض الجامعات الأردنية من الجنسيات المختلفة تبين أنه من الأصوات التي يشوبها تحولات إلى أصوات أخرى مشوها إياها صوتيا؛ إذ إننا نجد أبناء الجنسية الماليزية والأمريكية ينطقون الضاد دالا أو زايا أو لاما.

ومما يدعم ما شاهده الباحث وسمعه وتلمسه ما وجد من جذور لهذه الظاهرة منذ القدم، فمن الطريف أن نجد عند الجاحظ ملاحظات قيمة عن أثر الأساس اللغوي في نطق متعلمي العربية من الشعوب المفتوحة عندما قال: "وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعرف من إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه"(١٣).

وإذا ما انتقلنا إلى صوت الضاد خاصة، وصعوبة نطقه عند الأجنبي، فسيدعم الباحث الرأي القائل بتحوله عند نطق الأجنبي له بأقوال اللغويين العرب – المتقدمين والمتأخرين – ثم نتبعها بآراء بعض المستشرقين، وهذا كله على سبيل الإبانة لا الإحاطة، فمن المتقدمين السيرافي الذي قال: "وأما الضاد الضعيفة فإنها من لغة قوم ليس في لغتهم ضاد، فإذا احتاجوا إلى التكلم بها من العربية اعتاصت عليهم"(١٤). ومن اللغويين العرب المتأخرين إبراهيم أنيس، فقد قال: "ويظهر أن الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب"(١٥). وأما المستشرقون، فبرجشتراسر (Bergstrasser) يرى أن كلمة "القاضي" صارت في الإسبانية

alcalde [١٦]، في حين أن المستشرق (Kamus Lengkap) يرى أن الإندونيسيين يقولون: hail = حيض، lalalat = ضلالة، loha = ضحى [١٧].

ولعل وقوع الأجنبي بهذا الاضطراب النطقي يعود إلى عدة أسباب، منها اللغوية التي تتمثل في صعوبة أداء هذا الصوت، " واختلاف اللغتين في مخارج الأصوات، واختلافهما في التجمعات الصوتية، واختلافهما في مواضع النبر والتنغيم، واختلافهما في العادات النطقية" [١٨].

وهناك أسباب غير لغوية كالمشاكل الاجتماعية[١٩]، نحو: مشكلة التأقلم مع المجتمع العربي، والمشاكل النفسية، نحو: آثار التعليم الصفي، والمشاكل الثقافية[٢٠]، نحو: فهم ثقافة أهل اللغة، والمشاكل التربوية[٢١]، نحو: الخطط والمناهج والمقررات وإعداد المعلم.

ونخلص في نهاية هذا العرض الموجز إلى حقائق: أولها: صوت الضاد صعب الأداء، وهذا السبب الرئيس لانحرافه عند الناطقين به. ثانيها: لم يتحول صوت الضاد إلى صوت واحد بل إلى أصوات متعددة. ثالثها: اتخذ اللغويون اتجاهين في معالجة مشكلة الضاد، الأول: تمثل في دراسة الخصائص النطقية للضاد، والانحرافات التي تلحقه على ألسنة الناطقين. والثاني: تمثل في حصر الألفاظ التي تنطق بالضاد والظاء.

مشكلة الدراسة

إن مشكلة الدراسة تكمن في أن الناطقين للضاد من الناطقين بها والناطقين بغيرها يعانون من تحولات وتشوهات في نطقه – كما ظهر في المقدمة – وهذا الأمر أدى إلى تقديم أداء قرائي وشفوي لا يتناسب مع معايير الفصاحة اللغوية، علاوة على التداخل الصوتي وتضاربه بين أصوات الوحدات الصوتية للغات الأصلية للناطقين من المتعلمين بغير العربية.

وقد وجد الباحث أن البحث في علاج صوت الضاد المضطرب نطقيا لم يلق عناية كافية من الباحثين العرب والأجانب على الرغم من محاولات علماء العرب الأوائل المتمثلة في جمع الألفاظ التي تنطق بالضاد والظاء، ودراسة الخصائص النطقية لصوت الضاد؛ فالباحث لم يعثر – في حدود ما اطلع عليه – على دراسة مختصة منفردة استفادت من المنجزات الغربية لأهل اللغة والنطق؛ لوضع حلول وآليات وتقنيات علاجية تفيد (مدرسي اللغة العربية للناطقين بغيرها، وقارئي القرآن، ومدرسي المدارس) في علاجهم للمضطربين نطقيا للضاد، بالرغم من وجود العديد من الطرائق العلاجية التي تسهم في وضع إطار نظري يساعد في علاج هذا الصوت.

وبذلك فإن هذه الدراسة تحاول الإجابة عن السؤالين الآتيين:

أولهما: ما أثر برنامج علاجي مقترح في تحسين نطق صوت الضاد لدى المتعلمين من أبناء العربية ومن الناطقين بغيرها؟

ثانيهما: هل يختلف أثر البرنامج العلاجي في تحسين أداء المتعلمين في نطق صوت الضاد باختلاف فئاتهم(مدرسة الأمير هاشم، ومركز الفرقان، ومركز اللغات / الجامعة الأردنية)؟

أهمية الدراسة

وتكمن أهمية هذه الدراسة فيما يلي: أولا: تعدّ من أوائل الدراسات الصوتية العلاجية – في حدود علم الباحث- التي تختص بالضاد، والتي استفادت من المنجزات الغربية لاختصاصيي اللغة والنطق في تأسيس برنامج علاجي لتقويم الاضطرابات التي تصيب صوت الضاد. ثانيا: قد تتيح هذه الدراسة المجال أمام المهتمين بهذا المجال لإجراء المزيد من الدراسات على أصوات أخرى مضطربة نطقيا عند المتعلمين كالأصوات الحلقية.

محددات الدراسة

١- لم يأخذ الباحث جنس المتعلم بعين الاعتبار عند اختيار عينة البحث.

٢- طبقت الدراسة على عينة من متعلمي مدرسة الأمير هاشم، ومركز الفرقان، ومركز اللغات.

التعريفات الإجرائية

المتعلمون الناطقون باللغة العربية والناطقون بغيرها: هم المتعلمون الذين يتكلمون باللغة العربية باعتبارها لغة أمّ لهم، وهم في البحث متعلمو مدرسة الأمير هاشم ومتعلمو مركز الفرقان، والمتعلمون القادمون من دول مختلفة لا تنطق باللغة العربية لتعلمها، وهم في البحث متعلمو مركز اللغات / الجامعة الأردنية.

البرنامج العلاجي: هو خطة محددة تشمل مجموعة من التدريبات النطقية لتنمية الأصوات المضطربة نطقيا.

الاضطرابات النطقية: هي عدم القدرة على نطق بعض الأصوات اللغوية؛ تبعا لأسباب معينة.

النظام الصوتي: هو النظام المسؤول عن إنتاج الأصوات الكلامية والمتمثل بجهاز النطق الذي يعمل على إنتاج الأصوات الكلامية على اختلاف مخارجها.

الإطار النظري و الدراسات السابقة

- الإطار النظري

أولا: صوت الضاد بين الأصالة والمعاصرة

لقد وصف القدماء مخرج صوت الضاد، ويعد سيبويه أول من وصفه حين قال: "ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد"[٢٢]، ثم وضح

المبرد قول سيبويه بقوله: "ومخرجها من الشدق، فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر"[٢٣].

غير أن الصورة السابقة لصوت الضاد لم تكن الوحيدة المسموعة عند العرب، إذ تطرق اللغويون إلى صورة مسموعة له في لهجات العرب لا توصف بالفصاحة، وقد تحدث عنها سيبويه بقوله: "إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف؛ لأنها من حافة اللسان"[٢٤].

وقد تعاور اللغويون – قديما وحديثا – كلام سيبويه السابق لما فيه من غموض[٢٥] فقديما نجد ابن يعيش يذكر أن "الضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها طاء"[٢٦]. وأما حديثا، فقد ذهب غانم الحمد إلى أن هذا المصطلح صار يطلق بعد سيبويه على أكثر من صوت حسب ما تؤول إليه الضاد، سواء أكان ظاء أو بين الضاد والظاء أو بين الضاد والثاء[٢٧].

ويظهر مما سبق أن النطق بالضاد قد مرّ بتحولات متعددة جعلت برجشتراسر (Bergstrasser) يقول: "ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقا قريبا منه جدا عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة. ويظهر أن الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك؛ ولذلك استبدلها الإسبان بصوت LD في الكلمات المستعارة في لغتهم..."[٢٨].

وأما الضاد التي ننطقها الآن، فهي صوت أسناني لثوي انفجاري (شديد) مجهور مفخم، وآلية نطقه تكون بإلصاق مقدمة اللسان بالأسنان العليا، إلصاقا يمنع مرور الهواء الخارج من الرئتين، كما ترتفع اللهاة والجزء الخلفي من سقف الحلق؛ ليسد التجويف الأنفي، مع تذبذب في الأوتار الصوتية وارتفاع في مؤخرة اللسان قريبا نحو الطبق، ثم ينقشع هذا الانسداد فجأة، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج [٢٩].

وعلى هذا فالضاد الحديثة تختلف عن الضاد القديمة كونها تعد المقابل المطبق المفخم لصوت الدال، فالضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة، بل حافة اللسان أو جانبه، وهي صوت احتكاكي رخو.

ويرى الباحث أن الضاد القديمة هي صوت عربي ميت مهجور لا نسمعه – كما قرر كثير من الدارسين – عند أحد من أبناء اللغة العربية، وأن الضاد الحديثة هي الدارجة على ألسنة المجيدين من أبناء اللغة العربية وقراء القرآن، فالأولى تعليم الضاد الحديثة المستعملة الآن من تلك الميتة؛ لعدد من الأسباب[٣٠]:

- أن الضاد القديمة لا يقابلها شيء من الأصوات العربية والأجنبية، في حين أن الضاد الحديثة هي المقابل المطبق أو المفخم للدال، والدال صوت يكاد يكون مشتركا في أغلبها إن لم يكن في كلها، فالدال صوت ينطلق بالطريقة نفسها مع فارق بسيط[٣١].
- أن حكم الضاد الحديثة في مثل قوله تعالى {أفضتم}[٣٢] يجب أن يعاد النظر فيه، وأن يحمل على حكم الطاء "الإدغام الناقص"[٣٣]، وفي هذا الاقتراح حلٌّ للاضطراب بين منظومة الإدغام والضاد القديمة.
- أن جلَّ قراء القرآن – اليوم – ينطقون صوت الضاد بالضاد الحديثة لا الضاد القديمة المماتة، لأن النطق الحديث للضاد في القرآن الكريم ما زال يجعلنا نميز من ناحية المعنى بين "الظالين" و{الضالين}[٣٤]". علاوة على أن أهل التلاوة والتجويد كالداني والقرطبي لم يغلطوا من يقرأ مثلا "الضالين" بالضاد الضعيفة، ولكنهم غلطوا من يقرأ "الظالين" بقولهم: "لأن إخراجها ظاء تبديل"[٣٥].

ثانيا: مصدر صعوبات نطق صوت الضاد في ضوء الدراسات المعاصرة

إن صعوبة نطق صوت الضاد تكمن في كونه من الأصوات التي ترتبط في ميكانيكية نطقها بمنطقة الحلق، وهذه المنطقة في الغالب غير نشطة في كثير من لغات العالم(٣٦)، وهذا سبَّبَ غيابَ النموذج الذهني الذي يقيس عليه متعلم اللغة إدراكه للأصوات الجديدة. وعلاوة على ما سبق، فإن منطقة الحلق تعد من المناطق المعقدة عضويا، وإن ميكانيكية ترك العضلات المشتركة تزامنيا في إنتاج هذه الصوامت مركبة للغاية، وهذان الأمران جعلا من نطقها أمرا صعبا على الناطقين باللغة العربية والناطقين بغيرها (٣٧).

وبناء على ما سبق، فإن موضع النطق لصوت الضاد القديمة لا يوجد له نظير بالعربية ولا بغيرها، ولعل هذا الأمر شكل – منذ القدم - معضلة كبرى عند الناطقين بالعربية وبغيرها لعدم وجود التصور الذهني عند الناطق أو المتعلم، في حين أن الموضع النطقي لصوت الضاد الحديثة – اللثوي الأسناني – لا يشكل معضلة عند غالبية متعلمي اللغة العربية من العرب والأجانب؛ لأنهم ينتجون نظيره المرقق (الدال) بوضوح.

وأما فيما يختص بميكانيكية إنتاج صوت الضاد، فصوت الضاد القديمة – الميتة – غير مستعمل عند أحد من العرب، وكل ما نملكه هو توصيف سيبويه لميكانيكية إنتاجه في – الكتاب- كما ظهر سابقا، إلا أن الإنتاجية الميكانيكية لصوت الضاد الحديثة سبق أن تصورها اللغويون واختصاصيو النطق عند المجيدين في نطق الأصوات وقراء القرآن الكريم في الوقت الحاضر، فقد توصل الباحثان (علي ودانلوف) باستخدام جهاز التصوير بالأشعة السينية إلى أن اللسان ينسحب عند إنتاج صوت الضاد الحديث إلى الوراء باتجاه أعلى الحلق القريب من أقصى الفم مما يؤدي إلى تشكيل تضييق واضح في المنطقة المسماة بالمنطقة الحلقية- الفموية (٣٨).

وعلاوة على ما سبق، فإن التحرك المركب الماثل في إنتاج صوت الضاد سببٌ في صعوبة نطقه، إذ ينتج بتقدم طرف اللسان باتجاه النطق اللثوي الأسناني، ويتزامن ذلك مع رجوع جسم اللسان وجذره باتجاه جدار الحلق الخلفي وتشكيل تضييقات شديدة تكاد تقترب[٣٩] من درجة الغلق على امتداد المنطقة، كما يحدث ارتفاع بسيط في الحنجرة وتقلص في جدار البلعوم وتقعر في اللسان، وهذا التقعر يكون بسبب حدوث ارتفاع في مؤخر اللسان باتجاه الطبق [٤٠].

ثالثا: طرائق أخصائي اللغة والنطق في علاج الاضطرابات الصوتية

إن استعراض تاريخ تعليم اللغات وتحليل الخلفيات النظرية التي تستند إليها المداخل المختلفة لتعليم اللغة يقودنا إلى مدرستين رئيسيتين[٤١]: أولا: المدرسة التجريبية: وتعتمد هذه المدرسة على طرائق مثل: التقليد والمحاكاة وطريقة التدريبات النمطية. ثانيا: المدرسة النظرية: وتسعى هذه المدرسة إلى تعليم اللغة، كتعليم النحو والترجمة. ولعل من أهم هذه الطرائق في كلتا المدرستين الطريقة التقليدية Traditional Approach، وهذه الطريقة "تشكل الأساس لعدد من طرائق التدريب الحركي"[٤٢]، علاوة على أنها الطريقة التي يفضلها اختصاصيو اللغة والنطق في مراكز التدريب والأطباء في المستشفيات[٤٣].

وتعتمد هذه الطريقة على ما يسمى بالتدريب العميق في العلاج Deep Training، ويقصد به التدريب على صوت واحد أو عدد قليل من الأصوات، إذ يبدأ بالعمل على تأسيس إنتاج الصوت منعزلا، وهذه المرحلة تسمى التأسيس Establishment، ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية التي تسمى التعميم Generalization، ويقصد بهذه المرحلة تعميم إنتاج الصوت المطلوب في السياقات اللغوية والمواقف المتباينة. وينتهي بالعمل على استمرار إنتاج الصوت بشكل سليم في

السياقات المتنوعة، وهذه تسمى مرحلة الإدامة Carryover [٤٤]. وستطبق هذه المراحل جنبا إلى جنب مع طرائق تعليم اللغات وصولا للغاية المنشودة، وهي (الطريقة المباشرة، والطريقة السمعية الشفوية، والطريقة التواصلية)[٤٥].

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس

تسعى هذه المرحلة إلى جعل المضطرب نطقيا يدرك موضع نطق الصوت وخصائصه المميزة والبدء بإنتاجه على المستوى النطقي، ويجب في هذه المرحلة التركيز على الصوت منفردا عن سياقه الصوتي[٤٦]، ولعل هذا الانفراد يتيح للمضطرب نطقيا إقصاء تأثير الأصوات الأخرى على مستوى الكلمة والجملة، علاوة على المساهمة في زيادة التركيز في خصائص الصوت المراد علاجه.

وقد اختلف في هذه المرحلة حول كيفية دراسة الصوت أن ندرسه منفردا أم في مقطع؟ فماكدونالد (McDonald) حثّ على دراسة المقطع في التدريب على الصوت[٤٧] في حين رأى غيره أن التدريب يجب أن يشرع بالأصوات المفردة؛ لأنها أقل وحدات الإنتاج تعقيدا[٤٨]. ويرى الباحث أن الدمج بين الرأيين هو الطريق الأمثل ولهذه المرحلة العديد من التقنيات:

التقنية الأولى: المحاكاة والتمثيل: لقد تحدث كل من بيرنثال و بانكسون (W. Bankson and John E. Bernthal) عن هذه التقنية، فقررا أنها تسهم في تمكين المتعلم من الربط بين السمات النطقية الخاصة بالصوت على مستوى التمييز السمعي ومستوى الإنتاج الحركي، علاوة على أنهما أوصيا بمحاولة استثارة الاستجابات الحركية عن طريق المحاكاة من خلال تقديم النماذج السمعية ثم يطلب من المتعلم أن يراقب فم المعلم ويستمع للصوت الذي ينطقه ثم يطلب إليه أن يعيد السلوك المستهدف. ويمكن علاج الصوت بتقنية المحاكاة بطريقتين: الطريقة الأولى: علاج الصوت منعزلا. والطريقة الثانية: علاج الصوت في مقاطع صوتية[٤٩].

التقنية الثانية: التموضع النطقي: يصار إلى هذه التقنية إذا لم تثمر تقنية المحاكاة عن تطور في نطق الصوت، أو لم يُطمأن إلى طبيعة النتائج التي توصل إليها سابقا. وفي هذه التقنية يشرع المعلم بمساعدة المتعلم على وضع أجزاء النطق الخاصة بالصوت في المكان الملائم له، علاوة على أنها تتضمن " شرح كيفية إنتاج الأصوات وتوصيفه. فالشروحات الشفوية المقدمة للمتعلم تتضمن وصفا حركيا لنطق الصوت والنقاط الصحيحة لأماكن التقاء أعضاء النطق التي تشترك في إنتاج الصوت المستهدف"(٥٠).

وهذه التقنية ترتبط بتقنية أخرى، وهي استخدام تمارين عضلات الفم؛ لأنها عبارة عن حركات عضلية تمهد للعلاج، ويكمن هذا الارتباط في أن التقنية الأولى تهدف إلى تسهيل نطق الصوت المستهدف، والتقنية الثانية توجه حركة اللسان والأسنان لتقترب من الصوت المستهدف.

ومن اللزام على المعلم في هاتين التقنيتين أن يركز على الاضطراب النطقي الذي يحدث عند نطق الصوت من خلال بيان الفروق بين مخارج الأصوات المتعاقبة وصفاتها التي يستعملها المتعلم وما يتوجب عليه لإنتاج الصوت المستهدف بصورة فصيحة، وفي هذا يقول بيرنثال وبانكسون (W. Bankson and John E. Bernthal): "قد يكون من المفيد، تبعا لعمر المتعلم أن يحلل الاختصاصي ويصف الفرق بين الإنتاج الخطأ والإنتاج المستهدف، ويفضل معالجو النطق أحيانا استخدام صور أو رسومات تبين مكان أعضاء النطق(٥١).

التقنية الثالثة: المقاربة التدريجية Successive Approximation: تقترب هذه التقنية في كثير من جوانبها مع طريقة التموضع النطقي التي تطرقنا لها آنفا، و" تتضمن تشكيل صوت جديد من صوت موجود في مخزون المريض ويستطيع أن ينتجه بشكل سليم "(٥٢) و" تسمى طريقة التعليم التي تستخدم المقاربة التدريجية "التشكيل"

Shaping. وتتمثل الخطوة الأولى في التشكيل في اكتشاف استجابة أولية يستطيع المتعلم إنتاجها، وتكون مرتبطة بالهدف النهائي. ويتمثل أحد الإجراءات الشائعة للبدء باستخدام هذه الطريقة في تعديل الأصوات اللغوية الأخرى الموجودة أصلا عند المريض. وتتابع خطوات التدريب بنجاح عبر سلسلة من الخطوات المتدرجة أو المقاربات، بحيث تؤدي كل منها إلى الاقتراب التدريجي من السلوك المستهدف "(٥٣).

وتكشف هذه الطريقة الإنتاج الحركي الخاص بصوت ما بشكل ملحوظ، وذلك من خلال التركيز على النقاط الأساسية التي تسهم في إنتاج الصوت كتموضعُ اللسان والأسنان في الفم.

وبناء على هذه التقنية يقوم المعلم بوضع الأصوات قريبة التموضع في بداية المقطع الصوتي ثم يتبعهما بصائت قصير ثم يتبعها بالصوت المستهدف، ويجب – هنا اختيار الصائت القصير بدقة، فمثلا عند علاج صوت الضاد يجب اختيار الصائت "الكسرة"؛ لأنه صائت أمامي مرتفع يتحرك فيه طرف اللسان باتجاه مقدمة الفم قريبا من اللثة، وآلية إنتاج هذا الصائت شبيه بآلية صوت الضاد، وهذا الأمر يشكل تقاربا موضعيا في المقطع، فيسهل على المتعلم التركيز على المنطقة الأمامية، وهذا غير موجود في الضمة التي يستعمل فيها الشفتين (٥٤).

المرحلة الثانية: مرحلة التعميم Generalization

ينتقل المعلم إلى هذه المرحلة بعد أن تأكد أن المتعلم قد أتقن الإنتاج الحركي للصوت المستهدف منعزلا وفي السياقات الصوتية ذات المقطع الواحد، ويكمن الهدف في هذه المرحلة إلى نقل السلوك الحركي للصوت من مستوى محدود (الانعزال، والمقطع الواحد) إلى مستوى أكثر اتساعا في الاستخدام اللغوي. وبعبارة أخرى: إن المعلم في مرحلة التأسيس يشرع في تدريب المتعلم على إنتاج الصوت في أشكال

متعددة: إنتاج الصوت في بداية المقطع ووسطه وآخره. وإنتاج الصوت بجوار صوائت قصيرة وطويلة... [٥٥]. ولهذه المرحلة تقنيتان:

التقنية الأولى: التعميم اللغوي: ويلجأ المعلم في هذه التقنية إلى العديد من الإجراءات، وهي:

الإجراء الأول: تعميم المقطع [٥٦]

يهدف هذا الإجراء إلى تمكين المتعلم من إنتاج صوت ما في مواضع نطقية متنوعة في مقاطع صوتية لا معنى لها، وتكمن الفائدة في ذلك بتقديم بيئات صوتية تساعد على تقديم تصور ذهني تطبيقي لإنتاج الكلام المتواصل والأكثر صعوبة مما وجد في مرحلة التأسيس. وعادة ما يستخدم في هذا الإجراء مقاطع ذات أصوات تسهل من تعميم نطق الصوت عن طريق اختيار فكرة العناقيد الصامتية التي تدرب عليها المتعلم في مرحلة التأسيس ويجعلها قاعدة للانتقال إلى عناقيد صامتية أكثر تعقيدا [٥٧].

الإجراء الثاني: تعميم الكلمة [٥٨].

ويعول هذا الإجراء على النتائج الإيجابية التي حققها المتعلم في الإجراء السابق والمرحلة السابقة، فالمتعلم بدأ بنطق الصوت المستهدف نطقا فصيحا، وكخطوة لاحقة ينتقل المعلم إلى فرض مفردات ذات معان ودلالات لغوية، وهذا الأمر يحفز المتعلم؛ لأنه يحس بإيجابية المرحلة السابقة وبقدرته على التفاعل مع الآخرين، ولذلك فإنه ينصح باختيار الكلمات الشائعة التي يستخدما بشكل مكرور[٥٩]. ومن اللزام على المتعلم أن يختار المفردات وفق معايير محددة، ومن أهمها: شيوع الكلمة في الواقع اللغوي، واختيار كلمات سهلة الإنتاج Keywords [٦٠]، والتدرج في الكلمات من كلمة بمقطع واحد إلى كلمة بمقطعين، ثم إلى كلمة يكرر فيها الصوت... [٦١].

الإجراء الثالث: تعميم الجملة

يبدأ المعلم بهذا الإجراء بعدما خلص إلى أن المتعلم متمكن من إنتاج الصوت المطلوب في كلمات ذات سياقات متنوعة، ويمكن أن ينتقل بعدها لاستخدام هذه الكلمات في تراكيب متدرجة في الصعوبة [٦٢]، ومن اللزام على المعلم أن يختار بدقة الجمل التي تتضمن هذا الصوت المستهدف. وتتأتى هذه الدقة من خلال الاحتكام إلى عدة معايير: أولا: التركيز على جمل قصيرة ثم جمل متوسطة ثم جمل طويلة. ثانيا: التركيز على الجملة التي تتضمن كلمة واحدة تحتوي على الصوت المستهدف ثم كلمتين ثم ثلاثة. ثالثا: التركيز على جملة تتضمن كلمة تنتهي بالصوت المستهدف والكلمة التي بعدها تبدأ بصوت بعيد المخرج ثم جملة تتضمن كلمة تنتهي بالصوت المستهدف والكلمة التي بعدها تبدأ بصوت قريب المخرج.

الإجراء الرابع: تعميم المحادثة والكلام التلقائي

لقد جاء هذا الإجراء نتاجا للإجراءات السابقة، إذ إنه يركز على استعمال اللغة في التواصل القائم على الحوار والمحادثة والكلام التلقائي اليومي Spontaneous Speech، وتكون وظيفة المعلم في هذا الإجراء متابعة كلام المتعلم وتصحيحه مباشرة، فإذا حقق نتائج سليمة بنسبة ٨٠ %- ٩٠% يكون قد حقق المراد[٦٣]. وللمعلم في هذا الإجراء العديد من التقنيات والأنشطة نحو: التحدث عن الخطط المستقبلية، ومحاولة الحصول على معلومات[٦٤]، والحديث عن التجارب الشخصية[٦٥]، وعمل حوار غير رسمي...ألخ [٦٦].

التقنية الثانية: التعميم الموقفي

يقصد بهذا خروج المتعلم من الدائرة الضيقة التي كان يدور في فلكها، ويصير في دائرة أكثر اتساعا. وبعبارة أخرى: ينبغي على المتعلم أن ينفك من التعلم والتعليم داخل الغرفة التعليمية، ويخرج خارجها، وللوصول إلى ذلك لا بد من تطبيق أمرين: أولهما: تعميم استخدام إنتاج الصوت السليم في بيئات تكون أكثر حياتية من الغرفة التعليمية كالبيت والأسواق والملاعب [٦٧]. ثانيهما: تعميم شريحة الأشخاص الذين يتحدث معهم المتعلم، ويفضل هنا أن تختار هذه الفئة بعناية دقيقة [٦٨]. ويقع في هذه المرحلة جهد عظيم على كاهل المعلم والمتعلم، فالمعلم يجب أن يتابع المتعلم أثناء تعليمه في المعهد أو خارج المعهد [٦٩]، والمتعلم يجب أن يراقب نطقه في جميع المواقف[٧٠].

المرحلة الثالثة: الإدامة

إن هذه المرحلة هي آخر مراحل العلاج الصوتي للصوت المستهدف، ففي أول مرحلتين خاض المتعلم برنامجا علاجيا لإنتاج الصوت، وعلى هذا فالمتعلم أصبح ينتجه إنتاجا سليما، وتأتي هذه المرحلة لتمكين المتعلم من الاستمرار بإنتاج الصوت بالكفاية نفسها التي وصل إليها بمرحلة التعميم في المحادثة والكلام التلقائي. أي لا بد من فترة زمانية محددة يحددها المعلم يتابع فيها المتعلم كي يثبت أداؤه ولا يتراجع، ويصبح إنتاجه سلوكا نطقيا عفويا وأوتوماتيكيا يؤديه دون عناية[٧١]. ومن اللزام على المعلم في هذه المرحلة أن يسعى إلى تقليل عدد اللقاءات بينه وبين المتعلم بشكل تدريجي، حيث يقوم على إعداد خطة تكون في نسختين: نسخة للمعلم، ونسخة للمتعلم، وتطبق هذه الخطة بدقة متناهية.

الدراسات السابقة

تقسم الدراسات السابقة في هذه الدراسة قسمين: دراسات اختصت قضية الضاد في اللغة العربية، وأهمها[٧٢]:

الدراسة الأولى: "مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء" للدكتور رمضان عبد التواب: وقد تناول الباحث في دراسته الانحرافات النطقية الناتجة عن أبناء اللغة العربية أنفسهم في التراث العربي القديم وفي الوقت الحاضر، ثم عرج على المصادر التي قامت بإحصاء تراث الضاد والظاء.

الدراسة الثانية: "قضية الضاد في العربية" للدكتور غانم الحمد: لقد تناول الباحث في هذه الدراسة قضية الضاد في مبحثين: المبحث الأول: قضية الضاد في التراث العربي القديم. والمبحث الثاني: قضية الضاد في الوقت الحاضر، وقد تطرق فيهما إلى مخرج صوت الضاد وصفاته، وعلاقته بغيره من الأصوات، والانحرافات النطقية المصاحبة لنطقه، آراء علماء التجويد في مخرجه وصفاته.

الدراسة الثالثة: "الضاد بين الشفاهية والكتابية" للدكتور إبراهيم الشمسان: وقد قام البحث على عدة دعاوٍ، هي: تفرد الضاد بالعربية، ومخرج صوت الضاد، والمعاقبة بين الضاد والظاء، وتحول صوت الضاد إلى أصوات أخرى، ورسم الضاد.

وهناك الدراسات التي اختصت بعلاج الاضطرابات الصوتية والنطقية، ومن أهمها:

أولهما: دراسة باكسون وبيرن[٧٣] Bakson & Byrne، وقد اختبر فيها برنامج لغوي قائم على معالجة الاضطرابات الصوتية والنطقية، ومقارنتهم مع الأطفال العاديين، واستخدم الباحثان فيها أسلوب النمذجة ومحاكة اللغة المنطوقة من قبل الكبار، وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة في تصميم البرنامج العلاجي.

ثانيهما: دراسة ايفانس وجريي[٧٤] Evans & Gray، وقد هدفت إلى التعرف على قدرة الأطفال على نطق صوتي (S,I)، وتوصلت إلى أن الأطفال لا يمتلكون مهارة السيطرة على هذين الصوتين، وقد أفادت هذه الدراسة الباحث في تحديد بعض معالم البرامج العلاجية المناسبة لصوت الضاد.

وبالرغم من أهمية هذه الدراسات بشقها الأول من خلال الحديث عن الاضطرابات النطقية في صوت الضاد وخصائصه النطقية، وبشقها الثاني من خلال الحديث عن علاج الاضطرابات النطقية عند الأطفال إلا أنها لم تقدم برامج علاجية تعالج الاضطرابات النطقية التي تحدث عن نطق صوت الضاد، وهذا ما يضفي إلى هذه الدراسة الجدة والأصالة.

الطريقة والإجراءات

نتناول في هذا القسم ما يلي:

أولا: مجتمع الدراسة: أجريت الدراسة على مجتمع يشمل المتعلمين الناطقين بالعربية في (مدرسة الأمير هاشم و مركز الفرقان) والمتعلمين الناطقين بغير العربية في (مركز اللغات / الجامعة الأردنية).

ثانيا: عينة الدراسة: تتكون من (٣٦) متعلما، اختيروا بشكل عشوائي، وقد انقسموا إلى قسمين: مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة بالتساوي.

ثالثا: أدوات الدراسة: وللإجابة عن أسئلة الدراسة حول فاعلية البرنامج العلاجي المقترح في تحسين نطق صوت الضاد، عدت الأداة الآتية:

الاختبار التحصيلي: يهدف هذا الاختبار إلى قياس تحصيل المتعلمين في نطق صوت الضاد، والكشف عن اضطراب نطقه.

- وصف الاختبار: يتكون هذا الاختبار من ٣٠ كلمة[٧٥] تتضمن صوت الضاد في مواقع الكلمة الثلاث (البداية والوسط والنهاية). وقد طلب من كل متعلم أن ينطق الكلمات كلها، ووزعت العلامات حسب عدد الاستجابات المطلوبة من المتعلم. وقد بني الاختبار لقياس مدى تحقيق المتعلمين نطق صوت الضاد منعزلا، ونطقه في مقطع صوتي قصير و طويل، ونطقه في كلمة سواء في بدايتها أو وسطها أو نهايتها، ونطقه في جملة.
- صدق الاختبار: استند الباحث في صياغة اختباره على اختبارات سبق صياغتها عند الباحثين الأجانب والعرب، وهذا دليل على صدق محتوى الاختبار[٧٦]. ثم عرض الاختبار على عدد من المختصين في هذا المجال في الجامعة الأردنية، وجامعة البلقاء، والجامعة الألمانية الأردنية لتقييمه، وقد أخذ بملاحظاتهم وأجرى التعديل اللازم.
- معامل ثبات الاختبار: لقد حسب معامل الثبات عن طريق إعادة تطبيق الاختبار بفاصل زمني قدره عشرة أيام، وطبق الاختبار على عشرة متعلمين من الذين يضطربون في نطق الضاد من غير أفراد الدراسة [٧٧]، وقد أعيد الاختبار، ثم استخرجت معاملات الارتباط ومستوى دلالتها للاختبار، وقد بلغ معامل الارتباط (٠,٨٤٥)، وهذا المعامل ذو دلالة إحصائية عند مستوى (٠,٠١).
- تصحيح الاختبار: بعد أن قسم الاختبار إلى ثلاثين فقرة، وزعت العلامات بواقع علامة واحدة لكل فقرة، ثم جمعت علامات الفقرات الثلاثين للحصول على العلامة الكلية من المجموع البالغ (٣٠) على الاختبار.

رابعا: البرنامج العلاجي

يقوم هذا البرامج العلاجي المقترح على نقاط الضعف لدى المتعلمين ومواطنها ثم يعمل على علاجها.

أسس بناء البرنامج ومصدره

- الاعتماد على الأساس النظري الخاص لمنجزات اختصاصيي اللغة والنطق الأجانب في علاج الاضطرابات النطقية.
- الاستفادة من الدراسات و الأبحاث العلمية التي تحدثت عن طرائق تعليم اللغات وهي: (المباشرة، والسمعية" الشفوية"، والتواصلية).
- الاطلاع على بعض الدراسات التي أنشأت اختبارات النطق التي تكشف الاضطرابات النطقية.

أهداف البرنامج

تحدد الهدف العام للبرنامج الحالي في تحسين المهارات النطقية لدى المتعلمين الناطقين باللغة العربية والناطقين بغيرها لكي ينطق صوت الضاد نطقا فصيحا.

الافتراضات التي يقوم عليها البرنامج

أولا: إن الأشخاص يمتلكون قدرات نطقية بنسب متفاوتة.

ثانيا: إن المتعلمين يختلفون في قدراتهم و ميولاتهم، وأن على المعلم أن يقدم المنهج أو المحتوى الدراسي بقوالب تتناسب مع هذه القدرات والميولات.

المدة الزمنية لتطبيق البرنامج

يتكون البرنامج من (١٦) لقاء، مدة كل لقاء ساعة واحدة، وخُصص أول لقاء تمهيدا لتطبيق البرنامج من خلال تهيئة المتعلمين وشرح البرنامج لهم وآلية التدريس فيه كما هو في الجدول (١).

الجدول ١

البناء الزمني للبرنامج العلاجي

المرحلة	التقنية / الإجراء	الجلسة
التمهيد	التعريف بالبرنامج	١
التأسيس	المحاكاة والتمثيل	٢
	التموضع النطقي	٢
	المقاربة التدريجية	١
التعميم	التعميم اللغوي	٤
	التعميم الموقفي	٢
الإدامة	خطة الإدامة	٤
المجموع		١٦ لقاء

تقويم البرنامج

بعد بناء البرنامج العلاجي عرض على مجموعه من المحكمين المتخصصين بموضوع الدراسة من تخصص الصوتيات واللغة والنطق؛ لتقويم البرنامج من حيث: مدى استناد البرنامج التعليمي إلى منجزات أخصائي اللغة والنطق، ومدى مناسبة التسلسل الوارد في البرنامج ووضوحه وتنظيمه. ومدى تحقيق البرنامج للأهداف التعليمية المنشودة. ومدى مناسبة المدة الزمنية لتطبيق البرنامج و توزيعها على الجلسات. ومدى سهولة المقاطع والكلمات والجمل على المتعلمين. وقد أورد المحكمون ملاحظات اختصت بالتدريبات العلاجية ونوعية بعض الكلمات والجمل، وقد أخذ الباحث بتلكم الملاحظات وعدل البرنامج بناءً عليها.

خامسا: إجراءات الدراسة

١- حُصِل على الموافقات الرسمية من مدرسة الأمير هاشم ومركز الفرقان ومركز اللغات في الجامعة الأردنية.

٢- حُددت عينة الدراسة المكونة من ٣٠ متعلما، ثم وزعوا بطريقة عشوائية إلى المجموعتين.

٣- الالتقاء مع أفراد المجموعتين وتطبيق الاختبار التحصيلي القبلي في نطق صوت الضاد.

٤- الحصول على نتائج المتعلمين في كلتا المجموعتين.

٥- الالتقاء مع أفراد المجموعة التجريبية وتوضيح البرنامج العلاجي وأهميته وأهدافه ومدته الزمنية.

٦- البدء بتطبيق البرنامج العلاجي على المجموعة التجريبية، وذلك خلال الفترة الواقعة بين (٥-١٠-٢٠١٢ إلى ٥-١-٢٠١٣) كما هو في الجدول (١).

٧- الحرص على تدريب المجموعة الضابطة من قبل المعلمين أنفسهم بالأسلوب المعتاد وفق جدول زمني.

٨- في نهاية التطبيق طبق الاختبار التحصيلي على أفراد المجموعتين التجريبية والضابطة.

٩- إجراء التحليلات الإحصائية المناسبة، وتفسير نتائجها في ضوء أسئلة الدراسة.

سادسا: التصميم و المعالجة الإحصائية

للإجابة عن أسئلة الدراسة في التعرف على أثر البرنامج العلاجي في تحسن مستوى المتعلم في نطق صوت الضاد كانت متغيرات الدراسة هي:

متغيرات الدراسة

المتغير المستقل: هو برنامج علاجي للمضطربين نطقيا في صوت الضاد لتحسين نطقهم. والمتغير التابع: نطق صوت الضاد.

التصميم الإحصائي

تعد هذه الدراسة من الدراسات شبة التجريبية لمجموعتين باختبار قبلي و آخر بعدي، وذلك وفق النموذج التالي: التجريبية التي تعرضت للبرنامج (O × O) والضابطة التي لم تتعرض للبرنامج (O× O).

وقد استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لأداء أفراد المجموعتين التجريبية و الضابطة على الاختبارات التحصيلية، و للتأكد من مدى دلالة الفروق إحصائيا استخدم الباحث اختبار (t-test).

نتائج الدراسة ومناقشها

لقد هدفت هذه الدراسة إلى تطوير برنامج علاجي لمشكلة نطق صوت الضاد، واختبار أثره في تحسين المهارات النطقية عند فئات الدراسة الثلاث، وبالتحديد حاولت الدراسة الإجابة عن السؤالين الآتيين:

أولهما: ما أثر برنامج علاجي في تحسين نطق الضاد لدى المتعلمين من أبناء العربية ومن الناطقين بغيرها؟

ثانيهما: هل تختلف متوسطات درجات المتعلمين المشاركين في البرنامج العلاجي باختلاف الفئة التي ينتمون إليها؟

أولا: نتائج السؤال الأول

للإجابة عن هذا السؤال استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لعلامات المتعلمين على الاختبار التحصيلي القبلي والبعدي للمجموعتين الضابطة والتجريبية، وأجري تحليل إحصائي اختبار (t- test)، والجدول (٢) يظهر المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للاختبار القبلي ونتائج اختبار (t- test).

الجدول ٢

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للاختبار القبلي لكلتا المجموعتين ونتيجة اختبار (t- test)

المجموعة	حجم العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (t)	درجة الحرية	مستوى الدلالة
الضابطة	١٨	١,٨٣	٢	-٠,٣٠١	١٨	٠,٧٦٧
تجريبية	١٨	١,٧٢	١,٩٦			

ويتضح من خلال نتائج اختبار (t-test) في الجدول(٢) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($\alpha \leq 0.05$)، فقد بلغت قيمة (0.301-) (t)، وهذا ما يؤكده التقارب الواضح بين متوسطات أداء المتعلمين في المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة، حيث بلغ المتوسط الحسابي للمجموعة التجريبية في الاختبار القبلي (١,٧)، بينما بلغ المتوسط للمجموعة الضابطة في الاختبار القبلي (١,٨).

وأما الجدول (٣) فيظهر المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للاختبار التحصيلي البعدي لكلتا المجموعتين ونتائج اختبار (t- test).

الجدول ٣

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للاختبار البعدي لكلتا المجموعتين ونتيجة اختبار(t- test)

المجموعة	حجم العينة	المتوسط الحسابى	الانحراف المعيارى	قيمة (t)	درجة الحرية	مستوى الدلالة
الضابطة	١٨	٣,٨	٢,٢٣	٢٠,٢٠١	١٧	٠,٠٠
تجريبية	١٨	١٨,٣٣	٤,٥٦			

ويتضح من خلال اختبار(t-test) في الجدول(٣) وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($\alpha \leq 0.05$) تعزى للبرنامج التعليمي، فقد بلغت قيمة (t) (20.201)، وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($\alpha \leq 0.05$)، وهذا يعني أن البرنامج التعليمي المقترح كان له أثر في علاج الاضطرابات النطقية في صوت الضاد لدى أفراد المجموعة التجريبية بشكل ملحوظ، وهذا ما تؤكده الفروق الواضحة بين متوسطات أداء المتعلمين في المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية حيث بلغ المتوسط الحسابي للمجموعة التجريبية في الاختبار القبلي (١,٧) ثم ارتفع في الاختبار البعدي إلى (١٨) بينما بلغ المتوسط للمجموعة الضابطة في الاختبار القبلي (١,٨) ثم ارتفع في الاختبار البعدي إلى (٣) كما تظهره المتوسطات الحسابية في الجدول (٢،٣).

ثانيا: نتائج السؤال الثاني

وللإجابة عن هذا السؤال استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لعلامات المتعلمين وفق الفئات الثلاث (متعلمي المدرسة ومتعلمي المركز القرآني ومتعلمي مركز اللغات) في المجموعة التجريبية، والجدول (٤) يظهر تلك المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية.

الجدول ٤

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية في الاختبار التحصيلي البعدي للمجموعة التجريبية في الفئات الثلاث (متعلمي المدرسة ومتعلمي المركز القرآني ومتعلمي مركز اللغات)

الفئة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	العدد
متعلمو المدرسة	١٦,٦٦	٢,١٦	٦
متعلمو المركز القرآني	٢٣,٨٣	٢,٢٢	٦

الفئة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	العدد
متعلمو مركز اللغات	١٤,٥	١,٣٧	٦
الكلي	١٨,٣٣	٤,٥٦	١٨

ويتبين من الجدول (٤) وجود فروق في المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية بسبب اختلاف الفئات الثلاث، فظهر أن متعلمي المركز القرآني يتحسنون بشكل ملحوظ نتيجة قراءتهم للنص المقدس الذي يتوجب عليهم قراءته بالشكل السوي، فقد ازدادت نتائجهم بـ (١٩,٦٧) علامة، وبعد ذلك جاء متعلمو المدرسة حيث ازدادت نتائجهم بـ (١٥,٦٦) علامة، ثم متعلمو مركز اللغات حيث ازدادت نتائجهم بـ(١٤,٥) علامة.

مناقشة نتائج السؤال الأول

في ضوء النتائج التي عُرضت، فقد أظهر اختبار(t-test) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ($\alpha \leq 0.05$) في المتوسطات الحسابية للمجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار القبلي، وقد أظهر وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ($\alpha \leq 0.05$) في المتوسطات الحسابية للمجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار البعدي لصالح أفراد المجموعة التجريبية الذين تعلموا نطق صوت الضاد وفق البرنامج العلاجي مقارنة بأفراد المجموعة الضابطة الذين تعلموا نطقه وفق الطريقة التقليدية؛ تمثلت في تحسن أداء المتعلمين في الاختبار التحصيلي البعدي، مما يشير إلى أن البرنامج العلاجي كان فعّالاً في تحسين نطق صوت الضاد لدى متعلمي المجموعة التجريبية، وهذا يدل على أن أهداف البرنامج قد تحققت و أن الاضطرابات النطقية التي صُمم البرنامج العلاجي لمعالجتها قد حدّ منها.

مناقشة نتائج السؤال الثاني

في ضوء النتائج التي عرضت، فقد أظهرت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية المتعلقة بأفراد الفئات الثلاث في المجموعة التجريبية التي خضعت للبرنامج العلاجي فروقا ذات دلالة إحصائية، فقد ظهر تفوق متعلمي المركز القرآني على متعلمي المدرسة ومتعلمي مركز اللغات، وظهر تفوق متعلمي المدرسة على متعلمي مركز اللغات، مع أن هذا لا ينفي التحسن الملموس في أداء طلبة مركز اللغات، وبناء على ذلك فإن هذا البرنامج العلاجي يصلح للمستويات الثلاثة.

التوصيات

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة، فإن الباحث يوصي:

أولا: تفعيل هذا البرنامج في المدارس الحكومية ومراكز تحفيظ القرآن ومراكز اللغات.

ثانيا: عقد الدروات التدريبية للمعلمين على هذا البرنامج كي نصل إلى أفضل النتائج.

ثالثا: إعداد برامج تدريبية أخرى للأصوات المضطربة نطقيا في العربية.

الملاحق

البرنامج العلاجي المقترح

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس

التقنية الأولى: المحاكاة والتمثيل

الطريقة الأولى: علاج الصوت منعزلا

- يطلب المعلم من المتعلم الاستماع إلى صوت الضاد منفردا مع نبر صوتي مرتفع كما هو في جدول (٥).
- يطلب المعلم من المتعلم أن يتصور صوت الضاد ذهنيا كما مثل أمامه من إنتاج حركي.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يعيد إنتاج صوت الضاد ثم يقيم الإنتاج.
- يقوم المعلم بتدريب المتعلم على الاستماع الذاتي، وفيه يتدرب على نطق الضاد نطقا صحيحا والاستماع لنفسه ومحاولة التمييز بين الصوت الخطأ والصحيح.
- يقوم المعلم بتقييم الأداء الصوتي للضاد، فإذا كانت النتيجة إيجابية يكون المعلم وقتئذ حقق خطوة مهمة في التأسيس، وإن كانت غير ذلك، فيكون المعلم حقق زيادة في وعي المتعلم لهذا الصوت.

الجدول ٥

صوت الضاد منعزلا

ضِ	ضَ	ضُ

الطريقة الثانية: علاج الصوت في مقاطع صوتية

- يقوم المعلم بنطق مقاطع صوتية قصيرة تتضمن صوت الضاد في بداية المقطع ووسطه وآخره، ثم يطلب من المتعلم إعادة نطقها، وبعدها يقوم المعلم بتقييم نطق المتعلم.

- يقوم المعلم بنطق مقاطع صوتية طويلة تتضمن صوت الضاد في أول المقطع ووسطه وآخره، ثم يطلب من المتعلم إعادة نطقها، وبعدها يقوم المعلم بتقييم نطق المتعلم.
- يطرح المعلم مجموعة من أزواج الكلمات التي تتضمن صوت الضاد، ويطلب من المتعلم أن يرفع يده عند سماع الكلمة التي يوجد فيها صوت الضاد تدريبا على التمييز السمعي. مع الاستفادة من الجدول (٦، ٧).

التقنية الثانية: التموضع النطقي

أولا: يعرض المعلم الصور التوضيحية التي تبين مخرج صوت الضاد ثم يوضح كيفية حدوثه:

صور توضيحية لصوت الضاد الحديثة

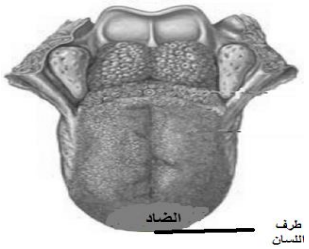

الشكل١

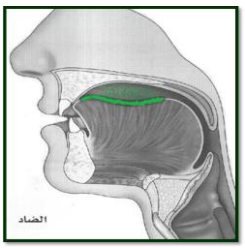

الشكل٢

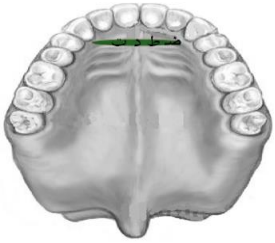

الشكل ٣

يطلب المعلم من المتعلم أن يحدد طرف اللسان و أصول الثنايا العليا مستعينا بـ (الشكل٢) و (الشكل ٣)، ثم يطلب منه إلصاق طرف اللسان على أصول الثنايا بحيث يمنع مرور الهواء الخارج من الرئتين، ويكرر ذلك حتى يكتسب طرف اللسان شيئا من الليونة والمرونة في الحركة (الشكل ١)، ومن الممكن أن يعزز المعلم احساس المتعلم بالمخرج السابق باستعمال حاسة اللمس touch cue أو بالإحساس الحركي motor – Kinesthetic من خلال إغماض العين وتركيز الإحساس في تلمس

طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، أو قد يستخدم اليدين أو خافض اللسان ليشير إلى موضع المخرج.

- يطلب المعلم من المتعلم أن يحدد اللهاة والجزء الخلفي من سقف الحلق و مؤخرة اللسان (الشكل ١) ثم يطلب منه رفع اللهاة والجزء الخلفي من سقف الحلق؛ ليسد التجويف الأنفي ثم يرفع مؤخرة اللسان نحو الطبق مع انتشار حافتي اللسان إلى صفحة الأضراس من الداخل ثم يطلب منه أن يحرر تلك المناطق (الرفع والالتصاق) لينقشع هذا الانسداد ويندفع الهواء المحبوس إلى الخارج.

ثانيا: يطلب المعلم من المتعلم أن ينطق صوت الضاد كما وضح له سابقا، فإذا كانت النتيجة إيجابية، فيطلب منه تكرار ذلك، ليعتاد لسانه على ذاك النطق، وإذا كانت النتيجة سلبية، فينبغي على المتعلم أن يحدد الصوت الذي انحرف عنه المتعلم أثناء نطقه لصوت الضاد. ثم يبين الفرق بين صوت الضاد وذاك الصوت المُحرَّف بالرسومات والشرح على النحو الآتي:

انحراف صوت الضاد إلى صوت الظاء (بيضة: بيظة)

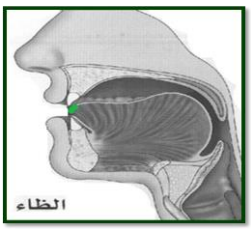

الشكل٤

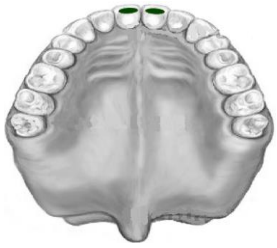

الشكل ٥

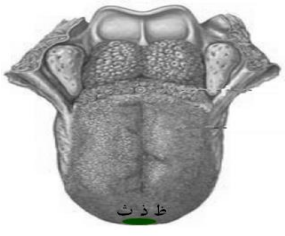

الشكل ٦

- يطلب المعلم من المتعلم أن يتبين التشابه بين (الشكل٢) و (الشكل٦)، ويتبين الفرق بين (الشكل٣) و (الشكل٥)، ويقوم باستشعار ذلك بلسانه. ثم يقوم المعلم

باستخدام خافض اللسان ليبين له الفرق بينهما، وبعدها يطلب من النطق في كلتا الحالتين ليبين ذاك الفرق، مستعينا بالجدول (٦).

- يطلب المعلم من المتعلم أن يرى طرف اللسان في (الشكل١) وفي (الشكل٤) ويوضح له أن اللسان في الشكل الثاني (الضاد) لا يتجاوز منطقة التقاء اللحم بأصول الثنايا العليا بسبب استدارة الشفتين للتفخيم، وفي الشكل الثاني يتجاوز اللسان بمقدار قليل أطراف الثنايا العليا وذلك لانفراج الشفتين. وبعد ذلك يطلب منه النطق فإذا رأى المعلم أن طرف اللسان يلامس أطراف الثنايا، فيطلب منه أن يخفض طرف اللسان إلى أصول الثنايا، ومن الممكن هنا استخدام الأصابع أو خافض اللسان؛ ليتبين الفرق بين طرف الثنايا وأصولها.

انحراف صوت الضاد إلى صوت الدال (الضحك: الدحك)

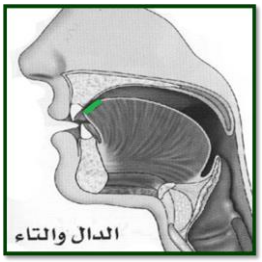

الشكل٧

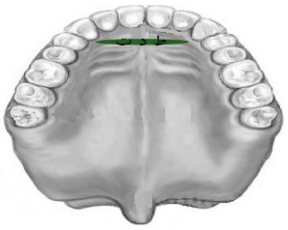

الشكل ٨

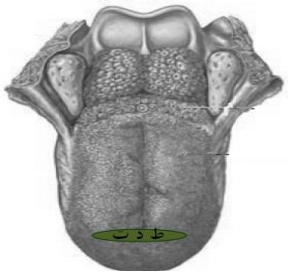

الشكل٩

- يطلب المعلم من المتعلم أن يتبين التشابه بين (الشكل٢) و (الشكل٩)، وبين (الشكل٣) و (الشكل٨)، ويقوم باستشعار ذلك بلسانه. وقد يقوم المعلم باستخدام خافض اللسان ليبين له التشابه بينهما.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يشاهد أقصى (نهاية) اللسان المرتفعة عند نطق الضاد (الشكل١) ويقارن ذلك في (الشكل ٧) الذي يبين انخفاض أقصى اللسان عند نطق الدال، مستعينا بالجدول (٦).

- يطلب المعلم من المتعلم أن ينطق صوت الدال ثم يقوم المعلم بالطلب منه أن يفخم الدال باستدارة الشفتين، ورفع مؤخرة اللسان وانتشار حافتيه إلى صفحة الأضراس من الداخل، وينطق من جديد؛ لينتج صوت الضاد، ويكرر هذه العملية أكثر من مرة ليتصور الفرق في مخرج كلا الصوتين.

انحراف صوت الضاد إلى صوت اللام (الضالين: اللالين)

الشكل ١٠

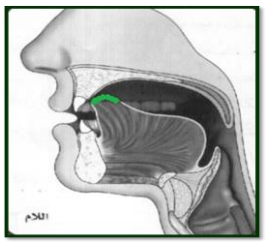

الشكل ١١

الشكل ١٢

- يطلب المعلم من المتعلم أن يتبين الفرق بين (الشكل٢) و (الشكل١٢)، وبين (الشكل١) و (الشكل١٠)، بالحديث عن طرف اللسان المستهدف في صوت الضاد و أدنى حافة اللسان إلى منتهاه في صوت اللام، والحديث عن الأسنان المستهدفة (أصول الثنايا: الضاد) و(الضاحك والناب والرباعية والثنية: اللام) ويقوم باستشعار ذلك بلسانه. ثم يقوم المعلم باستخدام خافض اللسان ليبين له الفرق بينهما.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يشاهد أقصى (مؤخرة) اللسان المرتفعة عند نطق الضاد (الشكل١) ويقارن ذلك في (الشكل ١١) الذي يبين انخفاض مؤخرة اللسان عند نطق اللام.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يحدد أدنى حافتي اللسان إلى منتهى طرفه ويضغط على الضاحك والناب والرباعية والثنية منتجا صوت (اللام)، ثم يطلب منه أن يلصق طرف اللسان ويضغط به على أصول الثنايا العليا مع رفع لمؤخرة اللسان مع

انتشار حافتيه إلى صفحة الأضراس من الداخل منتجا صوت (الضـاد) ثـم يكـرر هذه العملية أكثر من مرة ليتصور هذا الفرق.

الانحراف إلى صوت الزاي (الضابط: الزابط)

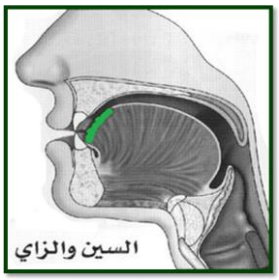

الشكل ١٣

الشكل ١٤

الشكل ١٥

- يطلب المعلم من المتعلم أن يتبين الفرق بين (الشكل٣) و (الشـكل١٤) حيـث إن الفرق بينهما في استعمال أصول الثنايا العليا وأصول الثنايا السفلى، ويتبين التشابه بين (الشكل٤) و (الشكل١٥) إذ إن طرف اللسان هـو العضـو المنـتج للصـوتين، وأن يقوم باستشعار ذلك بلسانه.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يشاهد وسط اللسان المنخفض عند نطق الضاد (الشكل١) ويقارن ذلك في (الشكل ١٣) الذي يبين ارتفاع وسط اللسان عند نطق الزاي.
- يطلب المعلم من المتعلم أن يحدد طرف اللسان ويضغط على أصول الثنايا السفلية منتجا صوت (الزاي)، ثم يطلب منه أن يلصق طرف اللسان بأصول الثنايا العليـا مع الضغط به عليها مع استدارة في الشفتين، ورفع لنهاية اللسان مع انتشار حافتيه إلى صفحة الأضراس من الداخل منتجا صوت (الضاد) ثم يكرر هذه العملية أكثر من مرة ليتصور هذا الفرق.

ثالثا: يقدم المعلم للمتعلم بعض التدريبات التي تسهم في ترسيخ ما تم تداوله، وفق الجدول (٦):

الجدول ٦

ثنائيات تتضمن صوت الضاد والصوت الآخر القريب منه

التمييز بين الضاد والدال		التميز بين الضاد والظاء	
يضفي	يدفي	ظن	ضن
وضيع	وديع	ظراب	ضراب
رضوض	ردود	حظ	حض
ضروس	دروس	ظل	ضل

التقنية الثالثة: المقاربة التدريجية

يقوم المعلم بوضع الأصوات (الدال، التاء، الظاء، اللام، الزاي) في بداية المقطع الصوتي ثم يتبعها بصائت قصير ثم يتبعها بالضاد كما هو في الجدول (٧):

الجدول ٧

مقاطع صوتية تتضمن صوت الضاد والصوت المقارب له

دِض	تِض	ظِض	لِض	زِض

ثم يقوم المتعلم بإنتاج صوت الضاد عن طريق المقاربة التدريجية – على سبيل المثال- من صوت الدال: فيطلب من المتعلم نطق (الدال). ثم يطلب منه النطق مع استدارة للشفتين ورفع لمؤخرة اللسان ودفع جذره إلى الجدار الخلفي للحلق وانتشار حافتيه إلى صفحة الأضراس من الداخل. ثم يطلب منه أن يكرر هذه العملية عدة مرات.

المرحلة الثانية: مرحلة التعميم

التقنية الأولى: التعميم اللغوي

الإجراء الأول: تعميم المقطع: يطلب المعلم من المتعلم التدرب على المقاطع التي في الجدول (٨).

الجدول ٨

مقاطع صوتية مقترحة لمرحلة التعميم

نوع المقطع	الأمثلة
مقطع منتهٍ بصوت الضاد متبوع بصائت قصير أو طويل	يض- اض- وض
مقطع منتهٍ بصوت الضاد مسبوق بصامت قريب منه في الموضع النطقي	تِض- تَض- تُض- تيض- تاض – توض
مقطع منتهٍ بصوت الضاد مسبوق بصوامت بعيدة عنه في الموضع النطقي	هِض- هَض – هُض – هيض – هاض
مقطع مبتدئ بصوت الضاد متبوع بصائت قصير وطويل	ضِ- ضَ- ضُ- ضي- ضا – ضو
مقطع مبتدئ بصوت الضاد متبوع بصامت قريب منه في الموضع النطقي	ضِل- ضَل- ضُل- ضيل- ضال
مقطع مبتدئ بصوت الضاد متبوع بصامت بعيد عنه في الموضع النطقي	ضِف – ضَف – ضُف – ضيف – ضاف

الإجراء الثاني: تعميم الكلمة: يطلب المعلم من المتعلم نطق الكلمات التي في الجدول (٩):

الجدول٩

كلمات مقترحة لمرحلة التعميم

الضاد في أول الكلمة ذات المقطع الواحد	الضاد في أول الكلمة ذات المقطعين	الضاد في أول الكلمة ذات الثلاثة مقاطع	الضاد في آخر الكلمة ذات المقطع	الضاد في آخر الكلمة ذات المقطعين	الضاد في آخر المقطع ذي الثلاثة مقاطع
ضَبْ	ضيزى	ضئيلٌ	رضْ	أرْضٌ	بَاغِض
ضُرْ	ضَائعْ	ضَرَبَ	عضْ	بَعْضٌ	مُنْدَحِض
الضاد في وسط الكلمة	الضاد المشددة في وسط الكلمة	الضاد المشددة في آخر الكلمة	تكرار ورود الضاد أكثر من مرة في الكلمة	الضاد بوجود أصوات ذات موضع إنتاجي واحد(ل)	الضاد بوجود أصوات ذات موضع إنتاجي قريب(ز،د)
حَضَارَة	حصّر	بَضّ	ضَأضَأ	أضْدِاد	ضِدّ
احتَضَرَ	خَضّب	حَضّ	تَخِضْخَضَ	ضِدّ	ضِيزَى

الإجراء الثالث: تعميم الجملة: يطلب المعلم من المتعلم نطق الكلمات التي في الجدول (١٠):

جدول ١٠

جمل مقترحة لمرحلة التعميم

نوع الجملة	المثال
جملة قصيرة تحتوي على الضاد	حَضَرَ الطبيب إلى البيت.
جملة متوسطة تحتوي على الضاد	لم يدرس خالد كثيرا؛ فَحَضّهُ والده على الدراسة.
جملة طويلة تحتوي على الضاد	دخل والد صالح المستشفى، وبعد المعاينة الحثيثة، تبين أنه يَحْتَضِرُ بسبب السرطان.
جملة متوسطة فيها كلمتان تتضمنان الضاد	حَضَرَ الطبيب إلى البيت؛ لأن الطفل مَريضٌ.

نوع الجملة	المثال
جملة طويلة فيها ثلاث كلمات تتضمن الضاد	حَضَرَ الطبيب إلى البيت؛ لأن الطفل مَريضٌ، فوجد أنه يَحْتَضِرُ.
جملة تتضمن كلمة آخرها الضاد وما بعدها صوت آخر بعيد المخرج عن الضاد	حضَّ المعلم الطالب على النطق.
جملة تتضمن كلمة آخرها صوت الضاد وما بعدها صوت آخر قريب المخرج عن الضاد	اندِحَاضُ ظَالم أمر يسرّ الطيبين.
جملة تتضمن كلمة آخرها الضاد وما بعدها الضاد	اندِحَضَ ضيق الأفق سريعا.

الإجراء الرابع: تعميم المحادثة والكلام التلقائي: يقوم المعلم في هذا الإجراء بالعديد من التقنيات والأنشطة نحو: لعب الأدوار، والتحدث عن الخطط المستقبلية، ومحاولة الحصول على معلومات' والمقابلات...

التقنية الثانية: التعميم الموقفي

يطلب المعلم من المتعلم تعميم استخدام إنتاج الصوت السليم في بيئات تكون أكثر حياتية من الغرفة التعليمية كالبيت والأسواق والملاعب، ثم يطلب منه تعميم شريحة الأشخاص الذين يتحدث معهم المتعلم.

المرحلة الثالثة: الإدامة

يتفق المعلم مع المتعلم على خطة تتضمن اللقاءات المستقبلية كما في الجدول (١١):

الجدول ١١

خطة لإدامة إنتاج صوت الضاد

الموعد	وسيلة التواصل	النشاط المستهدف
لقاء في الأسبوع الأول من الشهر الأول	اللقاء المباشر	طرح مجموعة من الأسئلة التي تتضمن إجابتها كلمات مكونة من صوت الضاد
لقاء في الأسبوع الثالث من الشهر الأول	الاتصال الهاتفي	سرد بعض الشؤون الحياتية
لقاء في الأسبوع الأول من الشهر الثاني	الاتصال عبر Skype	إعطاء المتعلم العديد من الجمل مكتوبة والطلب منه أن يقرأها.
لقاء في الأسبوع الثالث من الشهر الثاني	اللقاء المباشر	الاجتماع مع أكثر من متعلم في مكان واحد وعمل جلسة عصف ذهني لما تم مداولته

الهوامش والتعليقات:

(1) Chung,(2005) Ten Core Themes In Pronunciation Teaching, PTLC.p1.

(٢) برجشتراسر (١٩٩٤)، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مصر، مكتبة الخانجي، ص١٨.

(٣) الفرق بين مخرج الضاد والظاء: التاذفي، محمد الحلبي(٩٧١هـ)، الفوائد السرية في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق: ساهرة حمادة، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، ٢٠٠٧، ص١٢١.

(٤) انظر آراء العلماء في دعوى تفرد العربية بالضاد: الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، ج١، ص٥٣. والرازي، أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط١،تحقيق: محمد بيضون، ١٩٩٧م، ج١، ص٦٣. والخفاجي، أبو محمد عبد الله (٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٢م، ص٥٦. وإسرائيل ولفنسون (١٩٢٩)، تاريخ اللغات السامية، ط١، مطبعة الاعتماد، ص٢٠. و ظاظا، حسن (١٩٧١)، كلام العرب: من قضايا اللغة العربية، الإسكندرية، مطبعة المصري، ص٢٩. وسلوى ناظم، دراسات لغوية مقارنة، دون بيانات نشر، ص ١٦٢-١٦٥.والسحيمي، سليمان (١٩٩٥)، إبدال الحروف في اللهجات العربية، المدينة المنورة، دار الغرباء، ص٤٣٨-٤٣٩. والعجمي، فالح (١٩٩٣)، التطور الصوتي التاريخي في اللغات السامية، مجلة العصور، مج٨، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

(٥) بروكلمان، كارل (١٩٧٧)، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، الرياض، ص٥٠. انظر مثل هذه الآراء: برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص١٩. وانظر: لبنسكي، إدوارد (١٩٩٧)، نقش الجص الآرامي من دير علا، جامعة اليرموك، ص ١٤٠. عبابنة، يحيى(٢٠٠٣)، اللغة الكنعانية: دراسة صوتية صرفية دلالية، عمان، دار مجدلاوي، ص ١٣٨.

الزعبي، آمنة(٢٠٠٨)، التغير التاريخي للأصوات في العربية واللغات السامية، اربد، دار الكتاب العربي، ص١٤٨.

(٦) الجاحظ، عمرو بن بحر، (٢٥٥هـ)البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ، ج٢،ص١٤٦. انظر أيضا: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، ط٤، بيروت، دار الآفاق، ١٩٨٢، ص١١٢.

(٧) ابن الجزري، محمد بن محمد (٨٣٣هـ)، النشر في القراءات العشر، مصر، المكتبة التجارية، ج١، ص٢١٩.ج١، ص٢٠٠. وانظر: الأنصاري، زكريا (٩٢٦هـ)، الدقائق المحكمة في شرح المقدمة، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٠، ص٢٨. وابن الناظم، أحمد بن محمد (٨٣٥هـ)، الحواشي المفهمة في شرح المقدمة، تحقيق: عمر معصراتي، دمشق، ٢٠٠٦، ص٥٦.

(٨) عبد الواحد وافي (١٩٦٧)، علم اللغة، ط٦،القاهرة، دار النهضة، ص ٢٨٤.

(٩) انظر: الحمد، غانم، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، بغداد، وزارة الأوقاف، ص ٣٨-٣٩. انظر العلماء الذين قاموا بوصف الخصائص: القاري، ملا علي (١٠١٤هـ)، المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق: أسامة عطايا، دمشق، دار الغوثاني، ٢٠٠٦، ص١٢. المرعشي، محمد بن أبي بكر (١١٥٠هـ)، جهد المقل، تحقيق: سالم الحمد، الأردن، دار عمار، ٢٠٠١، ص١٣٣.

(١٠) القيسي، مكي (٤٤٤هـ)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: أحمد فرحات، ١٩٧٣، ص ١٥٨. وانظر مثل هذه التوصيفات للخصائص النطقية: الصفاقسي، أبو الحسن (١١١٨هـ)، تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ، تحقيق: محمد الشاذلي، مؤسسات عبد الكريم، ص ٨٦. والداني، عثمان بن سعيد (٤٤٤هـ)، التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق: غانم الحمد، الأردن، دار عمار، ٢٠٠٠، ص ١٦٤.

(١١) ابن خلكان، أحمد بن إبراهيم (٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين، القاهرة، ١٩٤٨، ج٣، ص٤٣٣. وانظر أمثلة على ذلك: الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ج٣، ص٤٥٩. والصقلي، علي بن أبي الفرج (ت آخر ق٥)، كتاب في معرفة الضاد والظاء، تحقيق: صالح الضامن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص ٤٦. والمرزوقي، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني (٤٢١ هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م، ج١، ص٤٨٣. وعنبر، تغريد السيد (١٩٨٠)، دراسات صوتية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ج١، ص٥٩.

(١٢) ابن مالك، جمال الدين محمد(ت٦٧٢هـ)، الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، مقدمة المحقق، ص ٢-٨. الدكتور إبراهيم الشمسان، الضاد بين الشفاهية والكتابية، مجلة الخطاب الثقافي، العدد٢، خريف، ١٤٢٨هـ.

(١٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٦٩. وانظر عن القضية نفسها: الرازي، أبو الحاتم أحمد (٣٢٢هـ)، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقيق: حسين الهمذاني، القاهرة، ١٩٥٧، ج١، ص٦٥.

(١٤) السيرافي، الحسن بن عبد الله (ت٣٦٨هـ)، شرح كتاب سيبويه، القاهرة،١٩٩٠، ج٦، ص٤٩٩.

(١٥) إبراهيم أنيس (١٩٨١)، الأصوات اللغوية، ط٤،القاهرة، الأنجلو المصرية، ص٤٨. وانظر أيضا: الزبيدي، كاصد (٢٠٠٣)، دراسات نقدية في اللغة والنحو، عمان، دار أسامة، ص١٢٦.

(١٦) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص١٠.

(١٧) القول منقول من: رمضان عبد التواب (١٩٨٠)، المدخل إلى علم اللغة، القاهرة، الخانجي، ص٣١٧.

(١٨) الراجحي، عبده(١٩٨٦)، النحو العربي والدرس الحديث، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية، ص١١٦.

(١٩) انظر هذه القضية: لطفي، مصطفى(١٩٧٦) اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، بيروت، معهد الأنماء العربي.

(٢٠) انظر هذه القضية: الخصاونة، توفيق(٢٠٠٠)، المحتوى الثقافي في كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، رسالة ماجستير.

(٢١) انظر هذه القضية: العناتي، وليد (٢٠٠٣) اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، عمان، دار الجوهرة.

(٢٢) سيبويه، أبو بشر عمرو (148هـ - 180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٧٥، ج٤، ص ٤٣٣.

(٢٣) المبرد، أبو العباس محمد (٢١٠هـ -٢٨٦هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق، القاهرة، المجلس الأعلى، ١٩٦٣، ج١، ص١٩٣ وانظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥، ج١، ص٥٢.

(٢٤) سيبويه، الكتاب، ج٤، ص ٤٣٣.

(٢٥) انظر كلام رمضان عبد التواب، الأنباري، أبو البركات(٥١٣هـ -٥٧٧هـ)، زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء، تحقيق: رمضان عبد التواب، الرسالة، ١٩٧١، مقدمة المحقق، ج١، ص١٦.

(٢٦) ابن يعيش، موفق الدين(٥٥٣هـ- ٦٤٣هـ)، شرح المفصل، القاهرة، دار الطباعة المنيرية، ج١٠، ص١٢٧.

(٢٧)الحمد، غانم، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص٢٨٠.

(٢٨) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص١٠.

(٢٩) رمضان عبد التواب، مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، مجمع اللغة العربية، ص ٢١٤. وكانتينو، جان(١٩٦٦)، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة، صالح القرمادي، ص٧٨. وهنري فليش(١٩٦٩)، العربية الفصحى، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، ص٣٧. والحمد، غانم(٢٠٠٩)، الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، ط١، الدراسات القرآنية، ص ٣٥. وأبو بكر، يوسف الخليفة(١٩٧٢)، أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، ط١، الخرطوم، ص٦٩. والزبيدي، حسام(١٩٨٩)، أصوات العربية بين التحول والثبات، بغداد، بيت الحكمة، ص ٥٠. وكمال بشر(٢٠٠٠)، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٣٠) لقد استشير عدد من أهل الاختصاص بالصوتيات والتجويد واللغة والنطق، وقد أقر معظمهم بأهلية الضاد الحديثة.

(٣١) رمضان عبد التواب، مشكلة نطق الضاد، ص ٢١٦.

(٣٢) سورة البقرة،١٩٨.

(٣٣) ابن يعيش، شرح المفصل، ج١٠، ص١٣٣. والحمد، غانم (٢٠٠٢)، أبحاث في علم التجويد، ط١، عمان، دار عمار، ص١٦٥.

(٣٤) سورة الفاتحة،٧.

(٣٥) القرطبي، عبد الوهاب بن محمد، الموضح في التجويد، تحقيق: غانم الحمد، عمان، دار عمار، ٢٠٠٠، ص١١٤.

(36) Elgendy, A.M & Pols, L.C.W, Mechanical versus perceptual constraints as determinants of articulatory strategy, university of Amsterdam,Vol1.24. p. 57

(37) Elgendy, Mechanical Versus Perceptual Constraints as Determinants of Articulatory. p. 57

(38) Ali & Daniloff, R(1972). A contrastive Cinefluorographic Investigation of the Articulation of Emphatic –Non Emphatic Cognate Consonant. Studia Linguistica, Vol.26, 93. Laufer,Asher & Baer Thomas(1988), The Emphatic and Pharyngeal Sounds in Hebrew and in Arabic Language and Speech,Vol31.No2,p, 185.

(39) Laufer, Asher, The Emphatic and Pharyngeal Sounds Speech,p 185.

(٤٠) البريسم، قاسم (٢٠٠٥)، علم الأصوات العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، دار الكنوز العربية، ص ٨٣.

(41) Kara, Rawhia Ahmed(1975), The Problems Encountered by English Speakers In Learning Arabic University of California, Berkeley.ph.d,p 30-35 وانظر: الناقة، محمود كامل(١٩٨٥)، تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى أسسه – مداخله – طرق تدريسيه، ص ٦٠-٦٦.

(٤٢) بيرنثال، جون وبانكسون، نيكولاس، الاضطرابات النطقية والفونولوجية، ط١، ترجمة جهاد حمدان، ص ٤٣٥. Kara, Rawhia Ahmed, The Problems Encountered by English Speakers In Learning Arabic.p. 30-35، وانظر: الناقة، تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، ص ٦٠-٦٦.

(٤٣) لقد استشير بعض اختصاصيي اللغة والنطق والأطباء، ونصحوا باستعمال هذه الطريقة وما تتضمنه من آليات.

(44) Smit Ann,(2004) Articulation and phonology Resource Guide For School – Age children and Adults, Delmar Learning a division of Thomson Learning, New York, p 31.

(45) Gravel j & Ogra,j,(2003) Communication Option for Children with haring loss, Mental Retardation & Developmental Disabilities Research Reviews. صيني، محمود، دراسة في طرائق تعليم اللغات الأجنبية، وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ج٢، المدينة المنورة، ص١٤١.

(46) Ristuccia Christine, (2002) A Phonemic – Based Remediation Approach for /r/ p.22

(٤٧) الصيغ، عبد العزيز، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط٢،دمشق، دار الفكر، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٤٨) بيرنثال، الاضطرابات النطقية والفونولوجية، ص ٤٢٤.

(49) Hyman,L.M, Phonology,(1975) The Oryand Analysis, Holt, Renihart and Winston, p. 189

(50) Van Riper, Charles: Speech Correction Principles and Methods, P.219. Taps,Jennifer, (2007) Innovations for Addressing Single Sound Articulation Errors In School Setting, ASHA Convention handout, www.asha.org .

(٥١) بيرنثال، الاضطرابات النطقية والفونولوجية، ص ٤٢٦.

(52) Curtis,Weiss,Gordon,Mary, and Lilywhite, Herold, Clinical Management of Articulatory and Phonological Disorders.p.190

(53) Van Riper, Charles: Speech Correction Principles and Methods, P.216-217

(٥٤) استيتية، سمير(٢٠٠٤)، الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر، ص٢٠١-٢٠٥.

(55) Costello,Janice, and Bosler,Sharon,(1976) " Generalization and Articulation Instruction " Journal of Speech and Hearing Disorders,Volume, No.3, p.360.

(٥٦) أنواع المقاطع الصوتية، انظر: أحمد مختار عمر(١٩٧٦)، دراسة الصوت اللغوي، ط١،مصر، عالم الكتب، ص٢٦٠. ومحمد جواد نوري(١٩٩٦)، علم الأصوات العربية، ط١،عمان، منشورات جامعة القدس، ص٢٤٠. وعبد القادر عبد الجليل(١٩٩٨)، الأصوات اللغوية، ط١،الأردن، دار الصفاء، ص ٢٢٠-٢٢١.

(57) Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne: Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders,p.143

(٥٨) انظر المقصود بالكلمة: المبرد، المقتضب، ج١،ص٣٦.

(59) Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne, Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders,p.145-146

(60) Bleil,Ken,(1994) Manual of Articulation and Phonological Disorders –Infancy through Adulthood,Singular Publishing Group, Inc, San Diego, p.199 لقد اختار الباحث هذه الكلمات من: أحمد مختار عمر(٢٠٠٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب.

(٦١) هذه بعض المعايير، وللمعالج الحرية في تطبيق أي معايير أخرى تخدم تقنية تعميم الكلمة.

(62) Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne, Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders,pp.147-148.

(63) Bleil,Ken, Manual of Articulation and Phonological Disorders – Infancy through Adulthood, p.208

(٦٤) بيرنثال، الاضطرابات النطقية والفونولوجية، ص ٤٣٣.

(65) Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne, Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders,p.149

(٦٦) البيلاوي، إيهاب، اضطرابات النطق: دليل أخصائي التخاطب والمعلمين والوالدين، مكتبة النهضة، ص٣٨٦.

(67) Gierut, Judith, " Treatment Efficacy(1998), Functional Phonological Disorders in Children ", Journal of Speech,Language,and Hearing Research, Volume 41,p.360

(68) Bettagere, Ramesh(2009), Carryover of Articulation Skills in the Classroom, Handout from American Speech – Language and Hearing Annual Convention,2009,p.1.

(69) Taps,Jennifer, Innovations for Addressing Single Sound Articulation Errors In School, p.8

(70) Bettagere, Ramesh: Carryover of Articulation Skills in the Classroom, p.1.

(71) Secord, Wayne(2009), Articulation and Phonological Intervention – Moving Beyond " Get-R-don" The Ohio State University.p.6. Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne, Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders,p.152

(٧٢) لقد سبق تخريج هذه الدراسات.

(73) Bakson.N. and Byrne. M. (1993), The relationship between missing teeth and selected consonant sounds. j. Speech and Hearing Disorders,24: 341-348

(74) Evans,D. and Gray,F.(2000) Associations among pragmatic functions. J. Linguistic Stress and Natural Phonological Processes in Speech –Delayed Children 25:594-609.

(٧٥) إن آلية اختيار الكلمات جاءت على النحو الآتي: اختيرت عشر كلمات من القرآن الكريم، وعشر من كتاب الصف الثامن "مهارات الاتصال" وعشر من الكتاب الثاني لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وقد حرص على أن تكون من الكلمات الشائعة.

(76) Goldman R & Fristoe M(1988) Goldman Fristoe test of articulation. Circle Pines, MN_ American Guidance Service,.Mcdonald, E.(1964) A deep test of articulation testing and Pittsburg. Stanwix House.
الخمايسة، زيدان، والإمام، محمد، الخصائص اللفظية عند الأطفال المعوقين عقليا للتعلم من الفئة (٨-١٠) سنوات في مركز نازك الحريري للتربية الخاصة، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، العدد (٣٥)، مصر، كلية التربية.

(٧٧) هؤلاء الأفراد هم ٤ أفراد من مركز اللغات/الجامعة الأردنية، و٣ أفراد من مدرسة الأمير هاشم، و٣ أفراد من مركز الفرقان.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إبراهيم أنيس (١٩٨١)، الأصوات اللغوية، القاهرة، الأنجلو المصرية.
٣. أبو بكر، يوسف الخليفة (١٩٧٢)، أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، الخرطوم.
٤. أحمد مختار عمر (١٩٧٦)، دراسة الصوت اللغوي، مصر، عالم الكتب.
٥. ..... (٢٠٠٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب.
٦. استيتية، سمير (٢٠٠٤)، الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر.
٧. إسرائيل ولفنسون (١٩٢٩)، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد.
٨. الأنباري، أبو البركات (٥٧٧هـ)، زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء، تحقيق: رمضان عبد التواب، الرسالة، ١٩٧١.
٩. الأنصاري، زكريا(٩٢٦هـ)، الدقائق المحكمة في شرح المقدمة، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٠.
١٠. البيلاوي، إيهاب، اضطرابات النطق: دليل أخصائي التخاطب والمعلمين والوالدين، مكتبة النهضة.
١١. برجشتراسر (١٩٩٤)، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مصر، مكتبة الخانجي.
١٢. بروكلمان، كارل (١٩٧٧)، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، الرياض.
١٣. البريسم، قاسم (٢٠٠٥)، علم الأصوات العربي في ضوء الدراسات الصوتية المعاصرة، دار الكنوز العربية.
١٤. بيرنثال، جون وبانكسون، نيكولاس، الاضطرابات النطقية والفونولوجية، ترجمة جهاد حمدان.
١٥. التاذفي، محمد الحلبي (٩٧١هـ)، الفوائد السرية في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق: ساهرة حمادة، جامعة تكريت، ٢٠٠٧.

١٦. الجاحظ، عمرو بن بحر، (٢٥٥هـ) البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الهلال، ١٤٢٣ هـ.
١٧. ابن الجزري، محمد بن محمد(٨٣٣هـ)، النشر في القراءات العشر، مصر، المكتبة التجارية.
١٨. ابن جني، أبو الفتح عثمان(٣٩٢هـ)، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥.
١٩. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن(٥٩٧هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، ط٤،بيروت، دار الآفاق، ١٩٨٢.
٢٠. الحمد، غانم (٢٠٠٢)، أبحاث في علم التجويد، ط١، عمان، دار عمار.
٢١. .....(٢٠٠٩)، الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، الدراسات القرآنية.
٢٢. .....الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، بغداد، وزارة الأوقاف.
٢٣. الخصاونة، توفيق (٢٠٠٠)، المحتوى الثقافي في كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، رسالة ماجستير.
٢٤. الخفاجي، أبو محمد عبد الله (٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م.
٢٥. ابن خلكان، أحمد بن إبراهيم (٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين، القاهرة، ١٩٤٨.
٢٦. الخمايسة، زيدان، والإمام، محمد، الخصائص اللفظية عند الأطفال المعوقين عقليا للتعلم من الفئة (٨-١٠) سنوات في مركز نازك الحريري للتربية الخاصة، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، العدد (٣٥)، مصر، كلية التربية.
٢٧. الداني، عثمان بن سعيد (٤٤٤هـ)، التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق: غانم الحمد، الأردن، دار عمار، ٢٠٠٠.
٢٨. الراجحي، عبده (١٩٨٦)، النحو العربي والدرس الحديث، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية.

٢٩. الرازي، أبو الحاتم أحمد (٣٢٢هـ)، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقيق: حسين الهمذاني، القاهرة، ١٩٥٧.
٣٠. الرازي، أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب، ط١، تحقيق: محمد بيضون، ١٩٩٧م.
٣١. رمضان عبد التواب، ١٩٨٠)، المدخل إلى علم اللغة، القاهرة، الخانجي.
٣٢. ..... مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، مجمع اللغة العربية.
٣٣. الزبيدي، حسام (١٩٨٩)، أصوات العربية بين التحول والثبات، بغداد، بيت الحكمة.
٣٤. الزبيدي، كاصد (٢٠٠٣)، دراسات نقدية في اللغة والنحو، عمان، دار أسامة.
٣٥. الزعبي، آمنة (٢٠٠٨)، التغير التاريخي للأصوات في العربية واللغات السامية، اربد، دار الكتاب العربي.
٣٦. السحيمي، سليمان (١٩٩٥)، إبدال الحروف في اللهجات العربية، المدينة المنورة، دار الغرباء.
٣٧. سيبويه، أبو بشر عمرو (١٤٨ هـ ١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٧٥.
٣٨. السيرافي، الحسن بن عبد الله (ت٣٦٨هـ)، شرح كتاب سيبويه، القاهرة،١٩٩٠.
٣٩. الشمسان، إبراهيم، الضاد بين الشفاهية والكتابية، مجلة الخطاب الثقافي، العدد٢، خريف، ١٤٢٨هـ
٤٠. الصفاقسي، (١١١٨هـ)، تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ، تحقيق: محمد الشاذلي، مؤسسات عبد الكريم.
٤١. الصقلي، علي بن أبي الفرج (ت آخر ق٥)، كتاب في معرفة الضاد والظاء، تحقيق: صالح الضامن، بيروت، الرسالة، ١٩٨٥.
٤٢. الصيغ، عبد العزيز، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط٢ دمشق، دار الفكر.
٤٣. ظاظا، حسن (١٩٧١)، كلام العرب: من قضايا اللغة العربية، الإسكندرية، مطبعة المصري.

٤٤. عبابنة، يحيى(٢٠٠٣)، اللغة الكنعانية: دراسة صوتية صرفية دلالية، عمان، دار مجدلاوي.
٤٥. عبد القادر عبد الجليل (١٩٩٨)، الأصوات اللغوية، ط١، الأردن، دار الصفاء.
٤٦. العجمي، فالح (١٩٩٣)، التطور الصوتي التاريخي في اللغات السامية، مجلة العصور، مج٨.
٤٧. علي عبد الواحد وافي (١٩٦٧)، علم اللغة، ط٦، القاهرة، دار النهضة.
٤٨. العناتي، وليد (٢٠٠٣) اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، عمان، دار الجوهرة.
٤٩. عنبر، تغريد السيد (١٩٨٠)، دراسات صوتية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة.
٥٠. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال.
٥١. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٥٢. القاري، ملا علي (١٠١٤هـ)، المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق: أسامة عطايا، دمشق، دار الغوثاني، ٢٠٠٦.
٥٣. القرطبي، عبد الوهاب بن محمد، الموضح في التجويد، تحقيق: غانم الحمد، عمان، دار عمار، ٢٠٠٠.
٥٤. القيسي، مكي (٤٤٤هـ)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: أحمد فرحات، ١٩٧٣.
٥٥. كانتينو، جان (١٩٦٦)، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة، صالح القرمادي.
٥٦. كمال بشر (٢٠٠٠)، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب.
٥٧. لبنسكي، إدوارد (١٩٩٧)، نقش الجص الآرامي من دير علا، جامعة اليرموك.
٥٨. لطفي، مصطفى (١٩٧٦) اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، بيروت، معهد الأنماء العربي.
٥٩. ابن مالك، جمال الدين محمد (ت٦٧٢هـ)، الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، دمشق، دار البشائر، ٢٠٠٣.

٦٠. المبرد، أبو العباس محمد (٢١٠هـ -٢٨٦هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق، القاهرة، المجلس الأعلى، ١٩٦٣.
٦١. محمد جواد نوري (١٩٩٦)، علم الأصوات العربية، ط١، عمان، منشورات جامعة القدس.
٦٢. المرزوقي، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني (٤٢١ هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م.
٦٣. المرعشي، محمد بن أبي بكر (١١٥٠هـ)، جهد المقل، تحقيق: سالم الحمد، الأردن، دار عمار، ٢٠٠١.
٦٤. ابن الناظم، أحمد بن محمد (٨٣٥هـ)، الحواشي المفهمة في شرح المقدمة، تحقيق: عمر معصراتي، دمشق، ٢٠٠٦.
٦٥. الناقة، محمود كامل (١٩٨٥)، تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى أسسه – مداخله – طرق تدريسيه.
٦٦. هنري فليش(١٩٦٩)، العربية الفصحى، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت.
٦٧. ابن يعيش، موفق الدين (٥٥٣هـ- ٦٤٣هـ)، شرح المفصل، القاهرة، دار الطباعة المنيرية.

68. Ali & Daniloff, R(1972). A contrastive Cinefluorographic Investigation of the Articulation of Emphatic –Non Emphatic Cognate Consonant. Studia Linguistica, Vol.26.
69. Bakson.N. and Byrne. M. (1993), The relationship between missing teeth and selected consonant sounds. j. Speech and Hearing Disorders,24.
70. Bettagere, Ramesh(2009), Carryover of Articulation Skills in the Classroom, Handout from American Speech – Language and Hearing Annual Convention.
71. Bleil,Ken,(1994) Manual of Articulation and Phonological Disorders–Infancy through Adulthood,Singular Publishing Group, Inc, San Diego.
72. Costello,Janice, and Bosler,Sharon,(1976) " Generalization and Articulation Instruction " Journal of Speech and Hearing Disorders,Volume, No.3.

73. Chung,(2005) Ten Core Themes In Pronunciation Teaching, PTLC.

74. Curtis,Weiss,Gordon,mary,and Lillywhite Herold(1987),Clinical Management of Articulatory and phonological Disorders, Second, Williams, and Wilkins, Baltimore.
75. Elgendy, A.M & Pols, L.C.W, Mechanical versus perceptual constraints as determinants of articulatory strategy, university of Amsterdam,Vol1.24.
76. Evans, D. and Gray,F.(2000) Associations among pragmatic functions. J. Linguistic Stress and Natural Phonological Processes in Speech – Delayed Children.
77. Gierut, Judith, " Treatment Efficacy(1998), Functional Phonological Disorders in Children ", Journal of Speech,Language,and Hearing Research, Volume 41
78. Goldman R & Fristoe M(1988) Goldman Fristoe test of articulation. Circle Pines, MN_ American Guidance Service,.Mcdonald, E.(1964) A deep test of articulation testing and Pittsburg. Stanwix House.
79. Gravel j & Ogra,j,(2003) Communication Option for Children with haring loss, Mental Retardation & Developmental Disabilities Research Reviews.
80. Greaghead,Nancy,Newman, Parley,and Secord,Wayne: Assessment and Remediation of Articulatory and Phonological Disorders.Second edition, Macmillan Publishing, New York.
81. Kara, Rawhia Ahmed(1975), The Problems Encountered by English Speakers In Learning Arabic University of California,Berkeley.ph.d.
82. Laufer,Asher & Baer (1988), The Emphatic and Pharyngeal Sounds in Hebrew and in Arabic Language and Speech,Vol31.No2.
83. Secord, Wayne(2009), Articulation and Phonological Intervention – Moving Beyond " Get-R-don" The Ohio State University.
84. Smit Ann,(2004) Articulation and phonology Resource Guide For School Age children and Adults, Delmar Learning a division of Thomson Learning, New York.

85. Taps,Jennifer, (2007) Innovations for Addressing Single Sound Articulation Errors In School Setting, ASHA Convention handout, www.asha.org.
86. Van Riper, Charles: Speech Correction Principles and Methods, Constable and Company.Ltd, London,1972.

نحو بلاغة إقناع رقمية
تنظيرا وتطبيقا: تويتر نموذجا
دراسة في ضوء رؤية أرسطو

د. مشاري الموسى
جامعة الكويت

ورد البحث في ١١/ ١١/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٢٦/ ١/ ١٤٣٧هـ

نحو بلاغة إقناع رقمية تنظيرا وتطبيقا: تويتر نموذجا دراسة في ضوء رؤية أرسطو

د. مشاري الموسى

ملخص البحث

لا يخرج المتكلم في محاولاته لإقناع المتلقي عن توظيف بلاغة الإقناع التي أرسى قواعدها أرسطو وسماها الريطورية، وجعل لها ثلاثة أنواع من الحجج، وهي: الثقة (ethos)، والانفعال (pathos)، والمنطق (logos). يوظف المتكلم في خطابه الإقناعي هذه الحجج كلها أو بعضها لكي ينجح في التأثير على المتلقي وإقناعه بما يريد. يتناول هذا البحث أفقا جديدا في بلاغة الإقناع لم يلتفت إليه الباحثون لحداثته، فيتناول البحث الخطاب الرقمي في وسائل التواصل الاجتماعي، متخذاً تويتر نموذجا، ليقدم تنظيرا مقترحا لبلاغة إقناع رقمية، كاشفا عن التجليات الرقمية الحديثة لحجج بلاغة الإقناع الأرسطية في الخطاب الرقمي، ثم تطبيقا عمليا على أديبين رقميين.

الكلمات الأساسية: بلاغة الإقناع الرقمية، تويتر، أرسطو.

ABSTRACT

In his attempts to convince, a person who talks cannot succeed unless he employs the rhetoric whose bases are established by Aristotle who divides the means of rhetoric into three: ethos, pathos, and logos. Any person uses some or all of those three means to influence someone to do what he wants. This study expands the horizons of rhetoric and examines it in a new way that has not been studied. The study examines the digital rhetoric in the new social media, taking Twitter as an example, and discovers three new digital means of rhetoric.

Keywords: digital rhetoric, twitter, Aristotle.

مدخـل

إن دراستنا لبلاغة الإقناع، رقميةً كانت أو غير رقمية، هي تجاوب مع معطيات هذا العصر. ومعطيات العصر هي التي دفعت غيرنا مـن البـاحثين مـؤخراً مثـل عبـد اللطيف عادل إلى دراسة بلاغة الإقناع في المناظرات ونشر كتاب يحمل هذا العنوان في سنة ٢٠١٣، فنراه يقول: "اهتمام الكِتاب ببلاغة الإقناع حكمـه انشـداد قـوي إلى مـا يجري في العصر الـراهن، مـا دام الإقنـاع خاصـية مؤسسـة لخطابـات تفـرض قوتهـا وخطورتها في عالم اليوم، بل وتصنع قيم الإنسان المعاصر"[١]. تخطو دراستنا هذه خطـوة إلى الأمام بأن تتناول تحديداً الخطاب الرقمـي، وتحديـدا الخطـاب الرقمـي في وسـائل التواصل الاجتماعي، الذي اتجه إليه كثير من الكتاب الـرقميين، مـن أدبـاء ومـثقفين وعلماء وسياسيين وإعلاميين وغيرهم، ووظفوه بهدف إقناع الجمهور والتأثير بهم. لا سيما أننا لا نجد من بين الدراسات السابقة، عربية كانت أو أجنبيـة، دراسـة تناولـت بلاغة الإقناع الرقمية في وسائل التواصل الاجتمـاعي كاشـفة عـن تجلياتهـا الحديثـة. ويرجع ذلك إلى حداثة الموضوع نفسه. ولعل أقـرب دراسـة لمـا نحـن بصـدده كانـت دارسة جانيت جونسون (Janet Johnson) المنشـورة عـام ٢٠١٢ والموسـومة بــ: Twitter Bites and Romney: Examining the Rhetorical Situation of the 2012 Presidential Election in 140 Characters،[٢] والتي لنـا أن نترجمها بـ: تأثير توتير وروميني: دراسـة للحالـة البلاغـة للانتخابـات الرئاسـية لعـام ٢٠١٢ في ١٤٠ حرفاً. يدور محور تلك الدراسـة حـول أفضـلية توظيـف تغريـدات[٣] التواصل الاجتماعي، مثـل تـويتر، في الحمـلات الانتخابيـة علـى اسـتخدام وسـائل الإعلام التقليدية. وتتمثل هذه الأفضلية في كونها تجعل الرسـائل تصـل مباشـرة مـن

المرشح إلى الناخب من دون المرور بذلك الوسيط القديم وهو وسائل الإعلام التقليدية. تطرقت الباحثة إلى حجج بلاغة الإقناع الأرسطية وأوردت أمثلة من تغريدات رومني مما كان منها موجها لتحقيق الثقة أو الانفعال أو المنطق. تعتبر دراسة جونسون من أول الدراسات التي تطرقت لحجج بلاغة الإقناع الأرسطية، غير أنه تطرق يفتقر إلى تقديم نظري وإلى رصد لتجليات تلك الحجج الرقمية، وهو الأمر الذي تقوم به دراستنا هذه.

علينا، ونحن نستهل دخولنا في العالم الرقمي وبلاغته، أن ننجو من خطأ الخلط بين بلاغة العبارة وبلاغة الخطاب. أما بلاغة العبارة فهي تلك التي نشأت في "أحضان الشعر"،[٤] فهي تعنى بجمال أسلوب النص الشعري ومفرداته والتي قسمت إلى ثلاثة علوم: البيان والمعاني والبديع. وأما بلاغة الخطاب فقد نشأت "نشأة فلسفية منطقية"،[٥] فهي تعنى بحجج الإقناع التي وضعها أرسطو في كتابه الخطابة، والتي يتبعها المتكلم في النص الإقناعي الذي ظل لفترة طويلة مقتصرا على كونه خطابيا، أما اليوم فإنه يتجلى لنا رقميا. ويكمن هذا الخلط الخاطئ في عدم التمييز بين غايتي النصين، فالنص الشعري يرمي إلى التخييل، والنص الإقناعي يرمي إلى التصديق، وذلك بشكل عام مع جواز التداخل بينهما كما لو سعى النص الشعري/ الشاعر إلى إضفاء شيء من التصديق أو النص الإقناعي/ الخطيب إلى إضفاء شيء من التخييل. وقد وقع في هذا الخلط "الدارسون العرب"، كما يقول محمد العمري، "وتبعهم في ذلك المدرسون في الثانويات والجامعة".[٦] ولتجنب هذا الخلط نجد أن من ترجم كتاب الخطابة لأرسطو، وهو مترجم مجهول من القرن الثاني أو الثالث الهجري كما يقول محقق الكتاب،[٧] لا يترجم مصطلح أرسطو "rhetoric" إلى "بلاغة"، وإنما يؤثر الإبقاء على المصطلح الأرسطي، فيكتبه بعد تعريبه: "ريطورية"، ثم يشرح مفهوم مصطلح الريطورية بأنه

القدرة على الإقناع.[٨] وهو المفهوم الذي استقر الباحثون، مثل محمد العمري وعبد اللطيف عادل،[٩] على تسميته بـ بلاغة الإقناع. أما النص الرقمي فقد لحظ الباحثون ظهور بوادره في تسعينيات القرن الماضي، لذا سمى بعض الباحثين تلك الفترة بـ "late age of print"،[١٠] وهو ما يمكن أن نترجمه بـ: نهايات العصر الورقي.[١١]

النص في وسائل التواصل الاجتماعي عامةً وفي توتير خاصةً نص رقمي تفاعلي، والنصوص الرقمية التفاعلية أضحت، كما تقول ماري هوكس (Mary Hocks)، "تنشئ مزيجا من الكلمات والمرئيات، والمسموع والمقروء، والكُتّاب والقُرّاء، تمزج بينها بطريقة حديثة متميزة".[١٢] ومن ثم فإن النص الرقمي يمثل نقلة نوعية في طبيعة النصوص، فنحن الآن لسنا أمام النص الورقي الذي كنا نتعامل معه لقرون مضت، وإنما نحن أمام شاشة إلكترونية انصهر فيها المكتوب والمسموع والمرئي انصهارا لا يمكن فصل أجزائه. والكيان الإلكتروني الجديد يتطلب بالضرورة دراسة بلاغية جديدة متوائمة معه ومع نصوصه الرقمية. ويمكننا أن نرسم للنص الرقمي ملامح يتميز بها، وبيانها كما يلي:

- سهولة النشر وسرعته: إذا كان نشر نص ورقي يتطلب إرساله إلى مطبعة ثم دار نشر وتوزيع، فإن النص الرقمي لا يحتاج إلا إلى ثلاث خطوات يسيرة لنشره، أولى تلك الخطوات استخدام جهاز رقمي (حاسوب أو هاتف ذكي أو لوح رقمي) ليكتب عليه الكاتب الرقمي نصه، ومثل هذه الأجهزة أضحت في متناول كثير من الناس، ولا يجب أن يكون هذا الجهاز الرقمي خاصا بالكاتب الرقمي ومن ممتلكاته، وإنما له أن يستخدم جهاز صديق له أو جهاز العائلة المشترك. وثاني تلك الخطوات أن يكون للكاتب الرقمي كيان رقمي في أحد مواقع التواصل الاجتماعي لينشر من خلاله نصه الرقمي، ويتمثل هذا الكيان في إنشاء حساب في

ذلك الموقع. والحصول على ذلك الحساب مجاني لا يتطلب أكثر من ملء بعض البيانات ولا يكلف الإنسان درهما. أما الخطوة الثالثة والأخيرة فتتمثل في ضغطة زر يسمح بها الكاتب الرقمي لموقع التواصل الاجتماعي بأن ينشر نصه للجمهور. أما سرعة النشر فإن النص الرقمي لا يستغرق بعد جاهزيته إلا لدقائق، أو ثوانٍ أحيانا، ليرى النور ويتم نشره للجمهور. وسرعة النشر هذه، كما ترى لورا جوراك (Laura Gurak)، قد تؤدي أحيانا إلى أن يكون النص أقرب إلى الأسلوب العفوي.[١٣] بالإضافة إلى ذلك، فإن سهولة النشر وسرعته تجعلان عملية الاستدراك والتعديل والتعقيب سهلةً وسريعة كذلك. فلو أراد كاتب رقمي أن يستدرك على نصه الرقمي الأصلي أو أن يعدله أو يعقب عليه، فإن له أن يقوم بذلك بكل يسر وسرعة.

- سهولة الانتشار وسرعته: لا يتطلب انتشار النص الرقمي بين الجمهور أكثر من ضغطة زر تتمثل في إعادة تدوير للنص الرقمي الذي نشره كاتبه، ومن خلال إعادة التدوير ينتشر النص الرقمي بين جمهور جديد. وهكذا ينتشر النص الرقمي مع كل إعادة تدوير بين جمهور جديد. استخدام الوسم (hashtag) يساهم في انتشار النص الرقمي، إذ إن الوسم يدرج هذا النص تحت قائمة تشمل كل النصوص الرقمية التي تحمل الوسم نفسه، ليكون بذلك تصنيفا موضوعيا لها. واتساع نطاق انتشار النص الرقمي ليكون عابرا للحدود الجغرافية فيصل لكل من يرغب في قراءته يؤدي إلى تعدد الثقافات القارئة لهذا النص، ثم إلى تعدد وجوه التفاعل معه قبولا أو رفضا. ومن ثم يكون النص الرقمي "عالمي النطاق" (global fields) كما تسميه ماري كوين (Mary Queen)،[١٤] وذلك لما يتميز به الفضاء الإلكتروني بالسماح لكل عناصره، كالصورة والنص، بإعادة التدوير.

- مرونة النشر الحجمية: في العالم الورقي يشعر الكاتب في الغالب بقيود حجمية حول ما يمكنه نشره، فعلى سبيل المثال لا يمكن له أن يطبع وينشر نصا ورقيا يتكون من فقرة واحدة. أما في العالم الرقمي، فإن الكاتب الرقمي لا يشعر بأي قيود حجمية على ما يريد نشره.
- قابلية التكيف الذاتي: يتكيف النص الرقمي ويعيد تنسيقه تلقائيا بما يتناسب ومختلف الأجهزة الإلكترونية الرقمية مع تنوع حجم شاشاتها وطرق عرضها. وهو أمر مهم على المستويين: الكتابة والقراءة. أما على المستوى الأول، فإن قابلية النص للتكيف ذاتيا مع مختلف الأجهزة الرقمية تتيح للكاتب الرقمي استخدام أي جهاز رقمي يشاء ليصل نصه إلى الجمهور على أي جهاز رقمي يستخدمونه، من دون أن يضطر الكاتب الرقمي إلى التفكير في حجم الخط والصفحة وتنسيقها، وهي أمور أساسية في الكتابة الورقية. وأما على المستوى الثاني، فإن قابلية النص الرقمي للتكيف ذاتيا مع مختلف الأجهزة الرقمية تأتي ملبيةً لضرورة من ضروريات القارئ الرقمي الذي نراه اليوم يستخدم أجهزة إلكترونية رقمية مختلفة. هذه الأجهزة الرقمية أحدثت بالقراءة، كما أشار بذلك أليجاندرو تابيا (Alejandro Tapia)، نقلة تكنولوجية، فتشملها الثورة الرقمية التي نعيشها في عصرنا الحديث هذا.[١٥]
- حتمية النشر: قد يواجه الكاتب في العالم الورقي أكثر من معرقل يعيق نشر نصه الورقي، منها قوانين الدولة، ومنها سياسة المطبعة، ومنها توجهات دار النشر والعرض الفكرية. فلو أراد كاتب أن يخالف قوانين الدولة أو توجهاتها وينشر ما يتعارض معها، فإنه قد لا يجد مطبعة تستجيب له وتطبع نصه الورقي المخالف، ولو وجد مطبعة مغامرة، فإنه قد لا يجد دار نشر تقبل عرض نصه الورقي

المخالف على الجمهور، فلا ضمان لحتمية نشر النص الورقي. أما في العالم الرقمي، فإن حتمية النشر متوفرة، وذلك لأن المعرقلات الفعلية أقل، وتجاوزها أيسر، الأمر الذي يتيح للنص الرقمي "الانتقال عبر الحدود بلا رقابة إلا بشكل نسبي محدود".[١٦] ومن ثم فإن للكاتب الرقمي أن ينشر ما يشاء من نص رقمي، وبعد أن يرى نصُّه الرقمي النور ويقرأه الجمهور وينتشر بينهم، يكون لسلطات الدولة ولإدارة موقع التواصل الاجتماعي محاسبة الكاتب الرقمي لمخالفته الأنظمة والقوانين والتوجهات.

- من التثبيت إلى التثبيت والاستحضار: تميزت الكتابة الورقية عن الشفاهية بأنها تثبت النص، أي جعلته "في وضع يسمح بتأمله".[١٧] وبهذا تكون الكتابة الورقية حمت النص من التلاشي الذي كانت تسببه الشفاهية. عندما ننتقل إلى الكتابة الرقمية فإننا نجدها قد نجحت، مثل نظيرتها الورقية، في حماية النص من التلاشي فقامت بتثبيته للقارئ ليتأمله ويقلب النظر فيه كما يشاء، وهي كذلك أضافت مزية الاستحضار، فأتاحت للقارئ استحضار أي جملة قرأها سابقا بمجرد كتابتها أو كتابة بعض كلماتها في أماكن مربعات البحث التي توفرها وسائل التواصل الاجتماعي.
- ثلاثية الأقطاب: رسمت لنا ماري هوكس مثلثا يبين لنا أقطابا ثلاثة للكتابة الرقمية: المرسل، وهو الكاتب الرقمي، والمتلقي، وهو الجمهور الرقمي، والمؤسسة المستضيفة، مثل تويتر، التي يلتقي في رحابها الكتاب والجمهور الرقميين.[١٨] وهنا فارق مهم بين الكتابة الرقمية والكتابة الورقية، فالكتابة الورقية ذات قطبين أساسيين فقط، وهما المرسل والمتلقي، أما في الكتابة الرقمية فإن المؤسسة المستضيفة تلعب دورا واضحا في تحديد طبيعة العملية التواصلية بين المرسل

والمتلقي. على سبيل المثال نجد أن تويتر يتيح للمتلقي/ الجمهور حرية الرد على تغريدة المرسل/ الكاتب، وليس بمقدور الكاتب بمقدور أن يمسح ردود الجمهور، وإنما تبقى هذه الردود ببقاء التغريدة، وللكاتب حق الرد على الجمهور. فتويتر هنا يجعل طبيعة التواصل بين المرسل والمتلقي لانهائية، وبهذا يتبادلان الأدوار، فيصبح المتلقي مرسلاً، والمرسل متلقيا. أما في إنستغرام فإننا نجد طبيعة تواصلية مختلفة، فإن إنستغرام يتيح للمرسل/ الكاتب بأن يرسل رسالته للجمهور ثم يمسح أي رد من ردود الجمهور مع بقاء الرسالة كما هي.

الجانب النظري للدراسة:

رغم أن النص الرقمي يتميز عن نظيره الورقي بهذه المميزات، فإن المتكلم، مسموعاً كان نصه أو مقروءاً، في محاولاته لإقناع جمهوره بما يريد لا يخرج عن استخدام بلاغة الإقناع التي تهيأت لها "شروط النضج داخل النسق المعرفي الأرسطي... وحوَّلها [أرسطو] إلى قواعد جامعة ومبادئ منظمة".[١٩] ثمة ثلاثة أنواع من الحجج للمتكلم أن يتبعها لكي يخلق اقتناعا لدى المخاطب، وقد ذكرها أرسطو وشرحها في كتابه الخطابة وسماها حجج الريطورية، التي يقصد بها بلاغة الإقناع.[٢٠] وحجج بلاغة الإقناع هذه يوظفها المتكلم في نصه الشفاهي، وقد يوظفها في نصه المدوّن/ الورقي. وكان الأمر إلى عهد قريب مقتصرا على هذين التوظيفين: الشفاهي والورقي. أما اليوم فإننا نجد توظيفا جديدا، وهو التوظيف الرقمي. أما حجج بلاغة الإقناع الأرسطية، بغض النظر عن نوع توظيفها، فهي ثلاثة أنواع: الثقة (ethos) والانفعال (pathos) والمنطق (logos).

أولا: الثقة (ethos):

يتمثل هذا النوع من الحجج في المصداقية التي يتحلى بها المتكلم في نظر المتلقين، بحيث يكون المتكلم "أهلاً أن يُصَدَّق ويُقبَل قوله"،[٢١] وكأن المتلقي، أثناء محاولة المتكلم إقناعه بشيء ما، يطرح على نفسه بعض التساؤلات مثل: هل ينبغي عليّ أن أثق بهذا المتكلم وأصدقه؟ ولماذا؟ وهذه التساؤلات لا تتعلق بمضمون كلام المتكلم، وإنما ترتبط بالدرجة الأولى بأمور خارجية عن الكلام، كشخصية المتكلم ومستواه التعليمي وصفته الوظيفية. ونحن نرى هذا النوع متبعا كثيرا في واقعنا الإقناعي المعيشي، فعلى سبيل المثال نرى أن متجرا لبيع أجهزة الإنذار المبكر بالحرائق يوظف في إعلانه التجاري صورة رجل إطفاء يرتدي ملابسه الرسمية لإقناع العميل بضرورة اقتنائه لجهاز من تلك الأجهزة. يستغل المتجر هنا الثقة التي يحملها الناس في أذهانهم تجاه رجل الإطفاء، فرجل الإطفاء في نظر الناس هو الشجاع الأمين، وهو كذلك الخبير. أما كونه شجاعا فلأنه ينقذ الناس من لهيب النيران ويهزم الحرائق، وأما كونه أمينا فلأن الناس تسمح له لإطفاء النيران بدخول منازلها وأن يفعل فيها ما يشاء من دون مراقبة، فهو لا يسرق ولا يخون، وأما كونه خبيرا، فإن ذلك يكمن في مقدرته على إطفاء النيران مهما عظمت، وهو أمر لا يعرف أسراره إلا رجل الإطفاء، ولا يجرؤ أي إنسان آخر على الاقتراب من الحرائق. ومن ثم يكون رجل الإطفاء في نظر العميل، إذا أردنا أن نصفه بألفاظ أرسطية، صالحا، "والصالحون هم المصدَّقون سريعا بالأكثر في جميع الأمور الظاهرة".[٢٢] وهنا نتفهم سر توظيف صاحب المتجر لشخصية رجل الإطفاء للتسويق لأجهزة الإنذار، إنه يريد شخصية تحظى بالثقة، ليسهل عليه إقناع عملائه.

ثانيا: الانفعال (pathos):

يتمثل هذا النوع من الحجج في استثارة المتكلم لشعور المتلقي، كشعور الفرح والحزن والرضا والغضب والخوف، لإقناعه بشيءٍ ما. وذلك لأن الإنسان بطبعه يميل إلى ما يفرحه، ويتجنب وقوع ما يغضبه، ويتحاشى مواجهة ما يخاف منه. لنرجع إلى مثال رجل الإطفاء السابق، حينما يبدأ رجل الإطفاء كلامه بعبارة مثل "أعزائي المواطنين"، فإن مثل هذه العبارة تستدعي شعور الحب المفترض بين المواطنين فيما بينهم، فتخلق شعور الحب نفسه بين رجل الإطفاء، وهو المتكلم، وبين الجمهور، وهم المتلقون. كذلك لو أن رجل الإطفاء أضاف في كلامه عبارة مثل "يمكن السيطرة على النار في بدايتها، لكنها إذا كبرت أصبحت كالغول لا تبقي ولا تذر"، فإنه هنا يستثير شعور الخوف لدى المتلقي بعد أن استثار شعور الحب، وذلك ليقنع المتلقي بضرورة اقتنائه لجهاز إنذار. ومن ثم يكون المتكلم نجح بكلامه فيما يسميه أرسطو "تهيئة السامع"، وذلك "حين يستميله الكلام إلى شيء من الآلام [وهي المشاعر] المعترية، فإنه ليس إعطاؤنا الأحكام في حال الفرح والحزن ومع المحبة والبغضة سواء".[٢٣] وبذلك تكون الانفعالات العاطفية التي يستثيرها المتكلم ويخلقها في المتلقي وسيلة لإقناعه.

ثالثا: المنطق (logos):

يتمثل هذا النوع من الحجج في توظيف المتكلم المنطق السليم واستخدامه وسيلةً لإقناع المتلقي، ويندرج في مظلته كل ما يتلفظ به المتكلم لإقناع المتلقي مما لا يندرج تحت الثقة والانفعال. من أمثلة المنطق إيراد الاقتباسات والمقارنات والسبب والمسبب، كما لو ذكر المتكلم أن شيئا ما قد أدى إلى شيء آخر. لنرجع إلى مثالنا السابق، لو أن رجل الإطفاء قد قال في محاولاته لإقناع المتلقي بضرورة اقتناء جهار

إنذار عبارات مثل: "إن إلزام الولايات المتحدة مواطنيها باستخدام أجهزة الإنذار في منازلهم قد أدى إلى انخفاض عدد الضحايا البشرية جراء الحرائق، وقد ذكرت وزارة الصحة في إحصائيتها للسنة الماضية أن ١٠% من الوفيات كانت بسبب الحرائق"، فإن هذه العبارات تدخل ضمن المنطق، فالقسم الأول منها تضمن سبباً، وهو القانون الذي ألزم المواطنين باستخدام أجهزة الإنذار، وقد أدى هذا السبب إلى مسبب/ نتيجة، وهي انخفاض عدد الضحايا البشرية. أما القسم الثاني منها فاشتمل على اقتباس من إحصائية وزارة الصحة يدعم بها المتكلم كلامه للنجاح في إقناع المتلقي.

عندما ننتقل إلى وسائل التواصل الاجتماعي، تويتر تحديدا، فإن الكاتب الرقمي يمثل المتكلم، والقارئ الرقمي يمثل المتلقي. وتجري بينهما عملية إقناع يمارس فيها الكاتب الرقمي أنواع الحجج الأرسطية المتاحة له في بلاغة الإقناع بهدف التأثير على القارئ الرقمي وإقناعه. تقترح الدراسة ثلاثة عناصر لبلاغة الإقناع الرقمية، هذه العناصر هي بمثابة تجليات تتجلى بها حجج الإقناع الأرسطية. أما العنصر الأول فهو الواجهة، وأما العنصر الثاني فهو الرسالة، وأما العنصر الثالث فهو الحضور البشري. وهذه العناصر الثلاثة تكوِّن بلاغة الإقناع الرقمية في مختلف الخطابات الرقمية التي نجدها في وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر وإنستغرام، غير أننا سنقتصر على تويتر نموذجا.

أولاً: الواجهة:

هي الملف الشخصي التعريفي وهي أول ما يطلع عليه الجمهور الرقمي للتعرف على الكاتب الرقمي، ويتجلى فيها ما كان قد أسماه أرسطو بـ"الثقة" (ethos). تتكون الواجهة في تويتر من ملف شخصي يحتوي على موضعين لصورتين

وعدة خانات يقوم الكاتب الرقمي بتعبئتها كيفما يشاء لتكون واجهة له. الموضع الأول لوضع صورة للملف الشخصي، والموضع الثاني لاختيار صورة خلفية. أما الخانات فواحدة للاسم، وأخرى لكتابة نبذة تعريفية، وأخرى لتحديد الموقع الجغرافي، وخانة لذكر موقع إلكتروني، ثم خانة أخيرة لاختيار لون تصميم الملف الشخصي. تمثل الصورتان والبنود الواجهةَ التي يراها كل من يزور كيان الكاتب الرقمي. بالإضافة إلى ذلك، تحتوي الواجهة على معلومات أخرى يراها الزائر الرقمي وهي عدد المتابِعين (بكسر الباء) وعدد المتابَعين (بفتح الباء) وعدد التغريدات (التغريدة هي الاسم المميز للرسالة في تويتر) المفضلة منها وغير المفضلة، ثم زرّ المتابعة الذي إذا ضغط عليه الزائر فإنه ينضم إلى متابِعي الكاتب الرقمي.

ثانيا: الرسالة:

المقصود بها الخطاب الرقمي الذي ينشئه الكاتب الرقمي وينشره. والرسالة هي ما اصطلح تويتر ومستخدمو تويتر على تسميته العربية بـ"التغريدة"، غير أنني أسميت هذا العنصر "الرسالة" لكي يشمل ما يكتبه الكتاب الرقميون في تويتر وغيره. يتجلى في الرسالة ما أسماه أرسطو بـ"الانفعال" (pathos)، و"المنطق" (logos). والرسالة الرقمية تستخدم واحدا من تعبيرين مختلفين أو كليهما، أما الأول فهو التعبير النصي، وأما الثاني فهو اللانصي. يتكون التعبير النصي من لفظ ومعنى، ويأتي مقروءا كما لو كان مكتوبا في التغريدة نفسها. وأما التعبير اللانصي فيأتي على هيئة صورة ثابتة أو متحركة خالية من التعبير النصي، أو مشتملة عليه، فينصهر التعبيران النصي واللانصي في رسالة رقمية واحدة. فالرسالة الرقمية إذن لا تقتصر على التعبير النصي لإيصال المعنى إلى قلب المتلقي، وإنما تتجاوز ذلك إلى اللانصي أحيانا وإلى النصي واللانصي معا أحيانا أخرى.

ثالثا: الحضور البشري:

ويتجلى في هذا العنصر ما أسماه أرسطو بـ"الانفعال" (pathos). ويعنى بمظاهر الإنسانية التي يضفيها الكاتب الرقمي على كيانه الرقمي المتمثل في الواجهة والرسالة. تكمن أهمية هذا العنصر في إدراكنا لحقيقتين اثنتين، أما الأولى فهي أن الإنترنت، الذي يمثل شريان الحياة الذي تعتمد عليه الأجهزة الرقمية، قد قصَّر المسافات الفعلية التي تفصل بين الكاتب والقارئ الرقميين وأزال الحدود التي كانت تحول بين الكاتب والجمهور في النص الورقي. أما الحقيقة الثانية فهي أن الإنسان بشكل عام يميل إلى الاستماع للمشابه له.[٢٤] وعلينا أن لا ننسى أن الجمهور الرقمي يتعامل مع الكاتب الرقمي من خلال آلة إلكترونية (كالحاسوب، والهاتف الذكي)، فإن لم يُضْفِ الكاتب الرقمي على كيانه الرقمي ما يشعر بوجوده البشري، فإن الجمهور سيشعر بخلو كيان الكاتب الرقمي من الإنسانية، فينظر إليه على أنه كيان آلي لا يختلف عن ماكينة الصرف الآلي التي يتعامل معها الجمهور بين حين وآخر، فكلاهما شاشة إلكترونية يقرأ الجمهور ما فيها ثم يضغط على أزرارها. ومن ثم فإن درجة الإقناع تنخفض كثيرا، وهذا ما يؤكده إدوارد موران (Edward Moran) وفرانكوس قوسياكس (Francois Gossieaux) في دراسة لهما اعتمدت على مسح شمل خمسمئة شركة تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها من الوسائل المتاحة في الإنترنت للتسويق لمنتجاتها، فقد رأى الباحثان أن نجاح التسويق عبر الإنترنت يعتمد في الدرجة الأولى على إشعار الزبون بأنه يخاطب إنسانا لا مجرد آلة.[٢٥] لا يمثل الحضور البشري أهمية في النص الورقي لأن التفاعل المباشر بين الجمهور والكاتب الورقيين منعدمٌ عبر الورق أصلا، أما في النص الرقمي فإن هذا التفاعل مفترضٌ أصلا. وذلك لأن "الناس"، كما يذكر بي جي فوج (B. J. Fogg)، "يتجاوبون

مع النظام الآلي كما لو أن هذه الحواسيب الآلية وحدات اجتماعية".[٢٦] وهو الأمر نفسه الذي يؤكده بيرون ريفس (Byron Reeves) وكليفورد ناس (Clifford Nass) في نظريتهما the Media Equation Theory، التي يمكن أن نترجمها بـ نظرية التعادل الإعلامي. ترى النظرية في مجملها أن الناس يتفاعلون مع وسائل الإعلام الحديثة كالتلفاز والحاسوب وغيرها كما لو أن هذه الوسائل كائنات حية.[٢٧]

أهم مظهر للحضور البشري التفاعل، فهذه الأجهزة التكنولوجية الرقمية "جعلت عملية الإقناع تفاعلية بدلا من كونها عملية ذات اتجاه واحد"،[٢٨] ومنحت الجمهور الرقمي مساحة واسعة جدا للتفاعل، وهي مساحة "تعادل أو تزيد عن" المساحة الممنوحة للكاتب.[٢٩] يأتي التفاعل على وجهين يمكن أن نطلق عليهما: استجابة وابتداء. أما الاستجابة فتتمثل في مدى تفاعل الكاتب الرقمي مع الرسائل الرقمية، أو التغريدات في توتير تحديدا، التي تصله من الجمهور كلاً على حدة، وهذه الرسائل الرقمية متنوعة وكل نوع منها يتطلب تفاعلا فرديا مختلفا، فمنها ما يحتوي على سؤال يوجهه فرد من الجمهور إلى الكاتب الرقمي، إجابةُ الكاتب الرقمي على هذا السؤال تضفي بشرية على كيانه الرقمي. ومنها ما يحتوي على تعليقات نقد أو إطراء أو سخرية، ردُّ الكاتب الرقمي عليها أو على بعضها أو إعادة تدويرها يضفي بشرية على كيانه الرقمي أيضا. ففي هذا النوع من التفاعل يكون الكاتب الرقمي مستجيبا بإحداث ردة فعل لما ابتدأ به الجمهور. أما النوع الثاني، وهو الابتداء، فإن الكاتب الرقمي يبتدئ بإنشاء ونشر رسالة رقمية تضفي البشرية على كيانه الرقمي، وذلك بأن تكون تلك الرسالة متزامنة مع ما يعيش به الجمهور من مناسبات، فيكون الكاتب الرقمي "مستجيبا للمتغيرات والمتحولات المتزامنة المتدفقة"[٣٠] من حوله بكافة أنواعها، فتخاطب رسالته الجماعة البشرية المتمثلة في الجمهور الرقمي، ومن هنا

تكسب بشريتها فتضفيها على كيان الكاتب الرقمي. والمناسبات كثيرة ومتفاوتة في أهميتها، منها مناسبات دينية كتقديم تهنئة العيد للجمهور الرقمي في أول أيام عيدي الفطر أو الأضحى، ومنها مناسبات اجتماعية كالإعراب عن مشاعر الحزن لوفاة أحد المقربين، وغير ذلك من مناسبات سياسية ورياضية واقتصادية... إلخ.

هذه هي عناصر بلاغة الإقناع الرقمية، ونجد أن الكاتب الرقمي يمارس من خلالها أنواع الحجج الثلاثة التي ذكرها أرسطو. أما الواجهة فإنها سبيل الكاتب الرقمي للظفر بـ"الثقة" (ethos) في نظر الجمهور في العالم الرقمي. ففي الواجهة تكمن إجابة سؤال يطرحه كل فرد من الجمهور على نفسه: "لماذا ينبغي أن أستمع لما يقوله هذا الإنسان؟" أو بعبارة أكثر تلاؤما مع تويتر: "لماذا ينبغي أن أضغط على زرّ المتابعة فأتابع هذا الكاتب الرقمي؟" ثمة عدة مكونات في الواجهة تهدف إلى خلق الثقة في قلب الجمهور الرقمي وكسبها. صورة الملف الشخصي بأدق تفاصيلها مكوِّن يلعب دورا في غاية الأهمية لا سيما في الإيحاءات التي تتركها في نفس الجمهور الرقمي. فصورة لكاتب رقمي وهو يرتدي معطف الأطباء الأبيض تدل على أنه طبيبٌ يعمل في إحدى العيادات. أما صورته وهو ممسكٌ بقلم ومنهمك بكتابة شيء ما فتوحي بأنه إنسان مثقف ومفكر. وأما صورته أمام ميكرفون فإنها تدل على أنه متحدث وإعلامي. البيانات الشخصية مكون مهم، ابتداءً من طريقة عرض الاسم، فاحتواء الاسم على لقب قبله يوحي بطبيعة رتبة الكاتب الرقمي الوظيفية أو العلمية، فإن حرف الدال قبل الاسم يوحي للجمهور بأن صاحبه يحمل شهادة علمية رفيعة في مجاله العلمي. وكذلك حرف الميم اختصارا للقب مهندس، فإنه يوحي للجمهور بأن الكاتب الرقمي ذو منزلة وظيفة رفيعة ويتمتع بشيء من الذكاء في النظر إلى الأمور ربطا وتحليلا واستنتاجا.

النبذة التعريفية التي يكتبها الكاتب الرقمي تساهم في خلق الثقة، فذكر الكاتب الرقمي على سبيل المثال أن له ثلاثة كتب مطبوعة يوحي للجمهور الرقمي بأنه كاتب مثقف وناجح في عالم الكتابة. ذكره لمكان عمله يزيد من الثقة في قلوب الجمهور الرقمي إن كان مكانا مرموقا، كما لو ذكر أنه أستاذ جامعي ثم ذكر اسم الصرح الجامعي الذي ينتمي إليه. الموقع الجغرافي يرسم صورة أوضح للجمهور الرقمي حول الكاتب الرقمي مما يساهم في بناء الثقة لا سيما إذا كان للمكان علاقة بخطابه الرقمي، كما لو كان الكاتب الرقمي يتحدث عن الحركة الأدبية في المغرب وهو مقيم في مدينة مغربية. والنبذة التعريفية، على عكس ما يوحي به اسمها، قد لا تكون تعريفية بالضرورة، وإنما قد تكون جاذبة للجمهور الرقمي لحثه على المتابعة، كأن تكون عبارة مثل: "أنا هنا أكتب ما يجول في خاطري أحيانا، وما يجول في خاطرك أحيانا كثيرة"، فهي عبارة لا تعرّف الجمهور بالكاتب الرقمي إلا تعريفا بسيطا يتمثل في أنه كاتب يعبر عن المشاعر، وهي كذلك عبارة تتسم بالإيجاز، وذلك لأن النبذة التعريفية يجب أن تكون محدودة الحروف.

خانة الموقع الإلكتروني ما وجدت إلا لتمكين الكاتب الرقمي من الظفر بثقة الجمهور، فيضع الكاتب الرقمي في هذه الخانة رابطا إلكترونيا لأي كيان رقمي آخر يعرّف به، كرابط إلكتروني لمقابلة تلفزيونية أجريت معه، أو رابط إلكتروني لموقعه الإلكتروني الشخصي، أو رابط إلكتروني لسيرته الذاتية. فتأتي خانة الموقع الإلكتروني في تويتر بمثابة تأكيد للجمهور على أن لهذا الكاتب الرقمي كيانا رقميا مستقلا عن تويتر. ثم يتاح للكتاب الرقمي بأن يختار ما يريده من لون لملفه الشخصي، وله أن يبقيه على اللون الاعتيادي من دون أي تغيير، وللألوان دلالاتها، فاللون الوردي على سبيل المثال يضفي لمسات أنثوية ويوحي بأن طبيعة رسائل هذا

الكاتب الرقمي تهتم بشؤون المرأة. أما اللون الأحمر فيوحي بأن طبيعة الرسائل طبيعة ثورية سياسية مناضلة.

تحتوي الواجهة أيضا على بيانات يراها الزائر الرقمي إلا أنه لا يتاح للكاتب الرقمي التدخل فيها أو تغييرها. من أهم تلك المعلومات بيان عدد المتابِعين وعدد المتابَعين وعدد التغريدات. يعرض تويتر هذه البيانات للجمهور الرقمي لكي تساعده في اتخاذ قراره في متابعة الكاتب الرقمي من عدمها، وقرار المتابعة يدل على حصول الكاتب الرقمي على ثقة المتابِع الأولية على أقل تقدير، وهي ثقة قد تتزعزع لاحقا أو ترسخ. وعرض تويتر، وهو المؤسسة المستضيفة، لهذه البيانات ومنعه الكاتب الرقمي من تغييرها تؤكد ما ذكرته سالفا وهو أن المؤسسة المستضيفة هي قطب ثالث بالغ الأهمية في العملية التواصلية الرقمية إذ إنه يحدد طبيعة التواصل بين الكاتب وجمهوره الرقميين. ومن ثم نجد بين المؤسسات المستضيفة تنوعا قوامه الاختلاف في السياسة المحددة لطبيعة التواصل بين المرسل والمتلقي الرقميين، ليجذب هذا التنوع بدوره شريحة ما من الناس. فإذا كان توتير كما رأينا يعرض للجمهور الرقمي بيانات مثل عدد متابِعي الكاتب الرقمي وعدد متابَعيه وتغريداته، فإن مؤسسة مستضيفة مثل سناب شات (Snapchat) تحجب مثل هذه البيانات ولا تعرضها للجمهور الرقمي.

تهدف الواجهة إذن لنيل ثقة الجمهور الرقمي الذي يزور كيان الكاتب الرقمي لأول مرة، ومن ثم تسعى الواجهة بكل محتوياتها أن تكون جاذبة لما يمكنني أن أطلق عليه "الجمهور الرقمي المستهدف". وعنصر الجاذبية هنا قصديّ، بمعنى أن الكاتب الرقمي عمد إلى تحقيق الجذب في واجهته لما له من أهمية. وما ذكره بي جي فوج عند حديثه عن جاذبية التكنولوجيا بشكل عام أراه متحققا فيما نحن في صدده، يقول فوج: "كلما ازدادت جاذبية التكنولوجيا (التطبيقات والبرامج أو واجهة الاستخدام)،

ازدادت درجة قوة الإقناع من خلالها، على عكس التكنولوجيا الخالية من الجاذبية".[٣١] ويحاول فوج أن يبحث عن سر الجاذبية، سواء تلك التي يتمتع بها الأشخاص أو التكنولوجيا، في الإقناع، ويصل إلى أن "الجاذبية تنتج "هالة تأثير"، ومن ثم فإن الناس تفترض في الشخص الذي يملك جاذبية مادية جسدية أنه يملك أيضا الكثير من الخصال الحميدة مثل الصدق والذكاء".[٣٢] والكاتب الرقمي إذن يحاول أن يخلق هالة التأثير هذه لكي ينجح في التأثير على الجمهور الرقمي وإقناعه بما يريد. وعنصر الجاذبية هو نسبي، يختلف من "ثقافة إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر، ومن فرد إلى آخر".[٣٣] ومن ثم فإنه على الكاتب الرقمي أن يحدد جمهوره المستهدف الذي تسعى الواجهة إلى جذبه.

الجانب التطبيقي للدراسة:

لنأخذ مثالا عمليا كاتبين اثنين لهما تجربة جيدة في الكتابتين الورقية والرقمية. فكلاهما مؤلف له كتب ورقية مطبوعة، ولكليهما كيان رقمي على تويتر عمره لا يقل عن أربع سنوات، وكلاهما كاتب رقمي نشيط. أما الأول فهو سعدية مفرح التي أنشأت كيانها الرقمي في تويتر في ديسمبر ٢٠١٠ وقد بلغ عدد متابعيها حتى تاريخ كتابة هذه الدراسة ١٣٣ ألف متابع، ونشرت ٢٥ ألف تغريدة، ولها عدد الكتب المطبوعة. وأما الثاني فهو د. فواز اللعبون الذي أنشأ كيانه الرقمي في تويتر في ديسمبر ٢٠١١ وقد بلغ عدد متابعيه حتى تاريخ كتابة الدراسة ٨٠ ألف متابع، وله ٣٤ ألف تغريدة، وله عدد من الكتب المطبوعة.

لنستعرض بدايةً واجهة كيان سعدية مفرح الرقمي على تويتر. وضعت الكاتبة صورة شخصية لها توحي بأنها في محفل عام، وهي لا تتوجه إلى عدسة التصوير بعينها

أثناء التقاط هذه الصورة، وإنما تنظر إلى طرف آخر لا نراه في الصورة وتتكلم معه، ويدها مرفوعة بما يوحي بأنها كانت في لحظات اندماج مع ذلك الطرف الآخر، وهو الجمهور في ذلك المحفل. والناظر لهذه الصورة يدرك من الوهلة الأولى أن صاحبة هذا الكيان الرقمي إنسانة متحدثة في المحاضرات والمحافل العامة. أما النبذة التعريفية فقد كتبت كما يلي:

"كاتبة وصحفية، صدر لي ١٨ كتابا شعريا ونقديا. تواضعت أحلامي كثيرا إلا واحدا منها: أن أصلي الفجر في الأقصى.. بعد تحريره. # الكتابة - هي - الحل #هذا - الجناح - جناحي"

النبذة التعريفية هنا تأتي مكملة لصورة الكاتبة الشخصية، فإذا كان الزائر الرقمي لكيان الكاتبة الرقمي قد أدرك من النظرة الأولى إلى الصورة الشخصية أن صاحبتها إنسانة متحدثة، فإنه لا يعرف أي مجال من مجالات المعرفة تسلك صاحبة الصورة. أما بعد أن يقرأ الزائر الرقمي النبذة التعريفية، فإنه يعرف أن صاحبة هذا الكيان الرقمي ممن يشتغلون بالأدب والثقافة، فهي قد ذكرت بأن لها ثمانية عشر كتابا، ووصفت تلك الكتب بأنها كتب شعرية ونقدية. ثم بينت الكاتبة للزائر الرقمي أنها تشاطر الأمة الإسلامية همومها، فهي ليست مجرد كاتبة تقتصر اهتماماتها على نفسها ومن في محيطها القريب، وإنما يأتي على رأس أولوياتها التي تسعى لتحقيقها تحرير المسجد الأقصى والصلاة فيه، ولهذا السبب اختارت المسجد الأقصى صورة خلفية، ومن ثم فإنها تخلق انسجاما بين الصورة الخلفية والنبذة التعريفية.

احتوت النبذة التعريفية أيضا على وسمين (two hashtags)، أما الوسم الأول "# الكتابة – هي - الحل" فيقدم للزائر الرقمي فلسفة الكاتبة الحياتية بثلاث

كلمات موجزة، فهي كاتبة تؤمن بأن القلم سلاح ناجح لمواجهة العقبات وتحقيق الأهداف، صغيرة كانت أو كبيرة، بما فيها هدفها بأن تصلي بالمسجد الأقصى بعد تحريره. وهذا الوسم أيضا يأتي بمثابة جواب لسؤال قد يطرحه الزائر الرقمي: لماذا تكتب هذه الكاتبة؟ فيأتي الجواب بأنها تكتب لإيمانها بأن للكتابة دورا كبيرا في حياة الفرد والأمة. أما الوسم الثاني "#هذا_الجناح_جناحي" فإنه يلفت نظر الزائر الرقمي ويستثير فضوله مما يدفعه للضغط على الوسم ليقرأ عنه المزيد، ينقله الضغط على هذا الوسم إلى الاطلاع على كل ما قيل عن "هذا الجناح جناحي"، ويكتشف الزائر الرقمي بعد ضغطه على الوسم أن هذا عنوان لكتاب من كتب سعدية مفرح، وأن هذا الوسم قد جمع كل ما قيل عن ذلك الكتاب. أما الإيجاز فإنه لا يخفى في هذه النبذة، والسبب الداعي لهذا الإيجاز هو عدد الحروف المحدود الذي يجب أن لا تتجاوزه النبذة التعريفية في تويتر، وتتمثل مظاهر الإيجاز في هذه النبذة في عدم ذكر الكاتبة الرقمية هنا لكثير من المعلومات مثل اسم المؤسسة الصحفية التي تنتمي إليها، وعناوين مؤلفاتها، وفي حذف الموصوف "المسجد" والاكتفاء بالصفة "الأقصى". أما خانة الموقع الإلكتروني فقد وضعت الكاتبة فيها رابطا إلكترونيا لكيانها الرقمي على الفيسبوك، ليكون بيانا للزائر الرقمي بوجود كيان رقمي لها مستقل عن تويتر.

لننتقل إلى واجهة فواز اللعبون لكيانه الرقمي على تويتر. أما صورته الشخصية فإنها صورة له وهو مرتدٍ زيَّه الخليجي، ويشير بسبابته جهة عدسة التصوير التي التقطت الصورة، فهو إذن يشير إلى الزائر الرقمي الذي ينظر إلى الصورة. ويظهر على الصورة استخدام مؤثرات تقنية جعلت الصورة تبدو قديمة قريبة لصور الأسود والأبيض. ومن ثم فإن هذه الصورة الشخصية تحمل دلالتين، أما الدلالة الأولى فهي أن صاحب الصورة مستغرق في النظر في أفكار تخطر في باله، وإشارة السبابة توحي

بأنها أفكار تتعلق بالجمهور الـذي ينظـر إلى الصـورة. وأمـا الدلالـة الثانيـة فهـي أن الأفكار التي يحملها صاحب الصورة مرتبطة بشكل أو بآخر بالتراث القديم، وهذا مـا توحي به المؤثرات التقنية المستخدمة.

أما النبذة التعريفية فقد كتبت كالتالي:

"هنا أنا (قُدْموس) بكل تلقائيته ودون أي صفة رسمية. مهتم بكم وبفنون اللغة وبجلد ذوات الخائبين. معظم تغريداتي في مفضلتي المكتنزة بما يسر ويسوء".

وصف اللعبون نفسه بأنه "قُدموس"، بمعنى أنه "قـديم"،[٣٤] ليعطـي الزائـر الرقمـي انطباعا بأنه قد جاء من زمن سحيق. ويسعى اللعبون لتحقيق هذا الانطباع من خلال الصورة الشخصية كما رأينا ومن خـلال المعنـى المعجمـي لكلمـة "قـدموس". وصـف اللعبون نفسه بأنه يظهر هنا في هذا الكيان الرقمي "دون أي صفة رسمية"، الأمر الـذي يعني أن له صفة رسمية يتمتع بها خارج كيانه الرقمي، غير أنه تجرد منهـا هنـا. وهـذا سيثير فضول الزائر الرقمي للسعي لمعرفة طبيعة تلك الصفة الرسمية، وأيسـر طريـق لمعرفتها هو استعراض بعض التغريدات التي احتواها هذا الكيان الرقمي، وسرعان ما سيعرف أنه أستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه. يـبين الكاتـب الرقمـي بعـد ذلـك اهتماماته، هو "مهتم بكم وبفنون اللغة وبجلد ذوات الخائبين"، تنصب اهتماماته علـى ثلاثة أمور، الأمر الأول هو الجمهور الرقمي نفسه، فهو مهتم بمن يزور كيانه الرقمي. الأمر الثاني هو اللغة بعلومها المختلفة: النحو والإملاء والبلاغة والصـرف وغيرهـا. أما الأمر الثالث فمجتمعيّ يتمثل في تسليط سـهام النقـد تجـاه المفسـدين في المجتمـع. تحتوي النبذة التعريفية كذلك على محاولة استثارة فضول الزائر الرقمي ودفعه لقـراءة

التغريدات التي يحتفظ بها الكاتب الرقمي في مفضلته، وذلك بوصفه إياها بأن منها "ما يسر" وكذلك منها "ما يسوء". أما خانة الموقع الإلكتروني فإن الكاتب الرقمي يضع فيها كيانا رقميا لـه في موقـع تواصـلي آخـر وهـو إنسـتغرام، ليكـون في ذلـك إشـارة إلى استقلاليته الرقمية عن تويتر. وأما الصورة الخلفية فإن اللعبون يختار صـورة لـه وهـو يحمل بين يديه كتابا له بعنوان "تهاويم الساعة الواحدة"، وأضـاف علـى هـذه الصـورة صورة ختم قديم تُقرأ طبعته: "د. فواز بن عبد العزيـز اللعبـون"، والنـاظر لهـذا الخـتم يستدعي مباشرة صور أختـام الخلفـاء قـديما. ولا شـك أن هـذا يـأتي منسـجما مـع الانطباع الذي يهدف اللعبون لتقريره في قلب الزائر الرقمي، وهو أن ما يطرحه هـذا الكيان الرقمي مختلف عن كل شيء آخر، إنها أطروحات جاءت من الزمن السحيق.

أما الرسالة فمن خلالها يستطيع الكاتب الرقمي أن يستخدم فيهـا نـوعين مـن الحجج، وهمـا مـا أسماهمـا أرسـطو بــ "الانفعـال" (pathos)، و"المنطـق" (logos). فيستطيع الكاتب الرقمي أن يستثير عاطفة جمهوره لإقناعهم بشيء ما. لنأخذ نموذجـا لرسالة لسعدية مفرح تقول فيها: "زيارة والدك أو والـدتك المريضـة في المستشـفى لـن تعطلك عن أعمالك، ولكن عدم زيارتك لهما بالتأكيد تعطلك عن دخـول الجنـة".[٣٥] تستثير الكاتبة الرقمية هنا عاطفة القراء الدينية لتقنعهم بضرورة زيارة آبائهم بإحداث انفعال عاطفي ديني. وفي رسالة لها أخرى تقول: "لا يغرنك أيها المبدع مديح مجاني إن كان صادراً عن قلب يتآكل بالغيرة والحسد، فهـو لـيس سـوى طُعـم يسـتدرجك إلى الهاوية".[٣٦] تستثير الكاتبة الرقمية في القراء مشـاعر الخـوف لـديهم لتقـنعهم بضـرورة الحذر من الأعداء الماكرين ممن يظهرون الثناء ويضـمرون عكـس ذلـك. أمـا حجـج المنطق فنجد على سبيل المثال لدى الكاتبة الرقمية رسالة تقول فيها: "عثرت اليوم على هذه المقالة العظيمة جدا لعمر بن الخطاب رضي الله عنـه: "يعجـبني الرجـل إذا سـيم

خطة ضيمٍ أن يقول "لا" بملء فيه."[٣٧] هي هنا توظف الاقتباس، والاقتباسات تندرج في حجج المنطق، لإقناع القارئ بضرورة رفض الظلم. وفي رسالة أخرى نراها توظف المعلومات التاريخية لتحقيق هدفها، فتقول: "رواية جورج أورويل (١٩٨٤) التي ألقي القبض على طالب بتهمة حيازتها أصبحت في يوم واحد على قائمة أعلى المبيعات في مصر. درس مجاني للرقيب في كل مكان!"[٣٨] سعدية مفرح هنا تحارب تعسف الرقابة في حجب بعض الروايات، وتحاول إقناع القارئ بأن مقص الرقابة لن يجدي بتذكيره بحقيقة تاريخية كان الرقيب فيها الخاسر الأكبر.

عندما ننتقل إلى نموذجنا الرقمي الآخر، وهو فواز اللعبون، فإننا نجده يوظف حجج الانفعال والمنطق في رسائله. من تلك الرسائل قوله: "وصفة سعادة: أحضر آنية وُضوء، وسَجّادة فيها رائحة أُمّ، ثم اسجُدْ سجدةً تُقْلِق بها مَن حولَك."[٣٩] فهو يستثر هنا شعور السعادة ليقنع القارئ بضرورة الإحسان إلى الأم وضرورة إقامة الصلاة. أما حجج المنطق فنلفيها حاضرة لدي اللعبون كذلك. يقول في رسالة له موظفا السبب والمسبب حجة منطقية: "بما أنك تحب القرآن فأحبب لغته، واكتب اسم حسابك بحروفها المضيئة."[٤٠] فيجعل حب المخاطب للقرآن سبباً يؤدي إلى حب اللغة العربية التي نزل القرآن بها.

أما الحضور البشري أخيرا فإنه يحقق للكاتب الرقمي "الانفعال" (pathos)، وذلك من خلال مظهر التفاعل الابتدائي حينما تتزامن التغريدة مع أحداث يعيشها الجمهور كالوفاة والحروب والأعياد الدينية والعالمية والوطنية. لنرجع إلى نموذجينا الرقميين، نرى أن سعدية مفرح تهنئ أبناء وطنها من جمهورها الرقمي بالعيد الوطني لدولة الكويت قائلة: "كل عام والكويت حرة ومستقلة ومحفوظة بعين الله. كل عام والكويت حبيبتي."[٤١] فالكاتبة الرقمية هنا تضفي على كيانها الرقمي حضورا بشريا

يتمثل في تفاعلها مع العيد الوطني لدولتها. أما فواز اللعبون، فإنه يضفي حضورا بشريا على كيانه الرقمي بأن يشاطر، على سبيل المثال، أبناء وطنه الحزن لوفاة الملك عبد الله بن عبد العزيز، عاهل المملكة العربية السعودية، وانتقاله إلى جوار ربه في شهر يناير ٢٠١٥. فيقول في إحدى رسائله: "وفاة الملك عبدالله:

إلى اللهِ عبـــدُ الله شـــدّ رحالَـــهُ فطـوبى لمـاضٍ جَمَّـلَ اللهُ حالَـهُ
وما غاب عنا وهْو مـلءُ صـدورنا يـروع ويغـدو لا نمَـلُّ خيالَـهُ"[٤٣]

يبتدئ الكاتب الرقمي هنا التفاعل مع حدث كبير يعيشه جمهوره الرقمي وهو وفاة الملك عبد الله، ومن ثم فإن الجمهور يشعر بأن الكيان الرقمي ليس بعيدا عن عالمهم الواقعي بما يمر به من أحداث ومناسبات.

نجد إذن من خلال استعراضنا لهذه الأمثلة لكيانين رقميين لكاتبين خاضا التجربتين الورقية والرقمية أن بلاغة الإقناع الأرسطية حاضرة بتجليات رقمية حديثة، فالواجهة هي التجلي الرقمي الحديث للثقة (ethos)، والرسالة هي التجلي الرقمي الحديث للانفعال (pathos) والمنطق (logos)، والحضور البشري هو التجلي الرقمي الحديث للانفعال (pathos).

الخاتمة

وضحت الدراسة أن تحول الخطاب الإقناعي من خطاب ورقي يستهدف الجمهور العادي إلى خطاب رقمي يستهدف جمهورا رقميا في وسائل التواصل الاجتماعي هو ليس مجرد تحول في القالَب الذي يتمثل باستخدام الأجهزة الإلكترونية الرقمية، وإنما يمتد ليكون تحولا جوهريا ألقى بظلاله على ركائز بلاغة الإقناع الأرسطية الثلاث فظهرت في تجليات رقمية حديثة. وقد استطاعت الدراسة أن ترصد نظريا وتطبيقيا التجليات الرقمية لهذه الركائز في ثلاثة تجليات، هي: الواجهة والرسالة والحضور البشري. ونحن بهذا التنظير والتطبيق نفتح أمام الباحثين آفاقا جديدة في دراسة بلاغة الإقناع ونمهد الطريق لهم إلى ولوج عالم النصوص الرقمية ورصد ظواهرها ودراستها.

الهوامش والتعليقات:

١ عادل، عبد اللطيف. بلاغة الإقناع في المناظرة. بيروت: منشورات ضفاف، ط:١، ٢٠١٣، ص ١٥.

2 Johnson, Janet. "Twitter Bites and Romney: Examining the Rhetorical Situation of the 2012 Presidential Election in 140 Characters," Journal of Contemporary Rhetoric, vol. 2, no. ¾. (2012 .(

٣ التغريدات جمع تغريدة، وهو المصطلح العربي الذي سنستخدمه وهو المتعارف عليه للرسائل النصية المستخدمة في تويتر ولا يزيد عدد حروف التغريدة الواحدة على ١٤٠ حرفا. مركز معلومات الجوار الأوربي، استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، بدون مكان نشر، ط:١، ٢٠١٤، ص ٨.

٤ صمود، حمادي. "مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح"، من ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: كلية الآداب، مجلد XXXIX، ب ت، ص ١٩.

٥ صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص ١٨.

٦ العمري، محمد. في بلاغة الخطاب الإقناعي، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط:١، ٢٠٠٢. عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص ٧.

٧ أرسطوطاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار القلم، ط:١، ١٩٧٩، ص ز.

٨ السابق، ص ٩.

٩ العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي.

١٠ المنصور، محمد. تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على جمهور المتلقين، رسالة ماجستير. كلية الآداب والتربية، الأكاديمية العربية في الدانمارك. ٢٠١٢. ص ٢٤.

Hocks, Mary E. "Understanding Visual Rhetoric in Digital Writing Environments," *College Composition and Communication,* vol. 54, no. 4, (2003): *633.*

١١ وعلى ذلك، سأسمي فيما سيأتي من الدراسة النص المدون المطبوع بـ النص الورقي، وذلك لنفرق بينه وبين النص الرقمي.

١٢ النص بلغته الأصلية:

Interactive digital texts can blend words and visuals, talk and text, and authors and audiences in ways that are recognizable postmodern.

Hocks, "Understanding Visual Rhetoric in Digital Writing Environments," 629 .

13 Gurak, Laura J. *Cyberliteracy: Navigating the Internet with Awareness,* New Haven: Yale UP, 2001, 31.

14 Queen, Mary. "Transnational Feminist Rhetorics in a Digital World," *College English,* vol. 70, no. 5, Special topic: Transnational Feminist Rhetorics. (May 2008): 474.

15 Tapia, Alejandro. "Graphic Design in the Digital Era: the Rhetoric of Hypertext," *the MIT Press*. vol. 19, no 1 (winter, 2003): 5.

١٦ الراوي، بشرى جميل. "دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير: مدخل نظري"، الباحث الإعلامي، العدد ١٨، (٢٠١٢): ص ٩٥.

١٧ العمري، محمد. "بلاغة المكتوب وتشكيل النص الشعري الحديث"، مجلة علامات، ج ٥٣، م ١٤، (سبتمبر ٢٠٠٤): ص ٥٠.

18 Hocks, "Understanding Visual Rhetoric in Digital Writing Environments," 632.

١٩ عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص ٤٦.

٢٠ ارسطوطاليس، الخطابة، ص ٩.

٢١ السابق، ص ١٠.

٢٢ السابق، ص ١٠.

٢٣ السابق، ص ١٠.

24 Fogg, B. J. Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do, Morgan Kaufmann, 2002, 95.

25 Moran, Edward, and Francois Gossieaux, "Marketing in a Hyper-Social World: the Tribalization of Business Study and Characteristics of Successful Online Communities," Advertising Research, vol 50, (2010 .)

٢٦ النص بلغته الأصلية:

"People respond to computer systems as though the computers were social entities".

Fogg, Persuasive Technology, 90.

27 Griffin, Em. A First Look at Communication Theory, New York: Mc Graw-Hill, 2001, 403.

وانظر أيضا: الدبيسي، عبد الكريم علي، وزهير ياسين الطاهات، "دور شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي العام لدى طلبة الجامعات الأردنية"، مجلة دراسات، المجلد ٤٠. العدد ١، (٢٠١٣): ص ٦٩.

٢٨ النص بلغته الأصلية:

"Technology becomes an especially powerful tool when it allows the persuasive techniques to be interactive rather than one-way."

IJsselstijn, Wijnand; and others, "Persuasive Technology for Human Well-Being: Setting the Scene," *Persuasive*, LNCS 3962, (2006): 1.

٢٩ البريكي، فاطمة. مدخل إلى الأدب التفاعلي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط:١، ٢٠٠٦، ص ٤٩.

٣٠ النص بلغته الأصلية:

"Responding to a changing data flow and real-time data transmission."

Paul, Christiane. "Renderings of Digital Art," *Leonardo*, vol. 35, no. 5, (2002):471-484.

٣١ النص بلغته الأصلية:

"a more attractive technology (interface or hardware) will have greater persuasive power than an unattractive technology".

Fogg, *Persuasive Technology*, 92 .

٣٢ النص بلغته الأصلية:

"Attractiveness produces a "halo effect." If someone is physically attractive, people tend to assume they also have a host of admirable qualities, such as intelligence and honesty".

Ibid, 92-93.

٣٣ النص بلغته الأصلية:

"From culture to culture, generation to generation, and individual to individual".

Ibid, 94.

٣٤ لسان العرب، مادة قدمس.

35 Saadiahmufarreh. 09 Feb 2015, 17:39 UTC. Tweet. Retrieved from : https://twitter.com/saadiahmufarreh/status/564840972702347264

36 Saadiahmufarreh. 06 Mar 2015, 14:46 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/saadiahmufarreh/status/573857111689449472

37 Saadiahmufarreh. 25 Jan 2015, 16:17 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/saadiahmufarreh/status/559384596681211906

38 Saadiahmufarreh. 12 Nov 2014, 16:25 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/saadiahmufarreh/status/532569870148190209

39 Fawaz_dr. 25 Jan 2015, 23:27 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/fawaz_dr/status/559492834235924480

40 Fawaz_dr. 17 Apr 2015, 16:09 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/fawaz_dr/status/589098319785394177

41 Saadiahmufarreh. 25 Feb 2015, 12:00 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/saadiahmufarreh/status/570553814756884480

42 Fawaz_dr. 22 Jan 2015, 23:38 UTC. Tweet. Retrieved from: https://twitter.com/fawaz_dr/status/558408442960818177

المصادر والمراجع العربية

- عادل، عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط:١، بيروت: منشورات ضفاف، ٢٠١٣.
- صمود، حمادي، "مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح"، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. تونس: كلية الآداب، مجلد XXXIX. ب ت.
- العمري، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط:١، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢.
- العمري، محمد، "بلاغة المكتوب وتشكيل النص الشعري الحديث"، مجلة علامات، ج ٥٣، م ١٤، (سبتمبر ٢٠٠٤): ٤٦-٨٠.
- أرسطوطاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ط:١، بيروت: دار القلم، ١٩٧٩.
- البريكي، فاطمة، مدخل إلى الأدب التفاعلي، ط:١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦.
- الراوي، بشرى جميل، "دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير: مدخل نظري"، مجلة الباحث الإعلامي، العدد ١٨، (٢٠١٢): ٩٤-١١٢.
- المنصور، محمد، تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على جمهور المتلقين، رسالة ماجستير. كلية الآداب والتربية، الأكاديمية العربية في الدانمارك. ٢٠١٢.
- الدبيسي، عبد الكريم، وزهير ياسين الطاهات، "دور شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي العام لدى طلبة الجامعات الأردنية"، مجلة دارسات، المجلد ٤٠، العدد ١، (٢٠١٣): ٦٦-٨١.
- مركز معلومات الجوار الأوربي، استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، بدون مكان نشر: ٢٠١٤.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Hocks, Mary E. "Understanding Visual Rhetoric in Digital Writing Environments." College Composition and Communication, vol. 54, no. 4, (2003): 629-656.
- Gurak, Laura J. Cyberliteracy: Navigating the Internet with Awareness. New Haven: Yale UP, 2001.
- Queen, Mary. "Transnational Feminist Rhetorics in a Digital World." College English, vol. 70, no. 5, Special topic: Transnational Feminist Rhetorics, (2008): 471-489.
- Tapia, Alejandro. "Graphic Design in the Digital Era: the Rhetoric of Hypertext." The MIT Press, vol. 19, no 1, (2003): 5-24.
- Fogg, B. J. Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do. Morgan Kaufmann, 2002.
- Moran, Edward, and Gossieaux, Francois. "Marketing in a Hyper-Social World: the Tribalization of Business Study and Characteristics of Successful Online Communities." Advertising Research, vol 50, (2010): 232-239.
- Griffin, Em. A First Look at Communication Theory. New York: Mc Graw-Hill, 2001.
- IJsselstijn, Wijnand, and others. "Persuasive Technology for Human Well-Being: Setting the Scene." Persuasive, LNCS 3962, (2006): 1-5.

- Buck, Amber. "Examining Digital Literacy Practices on Social Network Sites." Research in the Teaching of English, vol. 47, no. 1, (2012): 9-38.
- Johnson, Janet. "Twitter Bites and Romney: Examining the Rhetorical Situation of the 2012 Presidential Election in 140 Characters." Journal of Contemporary Rhetoric, vol. 2, no. ¾. (2012): 54-64.

Paul, Christiane. "Renderings of Digital Art." Leonardo, vol. 35, no. 5, (2002): 471-484.

العتبات وخطاب
المتخيل في الرواية العربية المعاصرة

د. حبيب بوهرور
أستاذ مشارك - جامعة قطر

ورد البحث في ٢٢/ ١٢/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٩/ ٣/ ١٤٣٧هـ

العتبات وخطاب المتخيل في الرواية العربية المعاصرة

د. حبيب بوهرور

ملخص البحث

يقارب البحث مستويات تشكل خطاب المتخيل ضمن شبكة العلاقات الداخلية والخارجية في المتن الروائي، وذلك بالوقوف عند مجموع اللواحق المدعِمة لنسيج النص الروائي العربي المعاصر؛ على اعتبار أن هاته اللواحق والنصوص الموازية هي خطابات مضمَرة تارة ومعلنَة تارة أخرى؛ تساهم في تأسيس نوع من وسائط المثاقفة الضمنية والرؤى العرفانية على أساس أن الخطاب الروائي المعاصر في تقديري هو خطاب نخبوي يتوجه نحو البحث في كيفيات التلقي والتأويل، حين تصل النصوص الموازية إلى تحقيق مجموعة من المخرجات الجمالية والبلاغية والأيديولوجية المدرَكة بفعل القراءة والتلقي عند الأنتليجنسيا.

تتجلى أهمية البحث في مقاربة الخطاب الروائي العربي المعاصر من زاوية مختلفة تماما عن تلك المقاربات التي ألفتها الذوقية التقليدية من جهة، وركنَ إليها القارئ العربي من جهة أخرى. فلقد أضحى خطاب المتخيل الخطاب الأسمى في مكاشفة الذات تجاه الآخر ضمن سلسلة الإحالات النصية الداخلية والخارجية التي ينحتها المبدِع، وسعى إلى ادراكها المتلقي بفعل مجموعة موجَهَات بنيوية وسيميائية، فرضت حضورها كآلية قراءة و تلقي. وعليه يهدف البحث إلى:

- تَمثُّل بينة العتبات النصية ضمن الخطاب الروائي

- مكاشفة مستويات خطاب المتخيل في رواية ما بعد الحداثة
- الكشف عن هاته التمظهرات في نماذج روائية عربية منتقاة؛ تمثل في تقديري أنموذج الميتارواية العربية.

كما يطرح البحث تساؤلات منهجية ومعرفية معا، يدركها المتلقي في المتن مفصّلَة ومستدل عليها، منها:

كيف تتمثل رواية ما بعد الحداثة العربية أدوات كتابتها؟

- هل تتعدد الخطابات في المتن الواحد بتعدد أدوات الكتابة؟ وهل هذه الأدوات حكر على النخبة من الأنتليجنسيا؟
- هل أضحى خطاب العتبات خطاب تجليات أم خطاب عَتَمات في ظل فوضى التلقي والتأويل؟
- هل ساهمت تلك الخطابات في رفد الرواية العربية عالميا، أم أنها ساهمت في خلق فجوة إدراك معرفي؟

مقدمة

أدرك الخطاب الروائي العربي المعاصر أن آلية التشكيل الروائي المتداولة منذ النصف الثاني من القرن العشرين قد تغيرت بناء على معطيات اجرائية كثيرة؛ لعل أبرزها تلك الروافد النقدية الغربية التي أضحت تشكل الملمح التنظيري والتطبيقي في صياغة المتخيل الروائي العربي المعاصر.

وبالرجوع إلى عملية توصيف هذا الملمح، نقف عند تلك المتغيرات ضمن فضاء التشكيل الابداعي ذاته، فقد سعت الأنتيليجنسا* من كتاب رواية ما بعد الحداثة إلى النحت ضمن ثنائية المختلف لا المؤتلف بغية التأسيس لخطاب رؤيوي متجانس مع الذات لا الواقع كما ألفته الرواية التقليدية، وهو الأمر الذي عجّل ببعث ريادة خطاب السرد ضمن الأنواع الأدبية دون الخطابات الأخرى التي لم تستطع في تقديري احتواء التمظهرات الوظيفية لبنية الخطاب الأدبي المعاصر كمتغير قابل للانفتاح وليس ثابتا ضمن نمطية متداولة لا تحيل إلا على مشهد واصف مشترك.

لقد سعى الخطاب الروائي المعاصر إلى خلق علاقة رؤيا بين الذات والذات؛ عكس الخطاب القديم الذي اعتمد على تجسيد خطاب الذات تجاه الراهن من خلال الغاء الذات وتمكين الأخر عبر شخوص تقوم بدور كلاسيكي لا يحيل نحو أفق التوقع والتخييل، بل اجتهد في الوقوف عند المدركات المشتركة حسيا ضمن شبكة التواصل (مرسل ومرسل إليه ومتلق). وهنا تكمن المفارقة الجوهرية في مستوى الإدراك والتجلّي بين الخطاب الوصفي الكلاسيكي، والخطاب المتخيَّل الرؤيوي في الرواية المعاصرة أو رواية ما بعد الحداثة كما يروق للبعض الاصطلاح عليها. وعليه يأتي هذا البحث لمقاربة مستويات تمظهر خطاب التخييل في الرواية العربية المعاصرة من

خلال توجيه القارئ نحو تلقى مختلف العناصر الداخلية المحايثة[1] Immanente المشكلّة لبنية الخطاب الروائي المعاصر، وربطها بمستويات الوعي خارج بنية اللغة؛ وهو ما يحيلنا مباشرة إلى البحث عن العلائق الوظيفية المدرَكة بين العناصر الداخلية والمحيط الخارجي المتمثل في شبكة المتعاليات النصية والعتبات والنصوص الموازية، التي تتعالق مع النص الأم كبنية دالة ومحلية إلى خطابات مضمرة، من دون أن تؤدي الوظيفة الوصفية التقليدية ضمن هيكل الرواية الكلاسيكية.

يقارب البحث مستويات تشكل خطاب المتخيل ضمن شبكة العلاقات الداخلية والخارجية في المتن الروائي، وذلك بالوقوف عند مجموع اللواحق المدعِمة لنسيج النص الروائي العربي المعاصر؛ على اعتبار أن هاته اللواحق والنصوص الموازية هي خطابات مضمرة تارة ومعلنة تارة أخرى، تساهم في تأسيس نوع من وسائط المثاقفة الضمنية والرؤى العرفانية على أساس أن الخطاب الروائي المعاصر في تقديري هو خطاب نخبوي يتوجه نحو البحث في كيفيات التلقي والتأويل، حين تصل النصوص الموازية إلى تحقيق مجموعة من المخرجات الجمالية والبلاغية والأيديولوجية المدرَكة بفعل القراءة والتلقي عند الأنتليجنسيا.

تتجلى أهمية البحث في مقاربة الخطاب الروائي العربي المعاصر من زاوية مختلفة تماما عن تلك المقاربات التي ألفتها الذوقية التقليدية من جهة، وركنَ إليها القارئ العربي من جهة أخرى. فلقد أضحى خطاب المتخيل الخطاب الأسمى في مكاشفة الذات تجاه الآخر ضمن سلسلة الإحالات النصية الداخلية والخارجية التي ينحتها المبدِع، وسعى إلى ادراكها المتلقي بفعل مجموعة موجَهَات بنيوية وسيميائية، فرضت حضورها كآلية قراءة و تلقي. وعليه يهدف البحث إلى:

- تَمثُّل بينة العتبات النصية ضمن الخطاب الروائي
- مكاشفة مستويات خطاب المتخيل في رواية ما بعد الحداثة[٢] Roman Postmoderne
- مقاربة العلاقات الوظيفية للخطاب المحايث[٣] Discours Immanent
- الكشف عن هاته التمظهرات في نماذج روائية عربية منتقاة؛ تمثل في تقديري أنموذج ما وراء الرواية العربية.

وينقسم البحث إلى شقين؛ شق نظري يعرض لقضية الخطاب الواصف ضمن شبكة العتبات النصية، ومرجعيتها، وبنية المتخيل في المنظومة النقدية وصولا إلى ما وراء الرواية العربية، وشق ثان تطبيقي يحاول أن يتمثل بعض المدرَكات في المتن الروائي العربي المعاصر.

من هنا سيعتمد البحث على آليات منهجية متعدّدة بحسب مستويات الحضور والغياب في المتن؛ فسيحضر المنهج البنيوي والبنيوي التكويني حين التفصيل في قضية العتبات أو اللواحق النصية وربطها بالإحالات الثقافية والأيديولوجية المتشكِّلة ضمن مختلف الخطابات في الرواية. وسنستفيد من بعض مبادئ السيمائية التي من شأنها الإسهام في استنباط دلالات وفق أسس تأويل واعية خلال مرحلة القراءة التطبيقية.

يحاول البحث أن يطرح ويفصل الإجابات عن جملة من التساؤلات منهجيا، منها:

- كيف تتمثل الراوية العربية أو رواية ما بعد الحداثة العربية أدوات كتابتها؟، وهل هناك علاقة لتلك الأدوات بمحتوى المتشكل؟
- هل تتعدد الخطابات في المتن الواحد بتعدد أدوات الكتابة؟ وهل هذه الأدوات حكر على النخبة من الأنتليجنسيا؟

- هل أضحى خطاب العتبات خطاب تجليات أم خطاب عَتَمات في ظل فوضي التلقي والتأويل؟
- هل ساهمت تلك الخطابات في رفد الرواية العربية عالميا، أم أنها ساهمت في خلق فجوة إدراك معرفي؟

أولا : الجانب النظري: فضاء الرصد والتساؤل

١- العتبات وبنية الخطاب الواصف Méta-discours_

قبل جيرار جينيت Gerarld Genette بسنوات، تحدث الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault[٤] نظريا في كتابه الشهير "أركيولوجيا المعرفة L'Archéologie du savoir" عن نظرية ابستيمولوجية شاملة، قارب من خلالها مواضيع شتى كان من بينها موضوع" وحدات الخطاب Les Unités du discours " حيث راجع كيفية تشكل مستويات الخطاب في النص وفق محددات مسبقة، مفادها أن للنص مدركات مادية جاهزة تلي مرحلة وجوده أي إنتاجه أدبيا" فتمة تمييز مادي للنص من حيث أنه يشغل حيزا مكانيا محددا، ويملك قيمة اقتصادية، ويرسم بنفسه من خلال عدد من العلاقات حدود بدايته ونهايته"[٥]، وإلى جانب هاته المدركات المادية البعدية تتمثل في النص ذاته مدركات مسبقة وآنية تتقاطع كل واحدة منها مع مستوى خطاب معين لتحيل المتلقي نحو أفق التأويل؛ فحدود النص عند فوكو مبهمة وخفية؛ كونها تتشابك مع مجموعة من الإحالات النصية الخارجية التي تحددها الأوضاع والسياقات الفكرية والاجتماعية، يقول فوكو في حفرياته: "إن حدود كتاب ما من الكتب (نص ما من النصوص) ليست أبدا واضحة بما فيه الكفاية وغير متميزة بدقة؛ فخلف العنوان والأسطر الأولى والكلمات الأخيرة، وخلف بنيته الداخلية وشكله

الذي يضفي عليه نوعا من الاستقلال والتميز ثمة منظومة من الإحالات إلى كتب ونصوص وجمل أخرى؛ مما يجعله ككتاب (نص) مجرد عقدة داخل شبكة، أو مجرد جزء من كل، وهذه المنظومة من الإحالات تختلف بحسب الأوضاع والمقامات.. "[٦]. ونفهم من تحليل فوكو أن كل الخطابات متشكّلَة كوحدة ظاهرة أو مادية على حد تعبير الفلاسفة، وهو ما لا يحقق الرغبة في فصل الخطاب عن السياق في مختلف تمظهراته داخل النص كمحيط جامع، ولعل هذا التصور الأريكيولوجي للنص هو الذي مهّد للمجاهرة عند جيرار جينيت بسلة عتباته النصية الداخلية والخارجية؛ وأعتقد أنه قد استلهم سلته من مقاربات فوكو وجدلياتهالعرفانية، حين راح يمهد الطريق لمحترفي النقد الأدبي البنيوي وما بعد البنيوي في زمنه ويوجههم ضمنيا نحو قراءات جديدة ومختلفة وتركيبية للنص عموما، والنص الابداعي الروائي على وجه التخصيص.

إن كل بدايات التشكيل النصي عند فوكو "مجرد استئناف لها أو اختفاء وراءها أو إن شئنا الحقيقة، قلنا تغدو جميع البدايات هذا وذاك معا وترتبط هذه الفكرة بفكرة أخرى ترى أن كل خطاب ظاهر ينطلق سرا و خفية من شيء ما تمَ قوله، ليس مجرد جملة تمَ التلفظ بها، أو مجرد نص سبقت كتابته، بل هو شيء لم يُقل أبدا، إنه خطاب بلا نص، أو صوت هامس همس النسمة، وكتابة ليست سوى باطن نفسها، وعلى هذا النحو يُفترض أن كل ما يُعبِر عنه الخطاب تم التلفظ به في هذا الصمت شبه المطبق.. "[٧].

إن الخطاب في هذا المستوى ما هو إلا خطاب المُضمَر المعلَن في الوقت ذاته، سواء تمثل في النص ماديا أو لم يتمثل وبقي حبيس المدركات؛ لأن الخطاب المتمظهر في المتن الإبداعي وخاصة الروائي منه ما هو في الحقيقة إلا خطاب حضور مانعٍ لما لا

يستطيع السارد ومنظومته السردية قوله، وبهذا يصبح المقول نصا يحيل على المـا لا يقال، تُغديه مختلف السياقات التاريخية والاجتماعية والأيديولوجية؛ ليغدو في نهاية المطاف خطاب تأويل ينحت ما قيل من قبل، وليس لما سيقال بعد إنتاج النص ماديا. لهذا طلب فوكو بضرورة تعدي النص الجاهز، المسبق، الجامد الذي لا يحيل على نصوص أخرى متداخلة أو متشابكة معه، يقول:" علينا أن نقف موقفانقديا من تلك الأشكال المسبقة الجاهزة التي يتقمصها الاتصال، ومن كل التركيبات التي لا نتساءل حولها، وهذا ما يسمح أن نرفضها بصورة نهائية وبكيفية مطلقة، بل ينبغي خلخلة اليقين الذي يجعلنا نقبلها على علاتها؟ وإظهار أنها ليست بديهية ولا أولية، بل هي دوما نتيجة بناء يتعين معرفة قواعده.. "[٨].

والجدير بالذكر في هذا المجال أن فوكو قد مدّ النقد الأدبي الحديث بالرافد المصطلحي[٩] الذي انطلق منه الكثير من النقاد أمثال بارت وجينيت وجاكوبسون وحتى تودوروف، وهنا أقف عند مصطلحين اثنين بنى عليهما فوكو فلسفة الخطاب؛ وهما مصطلح الأركيولوجيا[١٠] Archéologie والجينالوجيا[١١] Génialogie، ففي الأول يصرح فوكو أن المصطلح لا علاقة له بالبنية اللغوية الجافة، وإنما بمستويات المتراكم اللغوي أو الأرشيف اللغوي الذي يُنتج الخطابات المتراكمة، وهذا ما لا يتقاطع مع مفهوم الجينيالوجيا المهتم بوصف البدايات والتواريخ، وإنما هي تحليل للخطاب في صيغة أرشيفية، فمنهج تحليل الخطاب (بما فيه النص الابداعي) عند فوكو "لايحلّل نظام اللغة أو المضامين أو الدلالات، كما لا يهتم بصدق الخطابات أو معقوليتها، وإنما يَنْصب التحليل على المنطوقات كأحداث وعلى قوانين وجودها، وعلى ما يجعلها ممكنة أو غير ممكنة"[١٢] في ظل العلاقات البنيوية التي تحيل على الداخل والخارج معا. وخلاصة ما سبق أن نظرية الخطاب وأسس قراءة النص عند فوكو وفق

منهجه الأركيولوجي تقوم على مقاربة وتحليل ونقد لمضمون النص من الجانب الأدبي والتاريخي والنفسي والفلسفي، والتعامل مع المنجز النصّي، الذي يتجلى مع الكتابة أثرا ماديا، على أنه فعل خلّاق، يتقاطع مع وسائط حياتية مختلفة، في إطار العلاقات البينية في المجتمع، وهي تلك العلاقات التي صرح بوجودها في دائرة النص وفي متنه معا، وهي التي طوّرها جينيت فيما يعرف بشبكة المتعاليات النصية التي تضم العتبات النصية والإحالات والنصوص الموازية، فلم يعد النص الأدبي -وفق النظرية الجينيتية الحديثة في الخطاب النقدي الحديث والمعاصر- ذلك النص العام والمجرد في الوقت ذاته حين كان يتناوله النقاد بالدراسة العامة والاكتفاء بكلمة نص Texte، وإنما تجاوز ذلك إلى حدود مقاربة النص ضمن مجموعة من الأطر المولّدة للدلالات، ضمن شبكة من المحمولات الثقافية والأيديولوجية التي تدخل ضمن سلسلة الكاتب والقارئ والمتلقي والسياق الاجتماعي. فمنذ أن أعلنت جوليا كريستيفا Julia Kristeva استبدال مصطلح حوارية Dialogisme الذي تأسس عند ميخائيل باختين ضمن نظريته الفنية والجمالية في مقاربة الجنس الروائي؛ والتي تقول بأن الحوارية تتخلل كل الحديث البشري وجميع العلاقات الإنسانية ومختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، أي كل ما يمكن أن يكون له معنى وفكرة من خلال تجلي مظاهرها في التهجين L'hybridation وتعالق اللغات القائم على الحوار، أدركت كريستيفا أن البديل الموضوعي لتدعيم مشروعها النقدي الحداثي هو اعتماد نظرية الهدم والتأسيس اصطلاحيا، فكان مصطلح التناصية Intertextualité؛ حيث عمدت إلى ربط البنية المصطلحية للنظرية التناصية بالمتغيرات الحاصلة في النظرية النقدية المعاصرة من جهة، ووفق مشروعها السيميائي ونظرتها للنص وأدبيته من جهة أخرى؛ مركزة فيما سبق على خلفيات المحمولين الثقافيين الماركسي والسيكولوجي...

وعليه أصبح المشروع النقدي عند جوليا كريستيفا يقارب النص على أنه مجال لإعادة تشكل الإبستيمولوجي والاجتماعي والسياسي، فهو المتعدد لسانيا وصوتيا، هذا ما أكده أنور المرتجى حين أورد أن كريستيفا قد استبدلت مصطلح الحوارية بالتناص مستفيدة من المنطق النظري الذي وظفه باختين فاسحة المجال لمن جاء بعدها لاستثمار مشروعها النقدي، بل وتجاوزه عمليا وتأسيس نظرية نقدية موازية تنطلق بإقرار مشروع كريستيفا. هذا ما قام به جيرار جينيت الذي أقرّ بأن مصطلح التناص قد استعمل لأول مرة ضمن مشروع جوليا النقدي في الستينيات من خلال تصورها للنظرية التناصية. ويذكر في كتابه "طروس، الأدب في الدرجة الثانية Les Palimpsestes. La litérature au secondedegrée" أن التناص هو الآلية الخاصة للقراءة الأدبية وهي وحدها في الواقع تنتج الدلالة، في حين القراءة الخطية المشتركة مع النصوص الأدبية لا تنتج المعنى، وبناء على ما سبق ذهب إلى الاعتراف أن موضوع الشعرية هو المتعاليات النصية التي عرفها بدقة قائلا: "التعالي النصي أو التسامي النصي (Transtextualité) هو سمو النص عن نفسه ليشمل كل ما يجعله في علاقة ظاهرة أو خفية مع نصوص أخرى"، يقول جينيت Genette: "يبدو لي اليوم ١٣ أكتوبر من عام ١٩٨١ أنني أدركت خمسة أشكال من المتعاليات النصية والتي سأحصيها في شكل متنامي وتجريدي "ثم قام بحصرها وتحليلها والاستدلال عليها كما يلي: التناص Intertextualité، المناص أو النص الموازي Paratexte، الميتانص Métatextualité، التعالي النصي Hypertextualité، ومعمارية النص Architextualité.[١٣]

لقد نما مشروع العتبات بقوة ضمن المشروع النقدي الكبير أي المتعاليات النصية، ووجد تقبلا اجرائيا واسعا في الساحة النقدية الغربية ومن ثم العربية، خاصة

حينما ربط جينيت موضوع الشعرية بتلك الوسائط النصية المبتكرة التي تحيل من فضاء النص المغلق بنيويا الى فضاء النص الشامل"ورغم وجود دعوات نقدية معارضة لمسألة الاهتمام بخطاب العتبات النصية،فإن المنجز النقدي العربي الحديث قد راكم رصيدا معرفيا، وقارب موضوع العتبات من زوايا نظر مختلفة وانطلاقا من أجناس أدبية متنوعة"[١٤].

فلسفة العتبات؛ من اللغة الواصفة Métalangage إلى مابين الخطاب Interdiscours

راجع النقد العربي المعاصر مسالة بالغة الأهمية في فلسفة الخطاب إنها مسالة اللغة الواصفة التي تتحد مع البنية المادية للنص(اللغة) فتُنتج نقدا بالمفهوم الاجرائي المتعارف عليه في نظرية الأدب وعلم النقد، وقد تحدث جينيت عن هذه اللغة ضمن نظرية المتعاليات النصية وبالضبط فيما يتعلق بالميتانص Métatexte أو ما وراء النص - وسيأتي تفصيل هذا لاحقا-، أما رولان بارث فقد ربط مباشرة اللغة الواصفة بالنقد؛ حين راح يفصل علاقتها بمضمون الخطاب الأدبي على أساس أن لكل خطاب من الخطابات خطابا موازيا يتأسس من جراء تفاعل اللغة الواصفة من البنية اللغوية الأم المكونة لمادة الخطاب المرجع، لهذا حدّد بارت موضوع الخطاب النقدي قائلا:"... أما موضوع النقد فبالغ الاختلاف، فهو ليس العالم، وإنما الخطاب هو خطاب الآخر، النقد هو خطاب حول خطاب آخر، وهو قول ثان أو لغة واصفة Métalangage مثلما يقول المناطقة"[١٥].

وإذا أردنا ربط شبكة المتعاليات النصية عند جينيت بما تفرَع عنها من عتبات نصية اصطلح عليها بالنص الموازري أو المناص Paratexte فإننا ندرك تلك العلاقة بين الخطاب الواصف وسلة العتبات بحكم أن الأخيرة تمثل التمظهر الطبيعي لموضوع

الخطاب أو اللغة الواصفة، وهذا ما فصّله جينيت ذاته ثم بارث أيضا، ولم يغفله دومينيك مانغونو[١٦] حين راح يضبط ويرصد مصطلحاته في تحليل الخطاب الأدبي؛ فالخطاب الواصف عنده له القدرة على تمكين المبدِع (الأديب) من مراجعة الملفوظ اللغوي لديه حتى بعد انتاجه، وإعادة النظر فيما قيل وما سيقال بالاعتماد على موجهات الخطاب التي يمكن حصرها في مستويات اللغة الواصفة المتمظهرة في شبكة المتعاليات النصية. ويجب أن نشير هنا إلى أن فلسفة العتبات لا تُدرَك بالإحصاء كأدوات اجرائية وتطبيقية يتلقاها الناقد تارة والمتلقي القارئ تارة أخرى؛ فيعيد صياغة مدركاتها بحسب آليات التأويل لديه على مستوى القراءة، لأن الخطابات التي يمكن أن تتداخل مع شبكة المتعاليات ومن ثم مع ما ينتج عنها من عتبات داخلية وخارجية هي الخطابات المفتوحة وليست المغلقة، فالخطابات كما يرى مانغونو"تتوزع على قطبين؛ من جهة قطب الخطابات المغلقة التي يسعى إلى أن يتماهى معها -كما ونوعا- مجموع المتلفظين ومجموع المتلفظين المشاركين(وهذا حال الخطابات العلمية)، ومن جهة أخرى هناك قطب الخطابات المفتوحة التي تنطوي على فرق كمي ونوعي بين مجموع المتلفظين ومجموع المتلفظين المشاركين... "[١٧]، وهذا حال النصوص الابداعية الأدبية وخاصة النصوص الروائية منها؛ فبحكم أنها مجموع خطابات مفتوحة يدرك المتلقي بصفته المتلفظ المشارك أن باستطاعته مشاركة الكاتب (المتلفظ الرئيس) في تشكيل الخطاب الموازي عبر تفعيل شبكة المتعاليات النصية ومساءلتها، وهذا بدوره يقودنا نحو ما اصطلح عليه دومينيك مانغونو بما بين الخطاب Interdiscours، فهي عنده مجموع الخطابات التي تنتمي لنفس الحقل الخطابي (رواية مثلا)، يقول:"... إن نحن أخذنا في الحسبان خطابا معينا فيمكننا أيضا أن نطلق ما بين خطاب على مجموع الوحدات الخطابية التي يدخل معها في علاقات، ووفق

العلاقة ما بين خطابية التي ننتصر لها، فقد يتعلق الأمر بخطابات مستشهد بها (عتبات)، وخطابات سابقة من نفس النوع، وخطابات معاصرة لأنواع أخرى.."[١٨].

أعتقد أن النقد الأدبي المعاصر قد أهمل جوهر وفلسفة العتبات النصية كوحدات خطاب، وليس كأدوات لتحقيق متعة نقدية ذاتية الإدراك لا تكلف الناقد جهدا فكريا وفلسفيا للوصول إلى لعبة التأويل السطحي لدى الكثير منهم، فعوض التركيز على تفعيل المبهم في ما بين الخطابية Interdiscursivité كفلسفة عمل على النص الأدبي، ارتضى الناقد السلامة وراح يحمل التناص مثلا كآلية اجرائية ما لا يتحمل. حتى جاء جينيت وأخرج التناص من دائرة الخطاب الضمني إلى دائرة الخطاب المفتوح الذي يعتمد شبكة علاقات عبر نصية Trans-textuele.

لقد أكد جينيت على ضرورة ربط النص في رحلة البحث عن الشعرية بشبكة المتعاليات وخاصة بالنصوص المصاحبة (العتبات) Paratexte وبالإطار التبليغي حيث يُوَطَّن Domicilier حضوره؛" فليس هناك تأويل ممكن إلا من خلال ارتباطه بهذا الاطار الذي يتغير في الزمان والمكان"[١٩]، لهذا أكرّر هنا أن لعبة الخطابات لعبة فلسفية لا تستقيم إلا بحسّ فلسفي، يبعد شبح التقويض عن عملية التأويل؛ خاصة إذا راجعنا تقسيم جينيت الدقيق للنص المصاحب (العتبات)، فهو عنده مصاحب مؤلفي Auctorial ويضم مثلا اسم المؤلف، التصدير، التمهيد، الإهداء، الهوامش، الإحالات..الخ. ونص مصاحب متعلق بالناشر Editorial مثل الغلاف، قائمة الكتب المنشورة، حقوق التأليف وغيرها..، ثم يجعل من النص المصاحب ذاته نصين؛ نصا محيطا Péritexte وهو كل ما لا ينفصل عن النص الأصل؛ كالعنوان وفهرس الموضوعات مثلا، ونصا شاردا Epitexte وهو النص الذي يتحرك خارج النص

الأصل حين يتدخل الناشر لتحقيق أهداف تجارية ودعائية على غلاف الرواية مثل قائمة المنشورات أو الإشهار... الخ"[٢٠].

وبدقة أشمل ذهب جان دوبوا Jean Duboi إلى توطين المصطلح الجينيتي (نسبة إلى جينيت) نهائيا ليحسم به الجدل بين النقاد في فرسا؛ فخصّص له مكانا في معجمه الموسوم"معجم اللسانيات وعلوم اللغة – ١٩٩٤)، وجاء في التعريف ما يلي: "...يطلق اسم المناص أو النص الموازي Paratexte على مجموع النصوص التي تكون على العموم مقتضبة ومصاحبة للنص الأصلي، ففي حالة كان النص كتابا يمكن أن يظهر النص الموازي في صفحة العنوان، التمهيد، التوطئة، الاستهلال، المقدمة، وفي صفحة الغلاف الداخلية وفي مؤثرات أخرى، وفي حال كان النص مقالا يظهر في الملخص، وفي الفهرس باللغة الأصلية أو باللغة الأجنبية، وفي حال كان النص مسرحية تجده في قائمة الشخوص، والتوجيهات المشهدية، ووصف الديكور، وتأثيث الركح والفضاء السينوغرافي... الخ"[٢١].

من هنا ترسَّخ المصطلح ضمن منظومة مصطلحات النقد المعاصر وبدأ يحقق حضورا كأداة نقدية اجرائية عند النقاد والمشتغلين في مجال تحليل الخطاب الأدبي، وعُرف أكثر في النقد الأدبي العربي المعاصر تحت اسم العتبات النصية، خاصة حين يرتبط بجنس الرواية المعاصرة، حيث أضحى من"التقانات التي يحرص الروائي على إبرازها، وتفعيل أدواتها التي تتعدد وتتنوع بحسب وعي الكاتب لأهميتها وضرورتها، وقوة حضورها وتأثيرها في سياق المتن النصي من جهة، وبحسب حاجة المدوَن الروائي[٢٢] من جهة ثانية.

وعليه تفتح العتبات النصية مسارا للقارئ نحو أفق التوقع والتأويل من جهة، وهو ما يشجع المتلقي على إنتاج اللغة الواصفة ضمن سلسة من الخطابات المحفزة على توليد أكثر من دلالة؛ ومن جهة ثانية تعمل العتبات على كسر قدسية النص كبنية لغوية مكتفية بذاتها لا تحيل إلا على ما هو محايث ضمن شبكة من الوسائط اللغوية الجافة. إنها بحسب جينيت " البوابة الرئيسة للولوج إلى بهو النص الروائي، والتعرف على متاهاته وتلمس أسرار لعبته وإدراك مواطن جماليته، لذلك فهي التي تسيج النص وتسميه وتحميه، وتدافع عنه وتميزه عن غيره، وتعين موقعه في جنسه، وتحت القارئ على اقتنائه..."[٢٣]. *

ورغم هذا الوهج في تلقى الأداة السحرية التي تقود القارئ نحو ممارسة سلطته على النص عبر استنطاق الهوامش ضمن ما أضحى يعرف اصطلاحيا بالمناص أو النص الموازي Paratexete، إلا أن الأمر سيحول"منهج البحث من الاعتناء بالنص إلى مراعاة الهامش والمحيط، فنصير إزاء مركزية الهامش بدل مركزية النص، وبانتقالنا من النص إلى المناص سنجعل من الملفوظات التي أدرجها جينيت ضمن استراتيجية المناص محورا ومرتكزا هاما في فعل القراءة، رغم أن الهامش لا يغني عن النص ولا يمكن أن يحل محله في جميع الأحوال"[٢٤].

من هنا ندعو إلى توخي الحذر في قراءة دلالات العتبات النصية، وعدم الانجرار نحو استسهال مدركاتها الخادعة؛ التي كثيرا ما توهم المتلقي وهو في حالة تأويل أسمى أنها على علاقة مباشرة بل متجانسة مع النص أو المتن خاصة الروائي منه، فتتحول من عتبة إلى عتمة* تزيد من تعمية النص وتقوده مرات نحو الابهام والتشتت والاسقاط؛" فلموقعها خارج النص يحسبها الدارس بمعزل عنه، فيقوم بتحليلها

وتأويلها دون عرضها على محك النص الذي يحقق دلالتها وتداولها، لأن شرط العلاقة الدلالية بين العتبة والنص شرط مكين لفهمه، فالتحليل الأدبي والتأويل المغرض للعتبة سيفك رقبة النص لذا وجب الحذر والتحذير من العتبة..."[٢٥]

٢- وهج التأويل - من الرواية Roman إلى الميتارواية Métaroman

اعتمدت الرواية المعاصرة على بعث آلية القراءة الفاعلة التي تحيل على خلق مدرَكات تأويل النص عند المتلقي والكاتب معا، فيعتمد كل منهما على التأمل الذاتي لإعادة إنتاج آليات قراءة النص الروائي من حيث حضور كتلته السردية المتمثلة في الشخوص والأحداث وحتى التيمات الموضوعات الداخلية، وهذا ما تعارف عليه النقد المعاصر بالتخييل الواصف أو الميتاتخييل Métafiction؛ وهي آلية سردية ما بعد حداثية تنفِّر المتلقي والقارئ من الواقع الحكائي الذي يشيئ الرواية ويعطيها زاوية نظر واحدة، و تقوده نحو نص سردي يحيل على الآخر ويتداخل معه وجوبا؛ حين يشتت زوايا المقاربة عن قصدية لإعلاء دور المتخيل دون الواقع. فبعدما كانت الرواية الحداثية رواية وسيط يعكس الواقع السردي عند السارد تجاه المسرود له، أضحت رواية ما بعد الحداثة رواية تداخلات عرفانية يشارك خلالها السارد حيوات الشخوص ويقيم معها حوارات تجريبية تتداخل مع السياقات من جهة، والبنية التركيبية واللغوية من جهة ثانية. وهنا تدخل لعبة التأويل والمساءلة العوالم الحكائية لتمارس سلطتها في مساءلة الواقع والكشف عن مجاهيل الذات الإنسانية المتمظهرة داخل شبكة المنظومة السردية الما بعد حداثية كالميتاتخييل، والسرد بضمير الروائي، والإحالات الخاصة من يوميات ومفكرات... الخ.

إن وهج التأويل الذي تحققه استراتيجية السرد ما بعد الحداثي عن طريق شبكة المتعاليات النصية وفي مقدمتها الميتانصية، والميتاروايةـ والميتاتخييل والميتالغة، سيقود حتماإلى انثناء Flexion الرواية على ذاتها كنص مغلق ومحيل في الوقت نفسه؛ على اعتبار أنها بهذه الموضوعة الجديدة تصبح النوع الأدبي الأقدر على البوح بما لا يقال، عوضا عما قيل أو سيقال. وهنا نتقاطع مع التساؤل المعرفي عند الأستاذ كمال الزغباني في معرض مقاربته الروائي والميتاروائي؛ متسائلا "هل أدركت الكتابة الروائيّة من تاريخها ما أدركته الفلسفة إبان اللحظة الكانطية*: لا إمكان لأيّ قول فلسفيّ إلا بما هو ارتداد نقديّ من العقل على ذاته ليعيد اكتشافها وليؤثّث بيته الخاصّ عبر تنظيم العلاقات بين ملكاته ووضع الحدود التي عليه ألاّ يتجاوزها حتى لا ينخدع في حقيقة قدراته؟أم إنّها لحظة هيغلية*: ماتت الرواية يومَ من أحشائها، انبجس الميتاروائيّ. يوم لم يعد للنصّ الروائيّ إمكان إلا بما هو سؤال عن ذاته وبها وفيها...قياسا على "مات الفن يوم ولدت الإستيتيقا" يساوي مات التعبير الجميل عن الفكر لحظة بلغ الفكر من مغامرة وعيه بذاته اللحظة التي لم يعد يمكنه فيها أن يقال على الحقيقة إلا بعنصر من صميمه الحميم: المفهوم؟"[٢٦]

لقد ارتبط مصطلح الميتاروايةـ بالرواية وبكل حديث عن آليات انكتابها، حيث أصبحت كتابة الهامش كمنطلق سردي بديلا لكتابة المركز الذي سيطر على تيمة الرواية منذ عقود، وسارت على نهج التخلي بدل التماهي، وهو ما جعلها تعتمد قوانينها الذاتية كفرضيات تؤسس لسيرورتها وبنيتها التخييلية، فقلد"اهتمت الرواية ما بعد الحداثية بدراسة مفترضاتها ومقترحاتها مستندة في ذلك على آليات خاصة في نقد ذاتها، وهي التي يسميها النقاد بالظاهرة الميتاروائية التي وجدت جذورها عند أبولويوس في الحمار الذهبي؛ حين نقل لنا معاناته مع اللغة التي يكتب بها، فهو لم

يكتف بالحديث عن الرواية التي يكتبها وإنما كان يقدم التعليقات والشروحات* عن الصعوبات التي يواجهها مع اللغة التي يكتب بها ومع القارئ أيضا.."[٢٧].

ويشرح جميل حمداوي توجه الخطاب الروائي نحو اعتماد آليات الخطاب الميتاسردي قائلا:" أن الخطاب الميتاسردي لم يتشكل في الحقيقة إلا مع الرواية الجديدة الفرنسية، والرواية السيكولوجية أو ما يسمى بتيار الوعي، وروايات تيل كيل، وروايات ما بعد الحداثة. وقد اهتم كتاب الرواية الجديدة بالكتابة الميتاسردية، وخاصة كلود سيمون (Claude Simon)، وألان روب كرييه (Alain RobbeGrillet)، وجان ريكاردو (Ricardou)، ونتالي ساروت (Sarraute)، وروبير بانجي (Robert Pinget)، وكلود أولييه (Claude Ollier)، ومارغريت دورا (Marguerite Duras)، وميشيل بوتور (Michel Butor)، وغيرهم... بتقنيات الكتابة الميتاسردية، متأثرين في ذلك بالدراسات البنيوية الشكلانية و السيميائية والبلاغية. ومن ثم، فقد عمق بعض كتاب الرواية الجديدة ونقادها هذا المفهوم، ونظَّروا له، فكلود سيمون يرى أن اللغة لا تفرق بين ماهو واقعي ومتخيل، وأن الغاية من الكتابة هي اكتشاف تحقق معجزة الكتابة ذاتها.وقد تعرض جان ريكاردو – بدوره– إلى مفهوم الرواية– مؤكدا أن الرواية لم تعد مرآة يتجول بها طول الطريق، بل هي أثر مرايا تفعل في ذاتها من كل ناحية.وهي بالتالي، لم تعد تشخيصا، بل هي تشخيص ذاتي."[٢٨]

عرّفت "ليندا هتشون Linda Hutcheon" الميتارواية في كتابها The metafiction قائلة: الميتارواية هي الرواية عن الرواية، أي الرواية التي تُدمِج داخلها تعليقا حول هُويتها السردية أو هُويتها اللغوية". وتعني هاته التقنية السردية عند عبد الله الخطيب تدخل الراوي خلال مجريات السرد مخاطبا القارئ مباشرة، أو محيلا

على صفحات سابقة من نصه الروائي، أو محاورا إحدى شخصيات روايته، وقد غدت هذه التقنية من ملامح ما بعد الحداثة في الممارسة الروائية....

ووُظف مصطلح الميتارواية في النقد الروائي الأوروبي والأمريكي المعاصر بقوة؛ حيث استأثرت الظواهر الميتانصية باهتمام النقاد من جهة والروائيين من جهة ثانية، ضمن أطر ومبادئ كتابة نقد ورواية ما بعد الحداثة، خاصة عند هاري بليك Harry Bleack في دراسته الشهيرة في مجلة تيل كيل Telle Quelle في العام ١٩٧٧ والموسوم بـ"ما بعد الحداثة الأمريكية"، وكذلك في تنظيرات الروائي الأمريكي جون سيمون بارت John Simmons Barth في دراسته الموسومة بـ: الاختلاف ما بعد الحداثي، المنشورة في مجلة شعرية Poétique عام ١٩٨١، ثم كتاب "جان فرانسوا ليوتار Jean-FrançoisLyotard والموسوم بـ: ما بعد الحداثة عام ١٩٧٧. كما قامت مدرسة "أمستردام" النقدية بتأسيس الجانب النظري والاصطلاحي لأدب ما بعد الحداثة، وأماطت اللثام على جملة من المصطلحات الوظيفية التي أدخلت على النص الروائي وخاصة الميتارواية والتفكير الفلسفي، ويبرز ذلك جليا في أبحاث وكتب كل من كيبدي فارغا Cepeda Varga (رواية ما بعد الحداثة) ١٩٩٠، وصوفي بيرتو Sophie Berto في (الانتظار ما بعد الحداثي) حول الأدب المعاصر في فرنسا ١٩٩١" وقد حاول هؤلاء نقل المتلقي إلى مساحة تلقي جديدة من خلال الدعوة إلى هدم أسس البنية السردية الحديثة والتسامي إلى عوالم نصية تقود نحو الهدم والتأسيس والتساؤل والتجاوز.[٢٩]

وانطلاقا من العرض السابق نرى أن آليتي الميتارواية والميتاتخييل كظاهرتين من ظواهر الميتانصية قد مكنا على المستوى النقدي من انتاج نوع جديد من القراءة والتلقي، ووجها الخطاب نحو الأنتليجنسيا لتصبح الرواية أقرب إلى النخبوية منها إلى

الجماهيرية؛ وهـذا مـا يحـاول النقـد مـا بعـد الحـداثي بالاصـطلاح عليـه وتوصـيفه والانتصار له؛ فرواية ما بعد الحداثة لم تعد تسرد الحكاية بقدر ما أصبحت تهتم أكثـر فأكثر بالأداة الأساسية الساردة للرواية وهي الخطاب الواصـف بصـفة عامـة واللغـة الواصفة بصفة خاصة، وهو ما ينتج في تقديري قضـايا تناظريـة مهيمنـة Isotopie dominante كموضوع للأدب والرواية معا*.

بناء على ما سبق إيجازه لم تعد روايـة مـا بعـد الحداثـة روايـة تأخـذ تعاليمهـا وتوجيهاتها التركيبية من النقد الأدبي مثلما كان الحال لعقود في القرن العشرين، فقـد أصبحت تخلق وتُحدِّد مسارها ومجراها بنفسها كما يُحدد النهر مساره ومجـراه بنفسـه، فأضحت في تقديري عبارة عن مرايا مُقعَّرة تعكس ما بداخلها من داخلها ولداخلـها، أو هي عبـارة عـن زجـاج غـير معـتم Glace sans Tain علـى حـد تعـبير كلـود أباسطارو Claude Abastado، وهو ما يعطي الميتاروايةالقدرة على خلق تأملات ناقدة وَقتَ الكتابة ذاتها؛ الأمر الذي يُبعد شبح إفلاس النص والكتابة معـا؛ فتصـبح الكتابة قراءة للكتابة، والممارسة تنظيرا للممارسة*.

ثانيا: الجانب التطبيقي: خطاب المتخيل؛ من كتابةِ المغامرة إلى مغامرةِ الكتابة

لتقديم صورة واضحة عما أفرزه الخطاب الواصـف في مختلـف تجلياتـه ضـمن شبكة المتعاليات والعتبات في رواية ما بعد الحداثة، نقف معًا عند مجموعةٍ من الأعمال الروائية العربية المعاصرة؛ التي وإن خضعت لاستنطاق محايـث ومحيـل نحـو مـدرَكات التخييل نستطيع أن ننعتها بجرأة – يختلف الكثير معنا حول هذا- روايـات عربيـة مـا بعد حداثية. وحيث أنني لا استطيع في هذا الفضاء البحثي أن أتناول كل روايـة علـى حدة، فإنني سأتناول نماذج من الخطابات في بعض المتـون الروائيـة كخطـاب العتبـات

(عناوين، مقدمات)، وخطاب التخييل بأبعاده التاريخية والاجتماعية، وخطاب الميتاتخييل والميتاسرد. على أن أتوسع في اللواحق النصية المتبقية في أبحاث قادمة إن شاء الله.

١- العنوانُ عتبة وفاتحة نحو التخييل

يعكس العنوان حمولات دلالية مكثفة داخل بنية النص الروائي، كونه العلامة اللسانية الأولى التي يقاربها القارئ على سطح الغلاف، حيث تتشابك أمامه وتتداخل مختلف الدلالات السيميائية والرمزية المحيلة على عوالم من التأويل لا تستقيم بالضرورة أماما القارئ التقليدي، بل تحتاج إلى قارئ نخبوي لا يمارس تقانات التأويل إلا وهو مُتمرِّس بخبايا النص وسياقاته. لهذا أصبحت دراسة العنوان ومقاربته لعبة مُمَنْهَجَة ضمن كتلة النصوص الموازية أو العتبات من جهة، وضمن السياق الإنتاجي للرواية كسلعة تجارية من جهة ثانية؛ لأن دلالة العنوان في الرواية المعاصرة "تتجاوز دلالاته الفنية والجمالية لتندرج في إطار العلاقة التبادلية الاقتصادية والتجارية تحديدا؛ وذلك لأن الكتاب لا يعدو كونه من الناحية الاقتصادية منتوجا تجاريا يفترض فيه أن تكون له علاقة مميزة، وبهذه العلامة بالضبط يحوِل العنوان المنتوج الأدبي أو الفني إلى سلعة قابلة للتداول، هذا بالإضافة إلى كونه وثيقة قانونية وسندا شرعيا يثبت ملكية الكتاب أو النص وانتماءه لصاحبه ولجنس معين من أجناس الأدب أو الفن".[٣٠] ومع هذا هناك من تجاوز الغاية السابقة وراح يبحث في علمية تشكيل وصياغة العناوين من خلال إضفاء الصبغة العلمية عليها والاعتماد على علمي السيميائيات واللسانيات؛ فكان ما يسمى بعلم العنونة "La Titrologie" التي نادى بها جينيت، وجولدمان، وفَصَّل فيها ليو هوك Leo Hoek في كتابه الشهير "سمة العنوان La marque du titre"* معرفا العنوان بأنه "مجموع العلامات اللسانية (كلمات، مفردة،

جُمل) التي يمكن أن تندرج على رأس كل نص لتحديده وتدل على محتواه، وتغري الجمهور المقصود"[٣١]، لهذا أضحت المقاربات العنوانية مقاربات تنطلق من علوم الاجتماع والنفس تارة، ونقدية بحسب اختلاف الرؤى الإيديولوجية والمنظورات الذاتية والموضوعية تارة أخرى. فأصبح العنوان" المفتاح الإجرائي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا في فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره وتشعباته الوعرة"[٣٢].

وللاستدلال على ما سبق سأقوم بمقاربة عناوين بعض الروايات العربية المعاصرة التي أعتقد أنها تخطت حدود التقليدية (بالمفهوم السردي) في نسيج العنونة كعتبة جراء تدخل الميتانصية في رسم أفق انتظار المتلقي من قبل الروائي. وسأبدأ برواية "ياسين قلب الخلافة "[٣٣] للدكتور عبد الإله بن عرفة، وهي رواية تقع في ثلاثمائة وثمان وخمسين صفحة. فانطلاقا من عتبة العنوان "ياسين قلب الخلافة " تقوم الرواية باستدعاء المتلقي القارئ إلى عوالِمها دون أن تستسهل الذهابَ إليه بعناوين لها الإثارةُ المجانيةُ والاجتذابُ التجاري. إنها تتخذ من الحروفِ المُقطعة القرآنيةِ مُنطلقا رئيسا في استراتيجية العنونة، من خلال استلهام العتبة الأولى في الرواية -أي العنوان- من فواتح السور النورانية الأربع عشر، وهو أمر ألفه بن عرفه في سلسلة مشروعه الروائي البحثي؛ أو كما يسميه في بيانه بالمشروع العرفاني*، ولكن القارئ لم يألف مثل هاته العتبة المركبة المحيلة في الروايات العربية فقد صدر للروائي على هذا النهج إلى حد الآن سبع روايات تقاطعت عتبات العنوان فيها مع كنه المشروع السردي الصوفي، وحملت عناوينها فواتح السور النورانية: "جبل قاف"، "بحر نون"، "بلاد صاد"، "الحواميم"، "طواسين الغزالي"، "ابن الخطيب في روضة طه"، "ياسين قلب الخلافة". وعليه فقد حقَّق من ناحية التشكيل البنيوي المغايَرة والفَرادَة، وامتهن

التجريب في تشكيل عتبة العنوان، واستطاع مفاجأة المتلقي التقليدي، لكنه استطاع أن يجد له مكانا عند الأنتليجنسيا من قراء الرواية العرفانية.

أما رواية "السوريون الأعداء"[٣٤] للأستاذ فَوّاز حداد وهي رواية تقع في أربعمائة وأربعة وسبعين صفحة من الحجم الكبير، فأول مُدرك تخييلي يقع عليه متلقي الرواية هو النص المتَضَمَن في العنوان فعتبة العنوان تقود بالضرورة نحو نصٍ آخر، له دلالته الضمنية في الخطاب الواصف، فمعناه يتحدد اجرائيا من وظيفته؛ لقد تموضع العنوان في رواية "السوريون الأعداء "على صفحة الغلاف باللون الأزرق الداكن الدال على الحزن و مرارة العيش وفي الصفحة الأولى التي تلي الغلاف بلون أسود وفي ظهر الغلاف أيضا، وهذا نوع من التنصيص الموازي المرصودة بوعي في عملية التشكيل لدى فواز حداد. إن محاولة فك شفرات عنوان مثل: السوريون الأعداء، هي محاولة عويصة ومستعصية، لأنّه لا يفصح عن مكنونات النص المعطى ولا يلمح إلى القضايا المثارة فيه كما يتخيل المتلقي للوهلة الأولى، بل يظل عقدة ضخمة منسوجة بإحكام ضمن عوامل تاريخية وسياسية وثقافية يرجى مقاربتها بتأن وروية.

في المقابل، ترتسم في عنوان رواية "صنعائي"[٣٥] -التي تقع في مائتين وسبع وثمانين صفحة- لليمينة نادية الكوكباني صورة العلاقة بين لغة العَنونة ولغة النصّ،وهو المسار الذي يمكن بواسطته إدراك القيمة التعبيرية والتشكيلية لفلسفة النصّ السردي ذاته. فقدجاء العنوان عبارة عن وقفة متأنية وعميقة منفتحة على النص، تشحذ فيها القراءة مجمل آليّاتها في التأويل، نحو وصولٍ أبلغ وأكثر حيوية وكشفا إلى داخل المتن السردي.وعليه أضحت عتبة العنوان في رواية صنعائي عتبة مركزيّة تنطوي بنائياً على قدرٍ كبيرٍ من الحريّة في الانتماء والتجلي الأنثوي، تحيلنا مباشرة الى المتن النصيّ في أعلى درجات تطوّره وتفلّته من القواعد والضوابط.

أما رواية جواري العشق لرشا سمير وهي رواية تقع في خمسمئة وثلاث وثلاثين صفحة فتقاطع عنوانها "جواري العشق"[٣٦] مباشرة وتماهى مع فصول الرواية وشخوصها، فأضحى عتبة مُحيلة على المتن توجه المتلقي مباشرة نحو إدراك ذاته في الرواية من خلال ربط علاقة يختارها القارئ نفسه مع البطلات.ورغم هذا التقاطع المباشر، أعتقد أن الروائية قد أفقدت العنوان دهشته، وأفق تأويله وهذا في تقديري مأخذ سلبي كون الرواية المعاصرة؛ لا تحيل ولا تشرح ولا تعلم، وإنما تشير وتومئ وتفتح عوالم دهشة وتناص مع الذات والآخر معا؛ العنوان في الرواية المعاصرة، خاصة الرواية التي تطرح اشكالية حضور الأنثى داخل منظومة القيم العربية المتوارثة- وهو ما عكسه المتن هنا عبر مساراته التاريخية من عصر المماليك إلى يومنا هذا- لا تقدم للقارئ وسائط قراءة وتلق مجانية ابتداء من العنوان، وإنما تطرح الرؤيا وتنصرف إلى تشكيل ثان داخل المتن، ويبقى القارئ وحدة يصارع الخطاب ويؤوله ولعل في هذا متعة التلقي وكنهه.

واختلف الأمر تماما في رواية "ذَنَبْ"لياسر ثابت، ففي رواية وقعت في مائتين وصفحة،مَثلَ عنوان رواية "ذنب"[٣٧] مرآة مصغرة لكل النسيج النصي في الرواية، فقد وُفق الروائي في تقديري في رصده كعلامة ضمن علامات دالة ومُحيلة إلى قراءة أوسع لعتبة العنوان؛ باعتباره نظاما ونسقا يقتضي أن يطرح أمام المتلقي على أساس أن دلالة أية علامة في الرواية هي مرتبطة ارتباطا بنائيا لا تراكميا بدلالات أخرى في المتن. من هنا أضحى عنوان الرواية؛ علامة لسانية تحيل بعد مقاربة المتن إلى مجموعة علامات لسانية أخرى تشير إلى المحتوى الوجودي العام للنص الروائي. وبناء على ما سبق كان العنوان " ذنب" عبارة عن وقفة وجودية متأنية وعميقة، منفتحة بدلالاتها وإحالاتها على النص. وجاء عبارة عن صيغة مطلقة للرواية وكليتها الفنية والمجازية. فهو الصورة المتكاملة التي يستحضرها القارئ أثناء التلقي والتفاعل مع جمالية النص الروائي.

أما في رواية" التبس الأمر على اللقلق"[٣٨] – وهي رواية من الحجم الصغير وتقع في مائة وثمانية عشر صفحة- فالعنوان يندرج ضمن العناوين التي تحقق وظيفة التشويش La Fonction Parasitiveالتي يوظفها السارد بهدف تشويش الأفكار، ومفاجئة المدرَكات لدى القارئ، وكسر أفق انتظاره بانتقاء عناوين تصدمه عند قراءة النص.جاء العنوان إذا عبارة عن جملة فعلية فاعلها بطل الراوية، ورغم التركيب اللغوي المألوف إلا أن القارئ يجد نفسه في ارتباك وقلق وهو الأمر الذي يقوده إلى طرح عدة استفسارات مثل: من هو اللقلق؟ ولماذا التبس الأمر عليه وفيم؟ وما هي العلاقة بين الاسم والمسمى؟. من هنا ينفتح العنوان كعتبة محيلة بنائيا على عدة احتمالات تندرج في مستوى التّأويل الذي يُفعله المتلقّي بحسب قدراته التأويلية وعلاقتها بالعنوان والسياق، فأول عملية يحاول المتلقّي ممارستها عند تلقي هذا العنوان كعلامة وأيقونة، هي البحث في عناصره عن العلاقة السّببية بينها، كالعلاقة السّببية بين الفعل الماضي التبس والفاعل اللقلق. أعتقد أن الروائي قد وفق في تشكيل العنوان إلى حد كبير، ويبقى مدى تجانس العنوان مع المتن، حين ينتقل القارئ إلى البحث عن العلامات في المتن انطلاقا من عتبة العنوان.

٢- الخطاب المقدماتي؛ عتبة أم توجيه

يعتبر الخطاب المقدماتي من أهم العتبات النصية التي يعتمدها الروائي المعاصر في رسم استراتيجيات النص والتصدير له عند المتلقي بوصفه القارئ المفعّل للدلالات الوسيطة بينه وبين المعنى المضمر، الذي يحاول القبض عليه من خلال تلك اللواحق النصية الموجِه تارة والمتسلطة تارة أخرى؛ فالخطاب المقدماتي في تقديري لا يخرج عن دائرة التوجيه الفكري والأيديولوجي، إنه" خطاب موجه نحو النص والقارئ، قصد

بناء أو تحديد نمط القراءة المتوخاة، وهذه الوظيفة التوجيهية جزء من استراتيجية المقدِم في تحديد علاقة النص بالقارئ"[٣٩].

وإذا كان الخطاب المقدماتي يمثل المرحلة المتأخرة ضمن حركية تسلسل الخطابات العتبية كالعنوان والغلاف والإهداء والفواتح الخ، فإن المقدمة La Préface تمثل ذلك الخطاب القبلي على مستوى الفضاء النصي عند الكاتب، ولكنه يظل في الوقت ذاته خطابا بعديا إذا تم النظر إليه من حيث التراتبية داخل خط مسار السرد ذاته؛ لكنه يبقى متصلا اتصالا بنيويا بالنص الأصلي (الرواية) بحكم علاقتهما البينية التي تأخذ مجموعة من الوظائف التفسيرية و التوجيهية معا، ضمن سلسلة استراتيجيات الكتابة وأيديولوجيتها عند الروائي، والهدف من هذا أن الروائي خاصة الأكاديمي منه يسعى دوما إلى رسم خارطة قراءة للمتلقي بحثا عن النخبوية فيه؛ وهي التي ترسم معالم اتحاد رؤيوي حتى ولو كان هناك اختلاف أيديولوجي على مستويات الحضور والغياب في النص.

ومن أنواع الخطابات المقدماتية سأركز في هذا العنصر من البحث على نوعين أساسين هما خطاب المقدمة الذاتي وخطاب المقدمة الغيري وكلاهما في تقديري يؤسس لمجموعة من العلاقات الوظائفية المحيلة على الآخر وجوبا، بغية وضعه أمام ثلاثة أنواع أخرى من المقدمات أولها المقدمة المسترسلة وتكون في شكل مدخل أو بيان نقدي يتقدم عادة الروايات التي تعيد قراءة ومساءلة التاريخ من وجهة نظر خاصة، فيقوم خلالها الروائي بإعادة طرح الإشكالية التاريخية في سياقاتها المختلفة أمام المتلقي، ويحيله نحو المشاركة في إعادة قراءة التاريخ بأدوات الأدب في ضوء الراهن المعيش، مثلما فعل واسيني الأعرج في رواية الأمير، وعبد الإله بن عرفة في رواية ياسين قلب الخلافة وإبراهيم نصر الله في قناديل ملك الجليل، وسيأتي التفصيل

في هذا. أما المقدمة العادية فتكون في روايات الخيال العلمي والعجائبية وروايات ما بعد الرومانسية أو الرومانسية الجديدة كما هو الحال عند فيصل الأحمر، وأحلام مستغانمي في الأسود يليق بك، ونسيان كوم، أو في لها سر النحلة، وشارع إبليس لأمين الزاوي...الخ. أما المقدمات الغامضة فهي التي تترك المتلقي في حالة من العماء لا تقوده بصيرة لولوج النص، إلا إذا ارتقى إلى مستوى الروائي وشاركه لعبة التخييل، وندرك هذا في روايات رشيد بوجدرة ذات البعد الفلسفي الوجودي خاصة في رواية الصبّار الصادرة عام ٢٠١٠. حيث يؤسس إلى نموذج مختلف من التقديم ويعتمد الميتاقص ما وراء القص من خلال استدعاء النصوص دون إدراكها في المتن ضمن لعبة فلسفية يجيدها رشيد بتميز.

ورغم أن جيرار جينيت لم يكن من المشجعين على الخطاب المقدماتي حين قال أن المقدمة غير ضرورية ولا إلزامية أو إجبارية دائما،[٤٠] إلا أن الكثير من منظري الرواية المعاصرة خالفوه الرأي وشجعوا على كتابتها أمثال جاك دريدا Jacques Derrida الذي عدّها خطابا مساعدا لا يمكن الاستغناء عنه سواء على مستوى تلقى الأعمال و تقريبها للقارئ أو على مستوى خلق حوار نقدي..[٤١].

أما على المستوى العربي فقد أكد الروائي الجزائري الطاهر وطار على ضرورة حضور الخطاب المقدماتي خاصة في الروايات التي تساءل الراهن بوصفه نتاج لسيرورات تاريخية، فقال أنها كلمة لا بد منها، وكأنه يخاف من وقوع متلقيه في مطبّات عديدة، فلجأ إلى اقتراح هذا النص المصاحب، ولعل ما يحبس خوفه هذا قوله في المقدمة أن القارئ الذي ليس له ثقافة تراثية عموما سيجد نفسه مضطرا إلى مراجعة بعض المفردات والاصطلاحات كما قد يجد صعوبة في العثور على رأس الخيط. وبذلك يوضح وطار للقارئ ما يجب عليه فعله لفهم النص.[٤٢]

يَحضرُ الخطاب المقدماتي بقوة بارزة في رواية "ياسين قلب الخلافة" لعبد الإله بن عرفة، من خلال بيانه الأدبي الذي قدم به للرواية، وتوزع على أكثر من عشر صفحات، كتبه على شاكلة بيانات أدباء الحداثة وشعرائها، شرح خلاله مشروعه الروائي العرفاني قائلا:" إن ما يفيدنا به هذا النص هو المسار الفكري والروحي لصاحبه، والذي يلخص معالم الجمالية الأدبية العرفانية التي سعينا منذ بداية هذا المشروع الروائي إلى تأسيسها... "[٤٣]. وأعتقد أن السبب الرئيس الذي جعل الكاتب يقدم لروايته بهذا البيان هو أنها عبارة عن مشروع سردي تجريبي يتسم إلى حد كبير بالفرادة على مستوى الساحة الروائية العربية، فهو يطمح إلى تقديم قراءة سردية إبداعية عرفانية يتقاطع فيها ما هو بحثي تاريخي بما هو صوفي وتخييلي في التاريخ الإسلامي من خلال الاشتغال المعرفي الأدبي الرصين على فترة دقيقة جدا من تاريخ الأمة الإسلامية، أعنى الخلافة العثمانية. إنه يُعْلم المتلقي النخبوي من خلال خطابه المقدماتي أنه يسعى إلى التأسيس لما سماه "أدب جديد" ذي مرجعية قرآنية، يتكئ على مفهوم مختلف للأدب وغاياته المعرفية؛ التي يرى أن من أهمها إنتاج أدب معرفي يحقق تحولاً في وجدان القارئ ومعرفته وسلوكه. لهذا كانت المقدمة البيان تحاول تقديم متعة مزدوجة قبل ولوج عوالم الرواية؛ متعة التعرف على عالم إبداعي عرفاني صوفي يتميز بقدر غير يسير من التميز والجمالية، ومتعة اختبار رؤى نقدية متنوعة في الاقتراب من تجربة ما تفتأ تصرح بضرورة الاقتراب المختلف منها لطبيعتها العرفانية والأدبية المخصوصة وعيا وممارسة وبناء.

وعليه يمكن تعريف الرواية الحاملة لمثل هذا البيان المقدماتي بأنها رواية البحث والمشروع في الوقت ذاته، تدخل ضمن مشروع حضاري عرفاني، تقارب فيه تاريخ التصوف الإسلامي الذي يختزن أروع التجارب الروحية وأغناها ممارسة ومعرفة،

حيث يعمل جمال الروح وجمال اللغة على بناء نص جذاب زاخر بالمعارف والتلويحات العرفانية في قالب أسلوبي متفرد. من هنا أضحى العمل يندرج ضمن الرواية العالِمَة التي تتأسس على ثنائية تكامل المتعة السردية والمعرفة التاريخية والحلول الصوفي، بين ألقِ القراءة وعُمق المقروء. إنها راوية تقوم باشتغال عميق على الذاكرة والذات لنحت السؤال واخراجه في فرادة وتآلف معا.

أما في مجموع روايات الملهاة الفلسطينية *لإبراهيم نصر الله فإننا نسجل تنامي مدروس في توظيف عتبة التقديم مع كل نص حتى ولو اختلفت التقانة في رصد العتبة، ففي راوية قناديل ملك الجليل[٤٤] اعتمد الروائي على مقدمة من أربع صفحات جاءت تحمل عنوان إضاءات، رصد خلالها مراحل تشكل الرواية وظروفها، والمعيقات التي واجهته وبعض الأحداث الشخصية التي ارتأى أن يعرضها أماما المتلقي كتجربة تسبق العملية الابداعية والكتابة التاريخية معا. خاصة إذا علمنا أن الرواية تعبر عن تاريخ فلسطين والمنطقة وتضيئه على نحو باهر بشخوص حقيقية وأخرى متخيّلة، متنقلة بين فلسطين وسورية والأردن ومصر ولبنان وإسطنبول، عاجنة التاريخ بالقيم الكبرى وأسئلة الحب والموت والقدر والعلاقة مع الطبيعة في أعمق تجلياتها، ومتأملة التاريخ الروحي والميثولوجي لفلسطين، ومعيدة في آن الاعتبار لتاريخ نضالي وطني فلسطيني متألق، لقائد تاريخي فريد، في فهمه لقيم الكرامة والعدالة والتحرر والحق في الحياة، والتسامح الديني.

وبالإضافة الى التقديم الذاتي في شكل إضاءات، راح الناشر أيضا يرسم عتبته في عرض الرواية وتقديمها للمتلقي من خلال التأكيد على أنها رواية (قناديل ملك الجليل) تأسيسية، لا على صعيد الكتابة الروائية التي ترتحل بعيدا في الزمن الفلسطيني، فقط، وهو هنا نهايات القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر بأكمله تقريبا،

(١٦٨٩-١٧٧٥)، بل في بحثها الأعمق عن أسس تشكّل الهوية والذات الإنسانية في هذه المنطقة الممتدة ما بين بحرين: بحر الجليل (طبرية)، وبحر عكا. إنها ذروة ملحمية يرفع بها إبراهيم نصر الله مشروعه الروائي، ومشروع الملهاة الفلسطينية بشكل خاص، إلى موقع شاهق، وهو يكتب ملحمة ذلك القائد (ظاهر العُمَر الزّيداني) الذي ثار على الحكم التركي وسعيه لإقامة أول كيان سياسي وطني قومي حديث في فلسطين، وأول كيان قومي في الشرق العربي. هذا القائد الفريد الذي امتدت حدود (دولته) من فلسطين إلى كثير من المناطق خارجها.

أما رواية واسيني الأعرج رمل الماية–فاجعة الليلة السابعة بعد الألف–[٤٥] فقد قرر الروائي الاعتماد على التقديم الغيري كعتبة وواسطة خطاب تجاه المتلقي، فكتب الروائي عبد الرحمن منيف مقدمة في صفحة واحدة اختلف مكان تموضعها عبر الطبعات بين الغلاف والصفحات الأولى من الرواية، حيث أخذت وظيفتين من وظائف الخطاب المقدماتي، الأولى توثيقية أخذ طابع الشهادة من روائي معروف ومتفرد على الساحة العربية المعاصرة، والثانية أيديولوجية جمالية تشير الى المقومات الفنية للعمل الأدبي مع لمسة تجنيسية تحيل المتلقي نحو مدركات الخطاب، وقد كتب عبد الرحمن منيف ما يدعم الوظائف السابقة وغيرها حين خاطب المتلقي النخبوي مباشرة عبر استدعاء التاريخ والمسكوت عنه معا، وزاد القول على القول وهو الروائي المتمرس حين لخّص الرواية في كلمات دقيقة وإحالات للقارئ والأكاديمي معا، ففي رمل الماية يجدّد واسيني الأعرج "العلاقة بألف ليلة وليلة، لكن ضمن مناخ العصر الذي نعيش فيه، فشهرزاد التي قالت لشهريار ما يجب أن يسمعه منها كان قاسيا أو صعبا... كان التاريخ ذاكرة قبل أن يكون وقائع مفردة أو متفرقة حيث يصبح روحا إضافية للإنسان، وهذا ما يجعله حيا، وبالتالي متجاوزا للحنين، ليضعنا

في مواجهة الواقع الذي نعيشه الآن؛ لأن الدرس لا يرى مباشرة ولكنه يستخرج من السياق. رمل الماية إضافة نوعية وهامة للرواية العربية الأمر الي يحملنا على قراءتها بأكثر من طريقة وعلى أكثر من مستوى لأنها تقول لنا ما نسينا أو ما يجب أن نعرفه أو نتعرف عليه"[٤٦].

٣- الميتاقص التاريخي*، من العتبة إلى التخييل

تندرج تقانة الميتاقص في روايات ما بعد الحداثة في سياق ثورة الأنتليجنسيا على الواقع المستنِد إلى خلفيات تاريخية مؤسسية، لم تساهم النخبة أكاديميا في قراءة أحداثها التاريخية بمنهجية وليس بأيدولوجية موجِهة للحدث. من هنا قام في تقديري المشروع التخييلي عند الروائي المعاصر على إعادة "تفكيك الاهتمامات التخييلية لهذه النصوص (الروايات) من خلال ارتباطاتها بالنظريات التي تستند إليها كتابة التاريخ. فبالرغم من تأسيس الميتاقص التاريخي لذاته من خلال قدرته على مقاومة فرضيات الرواية الواقعية ومساءلة إمكانية المعرفة المطلقة بالماضي والمضامين الأيديولوجية للتمثيل التاريخي ماضياً وحاضراً، و كذلك البحث عن حقائق شمولية لوصف الحالة الإنسانية، إلا أن البعض يرفض طبيعة هذا النوع و سياساته؛ ففي دراسته الموسومة "الرواية الآن" لا يتفق ديفيد لودج David Lodge* مع توجه توظيف النظريات الحديثة أساساً لكتابة القص. وفي مكان آخر من نفس الدراسة يرفض لودج عدم الإيمان في وجود التاريخ؛ حيث يعتقد أنه يمكن للتاريخ أن يكون بمعنى فلسفي قصاً، لكنه لا يبدو كذلك عندما يفوتنا قطار ما أو عندما يبدأ أحدهم حرباً"[٤٧].

يدل حضور التقانة المتاقصية التاريخية في روايات ما بعد الحداثة على أن الكاتب قد أدرك أخيرا أنها احدى المعايير الأساسية للرواية؛ حيث يسعى الروائي إلى

عرض صورة التشابك مع كتاباته ويعرضها أمام المتلقي من دون رغبة في توجيهه أو تحديد مساره، وهذا ما يبرز في روايات واسيني الأعرج والطاهر وطار ورشيد بوجدرة وكلهم من الجزائر، حين يتحول الميتاقص عندهم وبالتحديد عند واسيني وبوجدرة إلى وحش يلتهم كل فضاءات الرواية، وقتها يصبح السرد التقليدي وسيلة ثانوية لتفعيل الأنا وحضورها أيديولوجيا أمام المتلقي الذي يفقد ثقته بالواقع؛ خاصة بعدما تَعرض أمامه الميتارواية واقعا جديدا أو متخيلات متشاكلة ومختلفة لم يألفها من قبل حين راجع السرد التقليدي. ففي راوية " الصبار"[٤٨] الصادرة سنة ٢٠١٠ لرشيد بوجدرة تتعالق البنية السردية الغير تقليدية في المتن مع روايتين سابقتين له من دون الإشارة إليهما وفق المعتمد السردي التقليدي. يؤسس رشيد في رواية الصبار لنموذج مختلف تماما من الميتاقص من خلال استدعاء النصوص دون ادراكها في المتن، فهي ثالث رواياته التي تتعمّق في طرح مسألة الثورة بعد روايتي "ضربة جزاء" (١٩٨١) و"التفكك" (١٩٨٢) التي يعود فيها إلى مكانة الشيوعيين ودورهم في صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية أثناء وبعد الثورة.

وكما هو الحالُ مع باقي أعمال بوجدرة، من الصعب تلخيصُ "الصبار"، فقصتها ليست خطا مستقيما تنتظم فيه الاحداثُ الواحد تلو الآخر في تسلسل زمني "منطقي". هي بالأحرى تسجيلٌ لحوار، جلُه ذهني صامت، بين صديقين التقيا في طائرة فاسترجعا في ساعة سفر ذكريات صباهما وشبابهما وظروفَ التحاق كل منهما بجبهة التحرير الوطني. في هذا الحوار ذي الهدف التَطَهُري (Cathartique) شبه المعلن، يتعمد أحدُهما- الراوي رشيد- الضغطَ على مواضع جراح قديمة غائرة في نفسه ونفس رفيقه (وابن عمه) عمر. فعلى طريقة المحللين النفسانيين، يدعو رشيد عمر إلى التخلص من أشباحه بمواجهتها، فالفكاكُ من الماضي مرهونٌ بإطلاق العنان لذاكرته

مهما كان إيلامها: هل حقا تعاوَن والدُه، محافظُ الشرطة المتفرنس مع الثوار؟ وإن فعل ذلك فهل عن اقتناع أم عن خوف من انتقامهم الرهيب؟ ما الذي دفع أخاه إلى الانخراط في منظمة الجيش السري (OAS) التي أنشاها في ١٩٦١ غلاةُ الأقدام السوداء (أي أوروبيي الجزائر) الرافضون للاستقلال، وما سرُ حميته البالغة في تقتيل إخوانه المستعمَرين؟

قد يكون وقوعُ هذا الحوار في الجو، على علو عشرة آلاف قدم إشارةً إلى صعوبة حدوثه في "ظروف عادية"، في بلاد لا يزال فيها تاريخُ الثورة الرسمي منبعَ الشرعية السياسية. أما اتجاهُ الطائرة التي يلتقي على متنها رشيد وعمر، مدينة قسنطينة، فرمزُ العودة إلى الماضي، حلوه ومره، مغامراته العاطفيةوصدماته العنيفة التي فتحت أعينَهما على وضع استعماري لم يكن بوسعهما تجاهله، بالرغم من انتمائهما إلى عائلة ميسورة.[٤٩]

أما رواية "فندق سان جورج"[٥٠] فهي قيمة مضافة بامتياز في مجال توظيف الميتاقص في رواية ما بعد الحداثة العربية، لقد تعالقت المستويات السردية في المتن مع متني روايتين سابقتين لها لنفس الكاتب دون أن يشير إليهما هما: رواية التفكك ورواية الحلزون العنيد، كما تحيل رواية فندق سان جورج إلى نص غائب/ حاضر في نفس الوقت هو مذكرات السيدة "قزافيني"التي قدمت مذكرات والدها حول حرب التحرير الجزائرية والحزب الشيوعي الجزائري خلال تلك الفترة للكاتب، فاعتمد على ما ورد فيها مباشرة في رسم أحداث رواية فندق سان جورج في أطر من الميتاقص المهيكل بضوابط سردية متفردة. يقول الروائي رشيد بوجدرة:"... يمكن اعتبار رواية "التفكك" كرواية النقد الذاتي بالنسبة للحزب الشيوعي أثناء حرب التحرير، من منطلق تجربتي الشخصية، فقد شاركت في الثورة وأعرف جيدا

صيرورتها. أما في رواية "نزل سان جورج" فالأمر يختلف، وقد تناولت موضوع الثورة لكن من زاوية مختلفة ومغايرة تماما. وبعد أن كنت أعتقد أنني انتهيت من هذا الموضوع عدت إليه ثانية بعد لقائي بهذه المواطنة الفرنسية التي قدمت لي مذكرات والدها الذي شارك كجندي في حرب الجزائر، وكانت النظرة هذه المرة من زاوية الآخر الذي عاش بدوره هذه الحرب كمأساة إنسانية حقيقية. أنا روائي الشرط الإنساني كما تعلمون، وكل أعمالي تتناول موضوع الإنسان والتراجيديا. إن رواية "نزل سان جورج" ليست رواية حرب، بل رواية عن الإنسان في خضم الحرب. وأعتقد أن قوة الرواية الحديثة والمُحدثة بالنسبة لي تكمن في إحداث القطيعة مع الرواية الكلاسيكية التي استغلها الروائيون العرب...."[٥١].

خاتمة

نصل في الختام إلى تسجيل بعض من الملاحظات الإجرائية التي يمكن أن ننطلق منها لتفعيل قراءات أخرى متداخلة مع أهداف ومخرجات هذا البحث، فالخطاب الواصف بتشعباته ومدركاته داخل النص يستطيع أن يتجلى أمام القارئ المتلقي في أبهى حلة؛ ولكن من دون الاحتفاظ بها لاعتبارات المتغير في النص ذاته؛ وفق مختلف أسس المتشاكل والمختلف في نظرية تحليل الخطاب الأدبي الذي يبقى- في تقديري- مع كل القراءات خطابا مضمرا ومعلنا في الوقت ذاته، سواء تمثل في النص ماديا أو لم يتمثل وبقي حبيس المدركات.إن الخطاب المتمظهر في المتن ا لإبداعي وخاصة الروائي منه ما هو في الحقيقة إلا خطاب حضور مانع لما لا يستطيع السارد ومنظومته السردية البوح به، وبهذا يصبح المقول نصا يحيل على المـا لا يقـال، تغديـه مختلـف السـياقات داخل المنظومة الاجتماعية التي تقوده إلى التشكّل كخطاب تأويل ينحت ما قيـل مـن قبل، وليس لما سيقال بعد ولادة النص. لقد نما مشروع العتبات بقوة ضـمن مشـروع المتعاليات النصية، ووجد تقبلا إجرائيا واسـعا في السـاحة النقديـة الغربيـة ومـن ثـم العربية المعاصرة، خاصة حينما رُبط موضوع الشعرية بتلك الوسائط النصـية المبتكـرة التي تحيل من فضاء النص المغلق بنيويا إلى فضاء النص الشـامل. فحـين راجـع النقـد العربي الحديث مسألة بالغة الأهمية في فلسفة الخطاب ألا وهي مسالة اللغة الواصفة التي تتحِد مع البنية المادية للنص (اللغة)، نتج عن هاته المراجعة نقد بالمفهوم الاجرائي المتعارف عليه في نظرية الأدب وعلم النقد؛ رغم أن النقد الأدبي العربي المعاصـر قـد أهمل في كثير من الأحايين جوهر وفلسفة العتبات النصية كوحدات خطاب، ولـيس كأدوات لتحقيق متعة نقديـة ذاتيـة الإدراك لا تكلـف الناقـد جهـدا فكريـا وفلسـفيا للوصول إلى لعبة التأويل السطحي لدى الكثير من المشتغلين في هـذا الحقـل المعـرفي،

فعوض التركيز على تفعيل المبهم في ما بين الخطابية كفلسفة عمل على النص الأدبي، ارتضى الناقد السلامة وراح يحمل التناص (بالمفهوم السطحي) كآلية اجرائية ما لا يتحمل. حتى جاء النقد الفرنسي المعاصر وأخرج التناص من دائرة الخطاب الضمني إلى دائرة الخطاب المفتوح الذي يعتمد شبكة علاقات عبر- نصية. وهنا أضحت العتبات النصية الوسيط الاجرائي والنقدي الرئيس في توجيه القارئ نحو أفق التوقع والتأويل من جهة، وهو ما يشجع المتلقي على إنتاج اللغة الواصفة ضمن سلسة من الخطابات المحفزة على توليد أكثر من دلالة، ومن جهة ثانية عملت على كسر قدسية النص كبنية لغوية مكتفية بذاتها لا تحيل إلا على ما هو محايث ضمن شبكة من الوسائط اللغوية الجافة. وعليه عملت الرواية المعاصرة ومنها العربية على خلق مدركات تأويل النص عند المتلقي والكاتب معا، من خلال إعادة إنتاج آليات قراءة النص الروائي من حيث حضور كتلته السردية المتمثلة في الشخوص والأحداث وحتى التيمات الداخلية؛ فوهج التأويل الذي تحققه استراتيجية السرد ما بعد الحداثي (ومنه العربي) عن طريق شبكة المتعاليات النصية وفي مقدمتها الميتانصية، والميتارواية، والميتاتخييل والميتالغة، سيقود حتما إلى انثناء الرواية على ذاتها كنص مغلق ومحيل في الوقت نفسه؛ على اعتبار أنها بهذه التيمة الجديدة تصبح النوع الأدبي الأقدر على البوح بما لا يقال، عوضا عما قيل أو سيقال. من هنا لم تعد رواية ما بعد الحداثة العربية الأنتليجنساوية في تقديري وانطلاقا من نتائج البحث السابق رواية تأخذ تعاليمها وتوجيهاتها التركيبية من النقد الأدبي "التقليدي" مثلما كان الحال لعقود في القرن العشرين، وإنما أصبحت تخلق وتحدّد مسارها ومجراها بنفسها كما يحدد النهر مساره ومجراه بنفسه، فأضحت عبارة عن مرايا مُقعّرة تعكس ما بداخلها من داخلها ولداخلها.

الهوامش والتعليقات:

* سأستعمل مصطلح الأنتليجنسيا في البحث للدلالة على كُتاب الرواية العربية المعاصرة من النخبة الأكاديمية.

١- المحايثة immanence : يعد مفهوم "المحايثة" من المفاهيم التي أشاعتها البنيوية في بداية الستينات، ليصبح بعد ذلك مفهوما مركزيا استنادا إليه يُفهم النص وتُنجز قراءاته. فـ"التحليل المحايث" هو وحده الذي يجيب عن كل الأسئلة ويدرك كل المعاني. والمقصود بالتحليل المحايث أن النص لا يُنظر إليه إلا في ذاته مفصولا عن أي شيء يوجد خارجه. والمحايثة بهذا المعنى هي عزل النص والتخلص من كل السياقات المحيطة به. فالمعنى ينتجه نص مستقل بذاته ويمتلك دلالاته في انفصاله عن أي شيء آخر. للتوسع راجع:

-André Lalande: Vocabulaire technique et critique de la philosophie, article Immanence

٢-تعبر كلمة ما بعد الحداثة Post-modernism عن مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الغربية تتميز بالشعور بالإحباط من الحداثة ومحاولة نقد هذه المرحلة والبحث عن خيارات جديدة. وتُفهَمُ حركات ما بعد الحداثة على أنها مشاريع ثقافية تصارع الراهن. وهي تُستخدمُ في النظرية النقدية لتشير إلى نقطة انطلاق أعمال الأدب، وفي تفسير التاريخ والثقافة والدين في وقتٍ متأخرٍ من أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

٣-للتوسع حول الخطاب المحايث Immanent Discours ينظر: كتاب حقيقة ومبادئ المحايثة، Jean-Claude Coquet, Réalité et Principes d'immanence

٤- ميشال فوكو: (١٩٢٦ - ١٩٨٤) فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، توصف أعمال فوكو من قبل المعلقين والنقاد بأنها تنتمي إلى "ما بعد الحداثة" أو "ما بعد البنيوية"، على أنه في الستينيات من القرن الماضي كان اسمه غالباً ما يرتبط بالحركة البنيوية. وبالرغم من سعادته بهذا الوصف إلا أنه أكد فيما بعد بُعده عن البنيوية أو الاتجاه البنيوي في التفكير.

٥-ميشال فوكو: حفريات المعرفة،Michel Foucaul, L'Archéologie du Savoir ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان ط٢، ١٩٨٧، ص٢٣

٦-ميشال فوكو، المرجع نفسه ص٢٣

٧-ميشال فوكو: حفريات المعرفة ص ٢٦

٨-المرجع نفسه، ص ٢٦

٩- للتوسع في هذه القضية المصطلحية راجع بحث:

- Dominique MAINGUENEAU, Archéologie et analyse du discours, Université Paris 12,(Communication à une table-ronde sur Foucault) le 23 juillet 1998 à la 6° Conférence internationale de Pragmatique (Reim,Texte paru dans SdT, 2001, Vol. 7, n°5)

١٠- وضع فوكو أسس المنهج الأركيولوجي، الحفري المعرفي، ومارسه في أعماله الفكرية، من خلال الحفر في النصوص، لأصناف معرفية مسّت الخطاب، الذي يولد من خلاله الإنسان في علاقته مع الكلمات عبر مختلف الأشكال السلطوية في ممارسة الرقابة أو فرض القمع الفكري، حيث يسلك المنهج في هذه القراءة الحفر المعرفي ثم التفكيك والتأويل.

- للتوسع راجع: بغورة، الزواوي: مفهوم الخطاب في فلسفه ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

- تمارس الحفريات المعرفية، تحليلاً ونقداً لمضمون النص، تاريخياً ولغوياً وفلسفياً ونفسياً وأدبياً، في التعامل مع الأثر النصّي، الذي يتكامل مع الكتابة، على أنها فعل خلّاق، ينعكس في العديد من مجالات الحياة، والعلاقات البينية في المجتمع.

١١- الجينالوجيا: Géneology مصطلح معرفي أطلقه ميشيل فوكو للإشارة إلى دراسة أشكال التاريخ من أجل رصد التكوينات المعرفية والثقافية للظواهر، ثم تحليل أسباب سيطرة موضوعات معينة في تاريخ محدد.

١٢- الزواوي بغورة: منهج في تحليل الخطاب، مجلة إبداع، القاهرة، ابريل ـ مايو ٢٠٠٠م ص ١٠٩

١٣- للتوسع ينظر حبيب بوهرور، الميتانصية في أدب ما بعد الحداثة العربي، مجلة آداب البصرة، العدد ٦٢- العراق ٢٠١٢، ص ٦-٧

١٤- عبد المجيد علوي اسماعيلي، عتبات النص مقاربة نظرية، نقلا عن موقع دادس، ورابطه http://www.dades-infos.com/?p=17989

١٥- رولان بارث: النقد والحقيقة، ترجمة ابراهيم الخطيب، مراجعة محمد برادة، ط١ الشركة المغاربية للناشرين الدار البيضاء،١٩٨٥، ٨

١٦- للتوسع راجع دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف الجزائر ص٧٤.

١٧- المرجع نفسه، ص ٦٠-٦١

١٨- نفسه، ص ٧٥

١٩- دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ص ٩١

٢٠- للتوسع راجع: جيرار جينيت، عتبات Seuils ص ٨-١٣ ودومينيك مانغونو، المرجع السابق ص ٩٢ أو بالتفصيل ضمن النص الأصلي بالفرنسية عند: Dominique, Maingueneau, Les Termes clés de l'analyse du discours, Ed Seuil, Feb 1996, P60-62

21- Dubois, Jean: Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage. Edité par Paris: Larousse, 1994 394

٢٢- محمد صابر عبيد، وسوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، سوريا، ط١- ٢٠٠٨، ص ٣٨

٢٣- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر عبد الجيل الأزدي وأخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢ القاهرة، ١٩٩٧، ص١٥

* ويراجع أيضا للتوسع والاستزادة هنري ميتيران في كتابه: خطاب الرواية Henri Miterand, Le discours du roman, Paris, PUF, 1980

٢٤- لعموري الزاوي، شعرية العتبات النصية، دار التنوير، الجزائر، ط١- ٢٠١٣، ص ٩٩

* أحيل القارئ إلى التوسع في هذا من خلال الاطلاع على مقال موسوم ب: عتبات أم عتَمات، لمصطفى سلوي، جريدة العلم، الملحق الثقافي، السبت ٢٦ مارس،٢٠٠١ العراق.

٢٥- عبد الحق بلعابد، عنفوان الكتابة وترجمان القراءة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١،٢٠١٣،ص ٢١

* نسبة إلى إيمانويل كانت Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر.

* جورج فيلهلم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel، (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف ألماني من أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

٢٦- كمال الزغباني،في الروائيّ والميتاروائيّ، المجلة الثقافية الجزائرية، والرابط على الواب: http://thakafamag.com/

* للاطلاع على هذا راجع: لوكيوسأبوليوس Lucius Apuleius، الحمار الذهبي، أول رواية في تاريخ الانسانية، تر أبو العيد دودو منشورات الاختلاف الجزائر ٢٠٠٤، ص ٦٥ وما بعدها حتى ٨١.

٢٧- حسينة فلاح، الخطاب الواصف في ثلاثية أحلام مستغانمي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، الجزائر ٢٠١٢، ص ٢٤

٢٨- جميل حمداوي، أشكال الخطاب الميتاسردي في القصة القصيرة بالمغرب، نقلا عن موقع جريدة المثقف، ورابطها http://almothaqaf.com/index.php/qadaya2009/63766.html

٢٩- ينظر للاستدلال والتوسع في الصفحة السابقة: حبيب بوهرور، الميتانصية في أدب ما بعد الحداثة العربي، ص ١١ -١٢ (مرجع سابق)

ولمراجعة المادة في لغتها الأم راجع:

- Linda Hutcheon - Modes et Formes du narcissisme littéraire - traduit par Jean Pierre Richard - Poetique / 1977 - p.91.

- Patricia - Waugh - Metafiction: The theory and practice of self - conscious fiction - Methuen - London and Newyork 1984 - p.5

* يتوسع الناقد كلود أباستادو Claude Abastado قائلا: أن قضايا الكتابة التي يعالجها الأدب أصبحت في النصوص "الحديثة" تناظرا مهيمنا IsotopiedominanteClaude Abastado - La glace sans Tain - Littérature N° 27 - p.55 /

* للتوسع أكثر في هذا العنصر راجع: رشيد بنحدو ـ حين تفكر الرواية في الروائي ـ الفكر العربي المعاصر ـ عدد ٦٦/ ٦٧ ـ يوليو- أغسطس ١٩٨٩ ـ ص.٣١.

٣٠- إدريس الناقوري: لعبة النسيان- دراسة تحليلية نقدية-، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥، ص:٢٤

* LEO HOEK, La marque du titre, La Haye, Mouton, 1981

31- Ibid, p 5

٣٢- جميل حمداوي: "السيميوطيقا والعنونة"، عالم الفكر، الكويت، مج٢٥، ع٢٣، يناير/ مارس ٩٧، ص٩٠

٣٣- عبد الإله بن عرفة، ياسين قلب الخلافة، دار الآداب، بيروت؛ الطبعة الأولى،٢٠١٣م

* نظام معرفي ومنهج في اكتساب المعرفة ورؤيا العالم، ورسم الموقف من واقع الاسنان ضمن منظومة العالم المادي والروحي، انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام، يسمى في اليونانية الغنوص gnose، التي تعني المعرفة.

٣٤- فواز حداد، السوريون الأعداء، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط١- ٢٠١٤

٣٥- نادية كوكباني، صنعائي، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣

٣٦- رشا سمير، جواري العشق، مكتبة الدار العربية للكتاب ٢٠١٤

٣٧- ياسر ثابت، ذنب، دار أكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤

٣٨- أكرم مسلّم، التبس الأمر على اللقلق، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣

٣٩- أحمد المنادي: النص الموازي: آفاق المعنى خارج النص، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ج٦١، مج ١٦، مايو ٢٠٠٧، ص١٤٥

40- Gérard Genette, Seuils, Coll. Poétique, Ed. Seuil, 1987,152

41- D'après Henri Mitterand, Le discours du roman, 1er ed. puf, Paris,1980, p. 3

٤٢- للتوسع راجع محاضرات الملتقى الوطني السيمياء والنص الأدبي، جامعة بسكرة الجزائر

٤٣- الراوية ص ٧

* الرواية السابعة في مشروعه الروائي (الملهاة الفلسطينية) إلى جانب زمن الخيول البيضاء، طفل المحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، وتحت شمس الضحى. وبصدور هذه الرواية تكون الملهاة الفلسطينية قد غطت مساحة زمنية روحية ووطنية وإنسانية على مدى ٢٥٠ عاما من تاريخ فلسطين الحديث.

٤٤- إبراهيم نصر الله رواية: قناديل ملك الجليل، الدار العربية لعلوم والنشر،بيروت ٢٠١٢

٤٥- واسيني الأعرج رمل الماية –فاجعة الليلة السابعة بعد الألف – دمشق/ الجزائر ١٩٩٣

٤٦- عبد الرحمن منيف، التقديم لرواية رمل الماية. طبعة سنة ١٩٩٣

* عبارة عن تخييل واصف يعتمد التأمل الذاتي والحوارية الداخلية في النقد والتعقيب

*دايفيد لودج، روائي وناقد بريطاني ولد في ٢٨ يناير ١٩٣٥ في بروكلي بجنوب لندن.

٤٧- عادل الثامري، الميتاقص بين الأدب و التأريخ، نقلا عن موقع دروب ورابطه http://www.doroob.com/archives/?p=7998

٤٨- رشيد بوجدرة، الصبار، منشورات جراسيه، باريس، فرنسا، ومنشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠١٠

٤٩- نقلا عن ياسين تمليلي: رواية رشيد بوجدرة الاخيرة عن جزائر أدمت نفسها وهي تدمي الاستعمار، موقع الحوار المتمدن ورابطه: http://www.ahewar.org/debat/nr.asp

٥٠- رشيد بوجدرة، فندق سان جورج، منشورات جراسيه، باريس، فرنسا، ومنشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠٠٧

٥١- راجع الحوار كاملا مع الروائي في جريدة الخبر (الجزائرية)، عدد ٢١-٧-٢٠٠٧، الصفحة الثقافية

مراجع البحث

- **الكتب (العربية والمترجمة)**

١. إدريس الناقوري: لعبة النسيان، دراسة تحليلية نقدية، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥

٢. جيرار جينيت، خطاب الحكاية، تر عبد الجيل الأزدي، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢ القاهرة، ١٩٩٧

٣. حسينة فلاح، الخطاب الواصف في ثلاثية أحلام مستغانمي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، الجزائر ٢٠١٢

٤. دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر. محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٣

٥. رولان بارث: النقد والحقيقة، ترجمة ابراهيم الخطيب، ط١،الشركة المغاربية للناشرين الدار البيضاء، ١٩٨٥

٦. الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفه ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

٧. عبد الحق بلعابد، عنفوان الكتابة وترجمان القراءة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط،٢٠١٣

٨. لعموري الزاوي، شعرية العتبات النصية، دار التنوير، الجزائر، ط١- ٢٠١٣

٩. لوكيوسأبوليوس، الحمار الذهبي، تر أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٤

١٠. محمد صابر عبيد، وسوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، ط١، سوريا، ٢٠٠٨
١١. ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان ط٢، ١٩٨٧

- **المجلات الأكاديمية**

١. أحمد المنادي: النص الموازي:آفاق المعنى خارج النص، مجلة علامات في النقد، جدة، ج٦١، مج ١٦، مايو ٢٠٠٧
٢. جميل حمداوي: "السيميوطيقا والعنونة"، عالم الفكر، الكويت، مج٢٥، ع٢٣، يناير/ مارس ١٩٩٧
٣. حبيب بوهرور، الميتانصية في أدب ما بعد الحداثة العربي، مجلة آداب البصرة، العدد ٦٢- ٢٠١٢
٤. رشيد بنحدو ـ حين تفكر الرواية في الروائي ـ الفكر العربي المعاصر ـ عدد ٦٦/ ٦٧ ـ يوليو- أغسطس ١٩٨٩
- الزواوي بغورة: المنهج في تحليل الخطاب، مجلة إبداع، القاهرة، إبريل ـ مايو ٢٠٠٠

- **الروايات**

١. إبراهيم نصر الله،قناديل ملك الجليل، الدار العربية لعلوم والنشر، بيروت ٢٠١٢
٢. أكرم مسلّم، التبس الأمر على اللقلق، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣
٣. رشا سمير،جواري العشق، مكتبة الدار العربية للكتاب ٢٠١٤
٤. رشيد بوجدرة، الصبار، منشورات جراسيه، باريس، فرنسا، ومنشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠١٠
٥. رشيد بوجدرة، فندق سان جورج، منشورات جراسيه، باريس، فرنسا، ومنشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠٠٧
٦. عبد الإله بن عرفة، ياسين قلب الخلافة، دار الآداب، بيروت؛ الطبعة الأولى، ٢٠١٣

٧. فواز حداد، السوريون الأعداء، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط١- ٢٠١٤
٨. نادية كوكباني، صنعائي، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣
٩. واسيني الأعرج الليلة السابعة بعد الألف: الكتاب الأول: رمل الماية. دمشق/ الجزائر ١٩٩٣
١٠. ياسر ثابت، ذنب، دار أكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤

- **مواقع الواب**

١. موقع دروب ورابطه http://www.doroob.com/archives/?p=7998
٢. موقع الحوار المتمدن ورابطه: http://www.ahewar.org/debat/nr.asp
٣. موقع المجلة الثقافية الجزائرية، http://thakafamag.com/
٤. موقع دادس، ورابطه http://www.dades-infos.com/?p=17989

موقع موقع جريدة المثقف http://almothaqaf.com/index.php/qadaya2009/63766.html

- **كتب بلغة أجنبية**

1. Claude Abastado- La glace sans Tain- Littérature N° 27
2. Dominique Maingueneau،Archéologie et analyse du discours، Université Paris 12
3. Dominique،Maingueneau،Les Termes clés de l’analyse du discours، Ed Seuil،Feb 1996،
4. Dubois، Jean: Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage. Edité par Paris: Larousse، 1994
5. Gérard Genette،Seuils، Coll. Poétique، Ed. Seuil، 1987،
6. Henri Mitterand،Le discours du roman، 1er Ed. puf، Paris،1980 Leo Hoek،La marque du titre، La Haye، Mouton، 1981
7. Linda Hutcheon - Modes et Formes du narcissisme littéraire - traduit par Jean Pierre Richard - Poétique 1977

تبت مصطلحات البحث (فرنسي - عربي - إنجليزي)

اعتمدت الترجمات الشائعة والمتداولة في الحقل النقدي الأدبي المعاصر

ر	فرنسي	عربي	إنجليزي
١	Archéologie	أركيولوجيا	Archeology
٢	Architextualité	معمارية النص	Architextuality
٣	Cathartique	تَطَهُـري	Cathartic
٤	Dialogisme	حوارية	Dialogism
٥	Editorial	نص مصاحب	Editorial
٦	Epitexte	النص الشارد	Epitext
٧	Flexion	انثناء	Flexion
٨	Génialogie	جينالوجيا	Génialogie
٩	Hypertextualité	تعالي نصي	Hypertextuality
١٠	Immanente	محايثة	Immanent
١١	Interdiscours	ما بين الخطاب	Interdiscourse
١٢	Interdiscursivité	ما بين الخطابية	Interdiscursivity
١٣	Intertextualité	تناصية	Intertextuality
١٤	Isotopie dominante	تناظرية مهيمنة	Dominant isotopy
١٥	Transtextualité	تسامي نصي	Transtextuality
١٦	L'hybridation	تهجين	Hybridization
١٧	Métadiscour	خطاب واصف	Metadiscourse
١٨	Métafiction	ميتاتخييل	Metafiction
١٩	Métalangage	لغة واصفة	Metalanguage

٢٠	Métatexte	ميتانص	Metatext
٢١	Métatextualité	ميتانصية	Metatextuality
٢٢	Paratexte	نص موازي	Paratext
٢٣	Péritexte	نص محيط	-
٢٤	Poétique	شعرية	Poetic
٢٥	Préface	مقدمة	Preface
٢٦	Roman Postmoderne	رواية ما بعد الحداثة	Postmodern novel
٢٧	Texte	نص	Text
٢٨	Titrologie	علم العنونة	Titrology
٢٩	Transtextualité	تسامي نصي	Transtextuality
٣٠	Unités du discours	وحدات الخطاب	Units of discourse

لطائف الإعجاز في آيات الأحكام

د. منال مبطي المسعودي

جامعة أم القرى - كلية اللغة العربية

ورد البحث في ١٨/ ١١/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٢٥/ ٢/ ١٤٣٧هـ

لطائف الإعجاز في آيات الأحكام

د. منال مبطي المسعودي

ملخص البحث

ارتبطت آيات الأحكام بمجال التفسير الفقهي وغلب عليها مقارنة بعناية دارسي البلاغة لها؛ فقد كانت ميدانا لاستنباط الأحكام وتقريرها، ولم تخل تفاسير الفقهاء من تنبيهات على بلاغة لغتها و دقائق تراكيبها وبراعة ترتيبها ودقة بنائها،فدلوا على ضالة بيانية لم تبحث.

وغاية هذا البحث الكشف عن ما في الآية الحكمية من بلاغة محكمة و بيان متجانس، واستشراف مآخذ الإعجاز فيها من خلال بديع ألفاظها وجودة رصفها مع مؤامتها للأغراض وتنوع أساليبها بتنوع الأحكام. وقد انتخب البحث نوعا من تلك الآيات وهي ما كانت لغته مباشرة للغرض لأن الإشكال في مناط اعجازها: هل تعلق بلطيف حكمة معناها أم ببارع لفظها وإحكام ترتيبه؟ ودللنا على أن وجه الإعجاز فيها ماثل في الحكمة في الترتيب وعلائق البناء التركيبي أي موقع اللفظة والجملة وبراعة تعليقها بعناصر مجاورة وتدويرها على مواقع مختلفة مما يوجب فيها خصوصية ويبعث منها معان تستوعب مقاصد الشارع الحكيم وتبين جهات الحكم وأحواله بأوجز لفظ.

ABSTRACT

Verses provisions associated with the field of doctrinal interpretation, It has increased than the idiosyncratic interpretation in the care of the students, It was an arena for the development and its provisions, Interpretations of the jurists did not devoid of alarm on the eloquence of the verses of the provisions, and accurately fitted, arranged and craftsmanship, they signaled to the subject has not been discussed.

This research aims to reveal what the verses of the provisions of the Court of eloquence, and the statement of homogeneous, and to identify the aspects of the miracle in which, through the exquisite words, the quality of installation, with appropriate purposes, and the diversity of methods according to the judgment.

The researcher chose a sort of these verses, which are of direct language to express purpose, because the shapes in Miracles is whether related to the decision in the meaning of the verse or in pronunciation and tighten arrangement? It pointed out that aspects of miracles in these verses is in the order, and installation of structural, in word and wholesale site, and craftsmanship attached including before and its environs, which requires privacy, and makes its meaning to accommodate the purposes of the wise legislator, as well as clarify the rule content and brevity in the term of expression.

مقدمة

الحمد لله العلي الحميد، منزل الكتاب بلسان عربي مبين، تبياناً لكل شيء وهدى للناس لعلهم يرشدون، بهر وأعجز بسحر ألفاظه ودقة معانيه وإحكام أحكامه، فكان رافداً للطالبين وهادياً للسالكين، لا يضل من يممه، ولا يخذل من استرشد به، ونصلي ونسلم على مبلغه والمتخلق به محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته الأطهار.... وبعد.

فإن مباحث الإعجاز وتجلية مظاهره وبيان ظواهره وتفصيلها، ألف فيه باحثون كثر قديماً وحديثاً كل يأخذ منه بطرف، ويكشف عن ستر، وتظل القضية مع هذا واسعة المدى لا يحاط بها، ولا ينفد معينها، تزخر بالكثير من اللطائف والنكات، وقد نبه سلفنا على أمور تتعلق بالإعجاز، عالجوا بعضاً منها ودلوا على كثير وهذا الكثير لم تستوعبه الأقلام وحالت دونه الشواغل أو تصرمت عنه الأعمار، فسكنت التنبيهات في بطون مؤلفاتهم واندست بين قضايا متفرقة، تتطلب منا استلالها وسبرها لمعالجتها وبيان مدى صحتها والتدليل عليها من خلال القرآن الكريم.

ومن هذه القضايا التي نبهوا عليها ولم تتجاوز مرحلة التنبيه إلى الدراسة والتأصيل قضية "الإعجاز البلاغي في الأحكاميات أو آيات الأحكام" ويكاد ينفرد الباقلاني – فيما أعلم – بين علماء البلاغة بإشارته إلى ما تحتويه آيات الأحكام أو الأحكاميات -كما يسميها- من أسرار ودقائق، وقرر ذلك في مواضع مختلفة من كتابه، وتلك المواضع على قلتها إلا أن فيها إشارات تفتح أبواب القضية وتستحث الأفهام على اقتحامها وتحليلها والكشف عن مناطق الغموض فيها وإزالة الإشكال عنها، وحسبه – رضى الله عنه – تصنيفه لبلاغتها في ضربين سنذكرهما في طيات

البحث[1] وهذان الضربان لم يصل إليهما إلا بعد استقراء لشواهدهما من القرآن وتدقيق الفروق بينهما ليميز كل صنف ويقرن المتشابهات ويؤطرها بإطار واحد ينبه على التشابه ويدل على الفروق، والذي بعث هذا العلم الشريف في نفس الإمام فئة تاهت عن مدخل الإعجاز البلاغي لتلك الآيات، ولم تر البلاغة فيها إلا في الكلمة والكلمتين وكأن اصطباغها بالحكم وتلبسها به جردها من مقتضيات البلاغة وعزلها عن دائرة الإعجاز، ولا يخفى ما في هذا الإقصاء من تهاوٍ، لأنه بنى على رأي فاسد تجاهل أن الأحكام "ليست بصفات للأعيان، وإنما هي عبارة عن قول الله سبحانه"[2]. فيجري عليها ما يجري على الأقوال التي وضعت للإبانة وينظر إلى ما فيها من أسباب إحكام العبارة.

وآيات الأحكام هي الآيات التي تقرر حكماً شرعياً سواء في العبادات أو المعاملات، فيصلح بها أحوال العباد، ويقوَّم بها السلوك، وتنتظم بها المجتمعات.

وقد اجتهد العلماء في عدها وهل هي محصورة معدودة أم أن الباب فيها مفتوح لاجتهاد ذوي القرائح والعقول، فاختلفوا في ذلك إلى قولين:

الأول: فئة جعلتها محصورة معدودة ثم اختلفوا في عددها، فقيل إنها مائة وخمسون آية، ومن هؤلاء ابن القيم والمقداد السيوري فذكر أنه قد (اشتهر بين القوم أن المبحوث عنها خمسمائة آية، وذلك إنما هو بالمتكرر والمتداخل، وإلا فهي لا تبلغ ذلك[3].

وآخرون ذهبوا إلى أنها خمسمائة آية، وهو الأشهر ومن هؤلاء الغزالي[4] وابن جزي الكلبي فذهب إلى (أن آيات الأحكام خمسمائة آية، وقد تنتهي إلى أكثر من ذلك إذا استقصى تتبعها في موضعها)[5].

الثاني:وأخرى لم تقيدها بعدد محدد، ومن هؤلاء ابن دقيق العيد فقد نازع في حصرها وتقديرها في آي معدودة،فلم يحجر تلك الآيات بل جعلها باباً مفتوحاً للقرائح والأذهان بحسب ما يهتدي إليه العالم من وجوه الاستنباط،(٦) فمعظم آي القرآن قد يستنبط منها حكم بقدر ما يوهب للناظر من صفاء روح وجودة ذهن، ورجح ذلك أئمة من المحققين كابن العربي حيث نقل عن أشياخهأن سورة البقرة وحدها مشتملة على ألف أمر وألف نهي وألف حكم"(٧).

إذن هي باب متسع ومحاولة حصرها كانت بالنظر إلى الأحكام المصرح بها وهذا يمكن ضبطه مثل ما جاء في العبادات قوله تعالى:﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[البقرة: ١٤٤].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١].

أما الأحكام التي جرت في أودية أخرى من المعاني واندست داخل أغراض مختلفة سواء في القصص أو الوعظ أو الأمثال أو العقائد، أي ما أخذ بطريق الاستنباط فهو كثير يتفاوت عده من قصة إلى أخرى، والمعول عليه صحة الفهم ودقته واجتهاد المجتهد وثاقب فطنته مثل:

استنباط صحة أنكحة الكفار من قوله تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

وفي موضع آخر ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤].

وقد يدق النظر ويلطف الاستخراج بضم آية أخرى إليها مثل استنباط أن تارك الأمر يستحق العقاب من قوله تعالى:﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: ٩٣] مع قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [الجن: ٢٣].

واستنباط أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله تعالى:﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾[لقمان: ١٤].

هذه الآيات جانب من معاني القرآن وأصل من أصوله التي أنزل لتقريرها وتأسيسها،وقد عني بها أئمة من العلماء فأفردوها بكتب مستقلة، وكانت سبباً في نشوء ما يسمى بالتفسير الفقهي استهدفت تلك المصنفات هذه الآيات على الخصوص وانتخبتها لسبرها وتحليلها وبيان ما فيها من معان واستنباط ما تحتها من أحكام، فكانت ميداناً خصباً لاجتهاد الفقهاء كل يقرر مذهبه من خلالها، فألَّف أول

مصنف خاص بتفسيرها الإمام مقاتل بن سليمان، ثم تتابعت المؤلفات فجاء مصنف الإمام يحيى بن زكريا، وكتب فيها أيضا الطحاوي، والجصاص والهراسي وابن العربي، والقرطبي، واستخلص تلميذ الشافعي أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي آيات الأحكام من مصنفات الشافعي وأفردها بكتاب مستقل سماه "أحكام القرآن".

ارتباطها بحقل التفسير الفقهي أوهم الطاعنين أن إعجازها بما حوته من حكمة وجليل فوائد، دون أن يكون للفظ مزية ظاهرة أو براعة في النظم باهرة، أو تأليف تنقطع عنده الأطماع، ورأوا البلاغة فيها شذرات في مفردات معدودة وصور محدودة، لا تقاس بفضيلة غيرها من الآيات ولا تجاريها في الإعجاز، فكأنهم تقاصروا بها ولم يجعلوها تباري أخواتها في ميدان الإعجاز البلاغي، وهذا الظن امتداد لما شاع في صناعة الشعر من أن المعاني الوعظية وما جرى مجراها في الزهد والإرشاد حاز الفضيلة من جهة شرف المعنى دون اللفظ، فبنوا عليه مقياساً أن الشعر إذا دخل باب الخير لان، وهي عبارة مشهورة عن الأصمعي اتخذت مقياساً عند العارفين بنقد الكلام.

وهذا الأصل وإن كان معتبراً في كلام المخلوقين غير أنه لا يجري على كلام الله، فكل ما جاء في القرآن من آيات حكمية ومعان إرشادية حظها من البلاغة والإعجاز كسائر الآيات، ويعيدنا ذلك إلى قضية التفاوت بين أساليب القرآن في أغراضه المتنوعة التي استوقفت المحققين لخطورتها لأن الإعجاز وصف مشاع لكل ما بين دفتي المصحف لا تختص به آية دون آية كل كلمة في نظمه لها فضيلة الاختيار، واقعة في أحسن النظوم متمكنة في بابها.

ونفي التفاوت عن بلاغة القرآن اتسق مع الحديث عن إثبات الإعجاز له فكان وجهاً من الوجوه التي تدعمه وتزيد مكانته، فصفة الإعجاز أطلقت على النظم القرآني ليس باعتبار بعض الكلام دون بعض ولم يتقيد بحال أو غرض دون آخر،

واضطراد الصفة موجب لوجودها وليس لكمالها، وهذا فقه القضية عند علماء الإعجاز فلا يكفي التسليم بوجوده دون الإقرار باضطراده في سورة وآية آية، فقد وصف الله كتابه بالتماثل والتشابه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ١].

والآيات هنا على إطلاقها من توحيد وحجج ووعد ووعيد وأحكام الحلال والحرام جميعها بينات وأثبت لغيره الاختلاف ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢]. أي تلوناً وتغيراً فيبهرك ببديع نظم تستحسنه ثم يعقبه بقبيح تنكره.

وقد أطنب الباقلاني القول في نفي صفة التفاوت عن القرآن في سياقين هما:

١- سياق إثبات الإعجاز القرآن وعني به كل صفة تسلبه ذلك الوصف فقال:" وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف فلا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف إلى المرتبة الدنيا"(٨)

وهذه الصفة التي استقامت في القرآن خلا كلام البشر منها فتطرق إلى كلامهم الاختلاف باختلاف ما يتصرفون فيه من معان وأغراض،فلم يسلم من ذلك كُمَّال البلاغة شعراء أو خطباء " ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره (٩).

٢- سياق الرد على الطاعنين في نظم القرآن ونقض قولهم باختلاف نظم القرآن وأن بعضه أبلغ من بعض (١٠).

وهناك من فاضل بين آيات القرآن وسوره ولم ير في ذلك إقحاماً للقرآن في منطقة التفاوت التي يخبو بها وهج الإعجاز، فكان إثباتهم للمفاضلة يرجع إلى اعتبارات وضوابط تحفظ للكلام درجته السَّنِيَّة ورتبته العليا في الإعجاز، والذين قالوا بها احتجوا بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث دل فيها على فضل بعض الآيات والسور فقد جاء عنه (فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن) و (آية الكرسي سيدة القرآن) وأيضاً (يس ثلث القرآن).

ومن الذين أجازوا القول بالمفاضلة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ورد حسن الكلام وفضله إلى المعنى المتلبس به، فـ" كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾أفضل من﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[11]

وكذلك ابن العربي رد المفاضلة بين سورة الإخلاص وآية الكرسي إلى اعتبارات فقال:" إن الشيء إنما يشرف بشرف ذاته ومقتضاه ومتعلقاته"[12].

وعقد الغزالي باباً سماه "كيف يفضل بعض آيات القرآن على بعض وكله كلام الله تعالى" في كتابه (جواهر القرآن)، واستنكر فيه فَرَقَ البعض وحذرهم من هذا القول، ورأى أن هؤلاء أحرى بهم التقليد لأن إدراك الفرق في ذلك الفضل يتطلب نور البصيرة، ومن حرمها فالأولى به أن يقلد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام[13].

هذا وإن قال به علماء محققون غير أنه يخالف مقتضى البلاغة فالكلام يشرف باعتبار تمكنه في موضعه ويحسن في بابه ويلطف في مقام إيراده.

وقد كشف عن ما في القول من دخل شمس الدين الخيوي فذكر أن من الثابت المعلوم أن كلام الله أبلغ من كلام المخلوقين ولا تساور النفوس في هذا ريبة، ولكن

يدخل الغموض عليهم في قضية الإعجاز من ذات القرآن فاعترضهم الشك في أنه" يجوز أن يقال كلامه بعضه أبلغ من بعض [١٤]

وعاب هذا القول وعده قصوراً في الإدراك، وأوضح مفهوم الأبلغية الذي إذا تعرت منه الآية صح معه القول بان هذه الآية أبلغ من تلك، فمعنى قولهم هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام: أن هذا موضعه له حسن ولطف، وذاك في موضعه له حسن ولطف، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذلك في موضعه... فإن من قال: إن قوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ١] أبلغ من ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[المسد: ١] يجعل المقابلة بين ذكر الله وذكر أبي لهب، وبين التوحيد والدعاء على الكافرين، وذلك غير صحيح، بل ينبغي أن يقال﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾دعاء عليه بالخسران فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه، وكذلك في﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منها، فالعالم إذا نظر إلى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ في باب الدعاء بالخسران ونظر إلى﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الأخرى، وهذا القيد يغفل عنه بعض من لا يكون عنده علم البيان [١٥].

فمدار الإعجاز كون الآية فريدة في بابها أنسب للغرض الذي جاءت فيه، بحيث لا تجد مسلكاً سواه لبيانها، فـ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ لا تنتقص بمجيئها في وصف كافر، بل باعتبار مكانها من الغرض، فليست هناك عبارة واصفة للخسران كوصفها، و لا مبرزة لمعناه كإبرازها له، فكانت الغاية في بابها.

وهذا الضابط مؤسس على لاحب علم البيان لا يتقنه إلا متمرس بعلوم البلاغة، وهو مقياس دقيق لإدراك الإعجاز الباهر في القرآن كله على تنوع أغراضه، وأساليبه فلا يفضل فيه معنى معنى ولا أسلوب دون آخر.

وللرافعي كلمة نافذة تقطع ذلك الخلاف وتدل على فساد رأي الآخذ به يقول فيها:" القرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجاد بعضه ويصفح عن بعضه، وإنما هو طريق مستبصر من أين أخذت منه نفذت، ومن حيث تأديت به تهديت "(١٦).

فالبيان القرآني كله مستجاد وبلاغته متشابهة كل وضع في موضعه، وتنوع طرق أداء المعنى ليس موجباً للمفاضلة وإنما لكل طريق مزيته وفضيلته الخاصة التي يتأدى بها إلى مضمرات اللطائف.

وغاية هذا البحث بيان البلاغة المحكمة والبيان المتفق والمتجانس في آي القرآن الكريم بحيث لا تختل عبارة عن أخرى، وقد خصصنا آيات الأحكام لأنها مظنة إشكال ووقع في بلاغتها التوهم، وطعن في إعجازها طاعنون فقيدوا فضلها بما فيها من معان وحكم شريفة وسكتوا عن نظمها وما فيه من لطائف، مما استوجب معه الوقوف على عتبات تلك الآيات واستشراف مآخذ الإعجاز فيها من خلال لغتها وبديع ألفاظها وجودة رصفها مع مؤامتها للأغراض وتنوع أساليبها بتنوع الأحكام.

وينتخب البحث نوعاً محدداً من آيات الأحكام وهي التي صرحت بالحكم وسيقت لتقريره وتشريعه دون غيرها من الآيات التي داخلت أغراضا أخرى واجتهد الفقيه في استنباط الحكم منها، فالثانية بلاغتها ظاهرة وإعجازها مقرر، أما ما صرح فيها بالحكم فهي مظنة الإشكال

وهذه الدراسة تتتبع تلك الآيات في كتب البلاغيين أيضاً ومدى حضور شواهدها في اختياراتهم؟ وهل حظها من البلاغة كسائر الآيات أم اختصت بمزية عن غيرها؟ وهل جميع آيات الأحكام نمط واحد من البلاغة؟ ثم مراجعة كتب التفسير الفقهي وتفاسير البلاغيين لنستخرج المعاني والفوائد التي ذكرها الأئمة والتي من شأنها أن تضع أيدينا على محل الإعجاز في تلك الآيات وترصد الفروق الأسلوبية بينها في تقرير الحكم، وتكشف أيضاً عن مسالك الفقهاء في تحليل البيان ومدى مقاربتهم للدرس البلاغي في تحليله للبيان المعجز، وهل ارتكز منهجهم على أسس فقهية بمعزل عن الذائقة البلاغية كما شاع عند بعض المحدثين؟[١٧].

المبحث الأول: مناط الإعجاز في آيات الأحكام:

الإعجاز وصف جامع أطلق على ما بين دفتي القرآن المجيد واستوعب كلماته وأحاط بها فوَصَف ما لا يبلغ منتهاه وصف، وهذا الشأن في كلمات الله مما تدرك ولا يحاط بها:

ولكن تأخذ الإفهام منها ... على قدر القرائح والعلوم

فكلمات الله على تنوع المعاني التي جرت فيها وفتقت عنها من حديث عن الإيمان بالله ورسله وتفرق الناس فيه إلى كافر ومنافق ومؤمن وذكر أحوالهم ومآلهم، وذكر أحوال المعاد والجنة والنار، ومعاني الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، والقصص، والوعظ والتذكير، وأحكام العبادات والمعاملات،وغير ذلك من شريف المعاني وجليل المقاصد التي بهرت العقول وقطعت الأطماع ولا يقول بخلاف هذا إلا ضال أو متتبع شبهة فقد أخرست أرباب البيان في عصر النقاء اللغوي والبلاغة العالية فأيقنوا بأن لا طاقة لهم به وأنه من لدن حكيم عليم.

وهذه المعاني على تنوعها استوقفت دارسي الإعجاز فألمحوا في مواضع متفرقة إلى علو وشرف معانيه، وأناطوا بها مزية،فهذا الخطابي يذكر أن:"القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد له عزت قدرته وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج مبادئه، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه"[١٨].

وقال أيضاً: "فلا خفاء على ذي عقل أنها – أي المعاني – هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها وصفاتها"[١٩].

وقد أُلف في معاني القرآن وموضوعاته مصنفات فصلت القول في كل جانب من جوانبه، ومن تلك المعاني التي عني بها المعاني التشريعية فحظيت آيات الأحكام بنظر العلماء في محاولة للكشف عما تكتنزه من معانٍ وإحكام تلك التشريعات وحكمتها، فاستوقفت المعنيين بالتشريع من أصوليين وفقهاء وعلماء قانون فراعهم ما فيها من دقة وضبط، وغزارة ما تحويه من فوائد مع شموليتها، فقد استوعبت معانيها حياة الإنسان في مراحله وأحواله المختلفة وضبطت كل ما يتعلق بأمور حياته ومعاده. وهذا نمط لم يعهده البشر من قبل فقد "عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل ولكن واحداً منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي"[٢٠].

ووصف الشيخ محمد أبو شهبه مكانة المعاني التشريعية في القرآن وسمو منزلتها فهي شريعة السماء لأهل الأرض التي تكفلت بجميع ما يحتاج إليه البشر في دينهم

ودنياهم ومعتقداتهم والأخلاق والعبادات والاقتصاد والسياسة ونظام الحرب والعلاقات الدولية، وكل هذه الأمور جرت فيه بحكمة لا يعتبر معها خلل وهذا تشريع متكامل لا يدع من أمور الحياة صغيرة ولا كبيرة إلا رسم لها منهجاً لا تناقض ولا اضطراب[٢١].

والآيات التشريعية بُرِّز فيها العناية بالجانب المعنوي وعلق به الإعجاز، وشأن معاني القرآن وشرفها لا يماري فيه عاقل لكن غفلت الأنظار عن بلاغة العبارة عنها لقوة المعنى وعلو جانبه، فقد حكى الباقلاني عن البعض أن قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣].

ليس من القبيل الذي تظهر البلاغة فيه، وسلَّم لهم بذلك وعدّ طلبها في هذا النوع من الكلام ضرباً من الجهالة، وأناط الإعجاز في مثل هذا بالمعنى والحكمة في الترتيب. فقال: "فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه التوصيف "[٢٢].

ونلاحظ أنهم علقوا الشرف في هذه الآية وفي بعض آيات الأحكام بالمعنى خاصة، والمعاني قلما تنال الفضل والشرف لذاتها؛ لأن تلبسها بالألفاظ يصرف الحسن إلى طريقة الإبانة عنها دونما تكنزه من أغراض، واعتبار تلبس المعنى باللفظ

أصلا بلاغيا لا يغفل عنه إلا دخيل على فن البلاغة، ولكن ما أعنيه بالنظر في المعنى لذات المعنى هو ما ذكره الباقلاني من أنه الوصف الذي ينوب مناب البراعة في التأليف والنظم، أي كمال المعنى في نفسه واستيفاء أجزائه بالترتيب، وقد لخص حازم القرطاجي ما يجب اعتباره في المعاني وما يرجع إليها في أنفسها فقال: "واعتبار ما تكون عليه المعاني من صحة وكمال ومطابقة للغرض المقصود به، وحسن موقع من النفس يكون بالنظر إلى ما المعنى عليه في نفسه وبالنظر إلى ما يقترن به من الكلام وما تكون له به علقة، وبالنظر إلى الغرض الذي يكون الكلام مقولاً فيه، وبالنظر إلى حال الشيء الذي تعلق به"[٢٣].

ولله در الإمام الباقلاني لم يعلق الإعجاز في مثل هذه الآيات التي تباشر فيها اللغةُ الغرضَ بالمعنى وحده، وإنما قرنه بالترتيب وبراعته، لأنه لا يتصور أن يوجد معنى عارياً من لفظ يدل عليه[٢٤]. فإذا اقترن شرف المعنى ببراعة الترتيب وحسن التأتي كان عدل البراعة في النظم والتأليف.

وحتى يتجلى للناظر كمال المعنى وإحكامه في تلك الآية التي طُعن فيها لابد من مراجعة ألفاظها وموقعها من الغرض ثم ترتيب بعضها إلى بعض وما وراء هذا النسق من إعجاز،فالحكم الذي تريد الآية تقريره بيان ما يحرم من النكاح، وأغلب ما حرم جرت أعراف الجاهليين على استنكار صورته واستبشاعه من نكاح المحارم وما جرى مجراه من النسب بالرضاع، فقررت الآية ذلك الحكم وفصلت القول فيه وبنت على ما استقر إنكارهم له ما استبيح في أعرافهم وجعلته في الحرمة سواء، وابتدر الحكم بـ ﴿ حُرِّمَتْ ﴾ صريحة نصية في دلالتها على التحريم وجرت في سياق ما قبلها من النهي ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ فجاء التحريم في الفعل الذي قبلها

بصيغة (لا تفعل) التي تفيد تحريم فعل متلبس به أو يمكن أن يتلبس به[٢٥]، ثم عدل عنها إلى ﴿ حُرِّمَتْ ﴾ فأفاد العدول معنى التأكيد[٢٦]، وأن حرمة هذا الفعل مقررة في نفوسهم واعتقادهم لذلك ناسب استنكارهم للفعل تحريمه بحكاية حرمته دون النهي الذي يفيد التلبس به، وهذه دقيقة تصور معتقدات نفوس المخاطبين بالحكم، ثم أسند التحريم ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ إلى الذوات دون الأفعال وهو النكاح والأصل أنه متعلق بأفعال المكلفين، فأضيف إلى المفعول مجازاً عقلياً للتسبيب[٢٧]، وقرن الحكم بعلته لتشمئز النفوس من تلك الفاحشة فكأن الشأن في ﴿ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ أنهن بضع منكم وبسبب منكم فكيف يستقيم التمتع بهن؟ فالسبب بيان الحكم ومؤكد له.

ثم توالت الذوات المحرم نكاحهن على نسق بديع فيه من التحذيرات والتقريرات التي اختصرت الحكم ولم تدع شيئاً إلا دلت عليه أو نبهت إليه، فرتب تلك الأسباب على أقسام: بدأ بالأصول وقدم ذكر الأم وجعلها في أنف السبب المضاف إليه التحريم، "لعظم حرمتها وإدلائها بنفسها ومكان بعضيتها، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهم، ولأنه ليس في ذوات الأنساب أقرب منها"[٢٨]، ثم أردف النسب الحرمة باعتبار الأسباب وتفرعت إلى صنفين، ما كان باعتبار الرضاع وما كان بالمصاهرة، وقدم الرضاع لتعلقه بالنسب وحاصل فيه معنى البعضية، "لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه فيحصل بذلك أيضاً حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى، وألحقها بالوالدة"[٢٩].

وتأمل "نشر الحرمة بهذا المعنى" وما فيه من بيان للتفريع ومآخذ بناء الحكم في الآية وكيف يفضي بعضها إلى بعض باعتبارات وأحوال وليس وصفاً مجرداً أو أسماء

متتابعةً دون ملاحظة معنى، وأعقب الأم من الرضاعة بالأخت من الرضاعة وطوى غيرها لأن ذكر الأخت من الرضاع نبه به على "كل من يدلي بغيرها"[٣٠].فقدر بذكر الأخت من الرضاعة ما ذكرته حرمة النسب فمتى سميت المرضعة أماً وابنتها أختاً حصلت بذلك اللحمة وصارت بمنزلة النسب[٣١]، ولاسيما أن قوله﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء: ٢٣] فيه عدول عن الإضافة إلى الضمير الذي جاء في قوله ﴿ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ إلى التعريف بـ"ال"لينتظم فائدة امتداد الحرمة إلى كل ما من شأنه أن يسمى أختا أوأخا في النسب والرضاعة وهذا بالغ الإحكام.

ثم لما انقضى ما هو كلحمة النسب أتبعه ما كان بسبب المصاهرة فقال: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾. فالأم كأنها أصل الأسباب فاجتمعت تلك الأقسام والتصنيفات في ربقتها وانعقدت بحجزتها، ثم تلت الأصولَ الفروعُ وهي بنات الزوجة ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ﴾. و ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ﴾.

والمتأمل في بيان هذه الآية يتطامن فكره أمام شرف الإبانة بالتحديدات والقيود التي تأتي عقيب ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ و ﴿ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ ثم ﴿ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ و﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾.

ووراء كل قيد استقصاء للأحكام وتفصيل دقيق ينبذ بالكلمة فتحوز المعاني وتحصي جميع الأحوال وتحيط بها بإيجاز شديد ولمحة دالة، فـ ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ دفعت توهم أن تكون أمهات النسب، وهيأ بالوصف لحال أخرى مشابهة للنسب وهي الرضاع. ثم ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ بيان للأمهات باعتبار آخر وهو المصاهرة.

ولما ذكر بنات الزوجات قيد التحريم بشروط ﴿ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ أي في ضمانكم وتربيتكم [٣٢] فتحرم باعتبار مخالطتها لزوج الأم وعيشها في كنفه فصارت منه بمنزلة الابنة، وقوله ﴿ حُجُورِكُم ﴾ فتأول بمعنيين معنى حقيقي وهي الحجرات، أو يكون بمعنى ما يحويه مجتمع الرجْلين للجالس المتربع أو يؤول إلى معنى مجازي وهي الكفالة والحضانة[٣٣] ووراء ذلك الوصف إشعار بان مثل هذه الحال حرية أن تجعل الربيبة بمنزلة أولادكم فكأنكم في العقد على بناتهن ناكحون لبناتكم وهذا غاية في التنفير منه.

ثم لما كان شرط التربية والكفالة مظنة أن تباح الربيبة له إذا كانت بعيدة عن حضانته أضاف شرطاً آخر وهو ﴿ نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ فأفاد تحريم الربيبة بالبناء بأمها فدفع هذا القيد توهم إباحتها إذا لم تكن في حضانة زوج الأم، وزاد فائدة مقدرة وهي إباحة الربيبة إذا لم يدخل بالأم أو عقد عليها دون الوطء فتم بذلك البيان.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ بعد ﴿ أَبْنَآئِكُمُ ﴾ فقد أفاد تأكيد معنى الأبناء وأخرج به الابن المتبنى[٣٤]. وهذا التفريع الذي أحدثته القيود لم يخل من حسن وبراعة فتأمل تشابه النسق وامتداد المعاني وتشعبها بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ ﴿ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ و ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ ﴿ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ ووراء ذلك لطائف فالصلة هنا معروفة للمخاطب تدل على أن هذه المعاني ذات أهمية في سياق الكلام، وأن هذه الاعتبارات جديرة أن تحرم نكاحهن.

ثم قابل التحريم المؤبد بأصنافه الثلاثة:النسب والرضاع والمصاهرة بالتحريم المؤقت فقال: ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾. ومخالفة نسق أصناف المحرمات

السابقة آذن بالتباين ونبه على أنها مفصل آخر من الكلام ولذلك عطفه العلماء على رأس الآية أي ﴿ حُرِّمَتْ ﴾ ذكر ذلك الزمخشري في قوله: "عطف على المحرمات أي حرم عليكم الجمع بين الأختين [٣٥] فتفرع عن ذلك الارتداد قسيم مقابل للتحريم المؤبد وهو التحريم المؤقت.

فوجه الإعجاز في تلك الآيات يلطف ويدق لأنه ليس مناطاً بكلمات معدودة ولا صور محدودة، وإنما يرجع إلى اعتبارات وأحوال هيأت له،فالمعاني المستحدثة تتطلب قدراً زائداً على ما يعتاد في غيرها لأن المعاني المتداولة يسهل إيجاد اللفظ البارع لها أما المبتكر والمستحدث فقلما يبرع فيه لفظ، وكلما شرف المعنى عز مطلب الألفاظ وتعسر منها الشريف الملائم. وقد رد الباقلاني بلاغة آيات الأحكام إلى تلك الموافقة يقول:" المعاني التي تضمنها في أصل الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصول الدين، والرد على الملحدين في تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع،وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بان التفاضل في البراعة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني والمعاني وفقها لا يفضل احدهما على الآخر فالبراعة أظهر والفصاحة أتم "[٣٦].

وتأمل "إذا برع اللفظ في المعنى البارع" ثم قوله " وموافقة بعضها بعضا" ثم قوله "إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة

أظهر والفصاحة أتم" أجد هذه السطور الثلاثة هي معاقد الإعجاز في تلك الآيات؛ ولو أقمت البحث على نص الباقلاني وحده كان كافياً في الكشف عن مناط الإعجاز في آيات الأحكام فقد لخص ما أطنبنا وهدى إلى ما جهلنا سبيل تحقيقه.

فبلاغة تلك الآيات لا تتعلق بالمكونات البلاغية التي اشتهرت في كتب البلاغيين من مجاز واستعارة وتشبيه وحذف وذكر وتعريف وتنكير وغير ذلك مما عقد عليه حسن الكلام بل الأمر هنا فيما نجده في آيات الأحكام من سلاسة اللفظ واحتوائه للمعاني المبتكرة وجعلها متصورة متقررة في الأفهام ثم جعل المعنى المبتدأ تأسيسه كالمؤكد المتحقق مع براعة الألفاظ وموافقته للمعنى البارع.

والمكونات البلاغية السابقة إذا وجدت كانت مدخلاً للإعجاز، وإذا خلت منها الآية خلفها إبداع آخر ينوب منابها وهكذا "نظم القرآن يقتضي ما فيه اقتضاء طبيعياً بحيث يبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه"[٣٧].

أي أن الأساليب تبنى وفق المعاني فتتنوع البلاغة بتنوع المعاني واختلافها فكل معنى يقتضي أسلوباً هو الأليق به والأولى له "فينسق اللفظ على نسق المعاني وهذا هو معنى " اقتضاء طبيعياً تنساق فيه الأساليب في نسق المعني، وقد صنف الباقلاني البلاغة المعجزة في تلك الآيات على ضربين هما:

١- الضرب الأول: آيات يتأتى فيها البلاغة والبراعة في التأليف كسائر الآيات ويصف هذا النوع بـ"الآيات الأحكاميات التي لا بد فيها من البلاغة،يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة وعجيب النظم"[٣٨].

٢- الضرب الثاني: ما كان إعجازه في الترتيب وما وراءه من حكمة وفوائد يقول: "وفي جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث، ويطرد ذلك في الابتداء والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك ما يخلف الإبداع في إفراد الكلمات"(٣٩).

وبين الباقلاني أن الضرب الأول وهو الضرب الذي يعتبر فيه من البلاغة ما يعتبر في غيره هو الغالب على إعجاز آيات الأحكام، وقرر ذلك بقوله:" وإن كانت الجملة والمُعْظَم على ما سبق الوصف فيها"(٤٠). وفصل في موضع آخر فقال " نذكر الأحكاميات وغيرها آيات أخر منها ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [المائدة: ٤]، أنت تجد هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب، والنظم البارع الغريب ما يدلك – إن شئت – على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذا بلغ ذلك آيات أو كانت سورة؟ ونحو هذه.....وكالآيات

الثلاث في المواريث، أي بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام، ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم"(٤١).

ويؤكد ما ذهب إليه الباقلاني الفقيه المالكي ابن العربي حيث نبه إلى أن تلك الآيات فيها من اللطائف والدقائق التي جعلت منها مقياساً للتفاضل بين العلماء، فقال: "الله سبحانه لم يجعل طرق الأحكام نصاً يدركه الجفلى، وإنما جعله مظنوناً يختص به العلماء ليرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، ويتصرف المجتهد في مسالك النظر"(٤٢).

ومن هذه النصوص يتبين أن حظ آيات الأحكام من البلاغة المعجزة كسائر الآيات فتوصف ببراعة نظمها وجودة رصفها وجليل فوائدها، ويتسامق الإعجاز بتآخيها مع غيرها من المعاني وبديع تناسق بيانها مع مختلف المعاني التي جرت في محيطها، فتتوسط أغراضا متنوعة ثم تجد دقة سلكها في نظام غيرها مع تميز معناها وخصوصية بيانها فلا تجد النفس تفاوتاً ولا ينبو حسك عن شيء، ولا تفتقد روعة ما سبق، وإنما يستمر الحسن وتأخذك بلاغة التناسق شكلاً ومضموناً وهذا سر من أسرار إعجازها، ووجه تتقاصر دونه الأفهام، ويحار فيه المسترشد.

المبحث الثاني: آيات الأحكام بين ذائقة البلاغيين ومطالب الفقهاء.

آيات الأحكام غرض من الأغراض الشريفة التي أبان عنها القرآن الكريم لها خصوصية جعلتها محط عناية فئة من الدارسين وهم الفقهاء، وهذا يقارب الحقيقة؛ لأن حضورها في شروحهم وتفاسيرهم أمر مشهور، فهي مطلب لكل فقيه وأصل في منهجه، أما البلاغي فوظيفته المعنية بالبحث عن ينابيع الحسن في العبارة وسبب أن راقت ولطفت، كل ذلك يوهم بانقطاع الصلة أو تباعدها.

ولا يكشف عن اهتمام البلاغيين بتلك الآيات إلا تتبعها في كتبهم، هل لها حضور في شواهدهم؟ وكيف رازها البلاغي ليستنبط أسرارها ولطائفها؟ أكان مدخل دراسته لها مشابه لتلك المداخل التي يسلكها في شروحاته الشواهد الأخرى أم استلزم خصوصية غرضها تعديلا في أدواته ليصل إلى المطالب الكامنة فيها.

وحضورها عند الأصوليين لا يحتاج إلى تتبع وإن تتبعناها فهو على المجاز والاتساع لأن مدار كتبهم عليها، وإنما غايتنا أن ننظر في تعامل الأصولي مع حسن العبارة عن الحكم، وهل نبه على تلك المحاسن أم أنه اكتفى بطلب الحكم؟ ومدى تقارب مسالكهم مع البلاغيين في التعامل مع لغة تلك الآيات.

وبالنظر في كلام أئمة علماء البيان نجد أن أمر الإعجاز فيها ظاهر لا يستراب فيه، بل إن قضية الإعجاز البلاغي انبجست من آية من آيات الأحكام وهي قوله ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] وارتبطت بسياق الاستدلال على تفوق البلاغة القرآنية وتفردها بسمو لغتها مع كثرة الفائدة، فلم يأتها الحسن من جانب المعنى وتقرير الحكم وتشريعه وإنما جمعت الحسنيين:جودة اللفظ ولطفه ودقة المعنى وشرفه.

وذائقة العرب الاقحاح لم تخطئ موضع التفوق في تلك الآيات، فهذا الوليد بن المغيرة وقف متحيراً عند آية حكيمة بهره بيانها، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠]. فيستوقفه هذا المقطع ليقل: أعد وكأنه يتفكر في وصف يحيط بقوة البيان الذي سمع فيقول: "والله إن له لحلاوة، وإن أصله لغدَق، وإن فرعه لجَنَى"[٤٣]. ولو راجعت ما كتبه الفقهاء في لطائف تلك الآية، وما سطره البلاغيون[٤٤] في سحر بيانها لتيقنت بفطنة ذلك العربي وصحة طبعه.

فتلك الآيات لم تقص عن البحث البلاغي فقد جرت منها شواهد في كتب البلاغيين تبعث أسرارها وتروزها بذائقة البياني وتقف عند سمات تفوقها وتدل عليه، ولم أعثر على تمييز بين بلاغة وأخرى باعتبار غرض دون غرض، وإنما تتردد الآية أو تفرد بمواضع لاعتبارات ترجع إلى ما في النظم من خصوصيات، وقد ذكر ابن سنان الخفاجي أن هناك مواضع من القرآن أفردت عجبوا من بلاغتها وحسن تأليفها، ومن هذه الآيات ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ

﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقوله تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وقوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤٥].

ولاحظ أن نصف ما ذكره هي آيات حكمية وأن السبب والتعجيب منها كان لحسن تأليفها وروعة بلاغتها.

وقد تفرقت تلك الآيات في كتب البلاغة في أبوابها المختلفة، فتارة ينبهون على ما فيها من المجازات أو على ما فيها من لطيف معانٍ وجليل فوائد نحو قولهم في قوله تعالى﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠] فقد لفت الشريف الرضي إلى استعارة ﴿ بِعِصَمِ ﴾ للكناية عن العلق التي بين النساء وأزواجهن، فالعصم في اللغة الحبل لاتصال بعضها ببعض وشدة إحكام ربط بعضها ببعض، والمراد: هنا ما يعتصم به من عقد وسبب[٤٦]. أي: "لا تقيموا على نكاح المشركات وخلاط الكافرات[٤٧] فيكون بقاء أحدهما في دار الكفر موجبا لتقطع العلاقة والصلة فحملوها على العقود والنكاح، وذكر أن أبا حنيفة استدل بتلك الاستعارة على أنه لا عدة للمرأة التي خرجت إلى دار الإسلام مع زوجها الكافر، لأن إيجاب العدة من التمسك بعصمهم[٤٨].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾. ذكر ابن أبي الأصبع بلاغة الاختيار والعدول في نظم هذه الآية وكيف صرف الكلام ليحتوي المعنى ويستوعب تلك الغزارة في أقل لفظ، فالعدول عن صحيح الاستعمال إلى غيره ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ

وَرُبَٰعَۖ ﴾ ولم يقل اثنتين وثلاث ورباع للإيجاز لما تحمله دلالة الأول من تكرار يسد مسد اثنتين اثنتين، وثلاث ثلاث، ورباع رباع، وناسب ذلك غرض الآية ومقصدها وهو التعريف بما أبيح للناكح من الجمع بين حرائر النساء، ثم اختيار العطف بـ"و" بدلاً من "أو" لأن الخطاب للمسلمين كافة ولاقتضائها معنى الجمع، فناسب خطاب الجميع الواو المقتضية له ليصيب كل مكلف ما أبيح له من الجمع، ولو عطف بـ"أو" لكان تكليفاً للمفرد واتجه الخطاب نحو الخصوص، أيضاً التدرج من الأعلى إلى الأدنى، أي النزول من الأربع إلى الواحدة، ولم ينزل على الترتيب إلى الثلاث ثم إلى الاثنتين للاختصار وليأتي النظم على السنن المحمودة من البلاغة

فإن من خاف ألا يعدل في اثنتين كان من ألا يعدل في الثلاث أحرى، فضلاً عن الأربع[٤٩] وكذلك حسن الترتيب في قوله: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [النساء: ٣٦] قال: "بدأ سبحانه بذي القربى وعطف عليه اليتامى، لما يجب من تقديمهم على المساكين، وعطف الجار ذي القربى مقدماً ذكره على المساكين وأفرده بالذكر بعد دخوله في عموم المساكين لينبه على العناية به، وعطف الجار الجنب أي الصاحب، وقدمه على الصاحب المجاور في السفر والحضر، وعطف على ذلك ابن السبيل وختم الوصية بحسن الملكة"[٥٠].

فتأمل ما نقلناه عن أبي الأصبع في النصين تجد أنه لم يجعل البلاغة والتصرف بمنأى عن الحكم، وإنما نفذ من حسن الكلام وبلاغة الاختيار إلى لطائف وفوائد فقهية، وهذه الإشارات تكثر عنده قياساً بغيره من البلاغيين.

أما عند الفقهاء فقد ارتبطت آيات الأحكام في الذهن بكونها مساحة لإظهار آراء أصحاب المذاهب الفقهية عموماً وإيضاح قواعدها وأصولها، وكان تصنيف

الفقهاء لتلك الآيات وتبويبها بحسب المسائل الفقهية التي تحتويها مقوياً لذلك الظن، وقد عد المستشرق "مكسيم ردنسون" تحليل الفقهاء لها بمثابة وثائق لمعلومات قانونية وصياغه لقوانين قضائية، ولهذا استنكر وضعها في منزله ومصاف بقية الآيات في الموضوعات الأخرى(٥١).

وأكد محمد أركون كلام مكسيم وبالغ في نقد صنيع الفقهاء في تلك الآيات واختصر سعة مناهجهم وامتداد تحليلاتهم واستنباطاتهم التي كشفت عن طاقات الكلمة القرآنية بقوله أنهم "ذهبوا إلى تحويل نص موحى ولغة موحاة إلى نوع من القانون المؤسساتي الصارم مع كل النتائج والانعكاسات الحاصلة عن ذلك بالنسبة لقراءة القرآن بصفته كلام وحي ولغة دينية في آن معاً"(٥٢).

وهذا تجنٍ بالغ صدر ممن لا يحسن أن يفهم لغة العرب ولو وعى لأدرك تشابه منهج تحليل الفقهاء بمناهج أهل البلاغة حتى يكاد الأمر يختلط فالفقيه في بحثه الدؤوب عن الحكم وتقريره والاستدلال على صحة مذهبه لم يعرض عن جزالة اللغة وقوة بيانها بل كان يتحسس مواضع الحسن ويجري تأويلاته على وجوه الفصاحة واعتبارها، ويتنقص أي تأويل انحرف عن ذلك الاعتبار ويرد اللغة إلى حياض الفصاحة لأنه الأجمع للفوائد، وقد أشاروا إلى كثير من اللفتات البيانية والظواهر البلاغية مستدلين بها على مراد الشارع، ويسلكون بها طريقاً لمعرفة الأحكام الشرعية الواردة في النص القرآني الكريم، وكانت تلك الظواهر أصلاً في استنباط كثير من المعاني والنكات، ومقدمات تلك المصنفات تشهد على أن التنظير الفقهي لم يكن بمعزل عن البلاغة بل هي أصل في منهجهم التفسيري، فهذا الجصاص يذكر أن كتابه يشتمل على "توطئة لما يحتاج إليه من معرفة طرق استنباط معاني القرآن واستخراج دلائله وأحكام ألفاظه، وما تنصرف عليه أنحاء كلام العرب والأسماء اللغوية والعبارات الشرعية(٥٣).

ويذكر ابن العربي في مقدمة كتابه "أحكام القرآن" منهجه في تفسير الآية الحكمية ويقول: "ثم نعكف على كلماتها بل حروفها، فنأخذ بمعرفتها مفردة، ثم تركيبها على أخواتها مضافة، ونحفظ في ذلك قسم البلاغة، ونحترز عن المناقضة في الأحكام والمعارضة، ونحتاط على جانب مراتب اللغة[٥٤].

فتأمل النصين وخص قول الجصاص بتصريف أحكام ألفاظ آيات الأحكام بما ينصرف عليه أنحاء كلام العرب، وقول ابن العربي ونحتاط على جانب اللغة بعد أن يتوغل الفقيه في الوقوف على حروفها وكلماتها مفردة ثم مركبة، أبعد ذلك يجلب على مناهجهم ويغبَّر وجه كتابتهم وتوسم بالصرامة والقانون المؤسساتي؟!.

والشواهد أظهر من أن تلتمس وتستحضر لأجل إقناع متعنت ولكن نستحضرها لنعجب من روعة ذلك المنهج الذي حفظ للبلاغة العالية روحها في النص التشريعي وجعل منها مسلكاً تنمو به المعاني وتثمر بعطاء يستوعب الأحوال المتجددة، ولو قارنت بين صياغة القوانين الوضعية وشرح عالم من علماء الأصول لآية تشريعية لوجدت في الثانية أدباً جماً وفصاحة عالية، وكأنك تقرأ لمفسر ينظر للنص بأدواته المتنوعة ولا يدع جملة أو كلمة أو حرفاً إلا نبه على قيمته وتدسس ليستل فائدته، فالفقيه يبصر وراء كل موقع فائدة، فالتعديد في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فسر البعض ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾ بأنه الأحمق أو الغبي، وهو ما حمل عليه قوله ﴿ضَعِيفًا﴾ ورفض ابن العربي هذا الحمل وعد ذلك جهلاً وقولاً ركيكاً؛ لأن كلام الباري "جعل الذي عليه الحق أربعة أصناف: مستقل بنفسه يمل، وثلاثة أصناف لا يملون و لا يصح أن تكون هذه الأصناف الثلاثة صنفاً واحداً أو صنفين، لأن تعديد

الباري – سبحانه – كأنه يخلو عن الفائدة، ويكون من فن المثبج[٥٥] من القول الركيك من الكلام، ولا ينبغي هذا في كلام حكيم، فكيف في كلام أحكم الحاكمين.

فتعين والحالة هذه أن يكون لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة معنى ليس لصاحبه حتى تتم البلاغة، وتكمل الفائدة"[٥٦].

وكذلك نجده يبحث عن الأبلغية وكثرة الفائدة في حمل اللفظ على المجاز كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ عد المفسرون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مجازاً يعني أهل ملتكم أو معنى يقتل بعضكم بعضاً، وقال الطبري ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بفعل ما نهيتم عنه[٥٧].

ويرجح ابن العربي قول الطبري بحمل﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ ﴾ على المجاز دون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وعلق على تلك التأويلات بكلام نفيس يقول:" والذي يصح عندي أن معناه: ولا تقتلوا أنفسكم بفعل ما نهيتم عنه،فكل ذلك داخل تحته، ولكن هاهنا دقيقة من النظر، وهي أن هذا الذي اخترناه يستوفي المعنى ولكنه مجاز في لفظ القتل، وعلى حمل الآية على صريح القتل بكون قوله ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مجازاً أيضاً، فإذا لم يكن بد من المجاز فمجاز يستوفي المعنى ويقوم بالكل أولى"[٥٨]. العلة التي لأجلها اختار تأويله قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ ﴾ على المجاز دون النفس وهي "مجاز تستوفي المعنى ويقوم بالكل"تدل على بصيرة بلاغي وفقه بياني، فإذا كان الإيجاز سمة بيانية يحمل بها المتكلم اللفظ مقاصده المتكاثرة، فالمفسر ينبغي أن يبحث في طاقات الألفاظ التي تبعث معاني المتكلم وتستوفيها ويقدم في الاختيار التأويل الذي يستوفي الكل وإن كان غيره أشهر وأقرب إلى الأذهان.

وسعة المعاني مطلب يرعاه الأصولي في تحليله فينبه على الفوائد تحت مواضع الألفاظ ووراء انتظامها بهذه الكيفية، وهذا مما يصعب اختيار شاهد عليه لأنه كثر وحسن حتى احتار المختار بأي يستدل ونمثل عليه بتفسير الجصاص لقوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾. يقول: إن قوله تعالى "منتظم لمعان: منها تحريمها على المطلق ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره مفيد في شرط ارتفاع التحريم الواقع بالطلاق الثلاث العقد والوطء جميعاً، لأن النكاح هو الوطء، حقيقة، وذكر الزوج يفيد العقد، وهذا من الإيجاز والاقتصار على الكناية المفهمة المغنية عن التصريح[٥٩].

فالمنهج الفقهي وصنيع الفقهاء في تفسير تلك الآيات لم يكن معزولاً عن اعتبار الفصاحة والبلاغة، ولم يضح بالقيمة البلاغية من أجل اقتناص الحكم واستلاله، بل وظف معطيات البلاغة في الإفراد والتركيب لسبر الحكم وتحليله وتصديقه بالقرائن اللغوية.

ونبهوا أيضاً عن مواقع الكناية" ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وأثرها في انتظام الكلام واستيفاء مقاصد الشرع الحكيم، وكيف تمم بيانها الحكم فالآية بينت الفرض الواجب للمطلقة التي لم يدخل بها من الصداق، وهو أن يدفع لها الزوج نصف المهر إلا إذا عفت المرأة وأسقطت حقها وهذا يكون للراشدة، وهناك حال أخرى تكون فيها المرأة غير قادرة على تسيير أمورها كالصغيرة أو المحجورة ففي هذه الحال لا عفو لها، فأردف بقوله ﴿ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ ﴾ أي الولي وهو الأب أو السيد للأمة "وميز الولي عن الزوج أو

الزوجة بمعنى يخصه، فكنى عنه بقوله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ بكناية مستحسنة، فكان ذلك أبلغ في الفصاحة، وأتم في المعنى، وأجمع للفوائد.(٦٠).

وهذا التأويل يقف بك على موضع الحسن والفائدة، ولطف التقسيم الذي مكنت له الكناية فاستوفت الأقسام، وتم بها البيان ولم تسقط منه شيئاً، فابن العربي يضع اليد على ما استحسنه البلاغيون ويذوق مزايا الكناية ويعقدها بتمييز المعنى، وكونه الأبلغ والأتم في المعنى، فالحكم لم يكن صارفاً لفقه الفقهاء عن حسن الكلام وجلاله الذي يكسو به المعنى.

ويتجاوز نظر بعض الفقهاء إلى مناطق لم يبحثها ذوق البلاغيين كما في المماثلة في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالمشهور حمل الاعتداء الثاني وهو المجازاة على الاعتداء الأول وسمي باسمه للمشاكلة، وابن العربي يزيد على ذلك مسألة كما وصفها وهي أن الثاني كالأول في الاعتداء، والفرق بينهما في المتعلق فالأول منهي عنه والثاني مأمور به، وتعلق الأمر والنهي لا يغير الحقائق ولا يقلب المعاني، بل يكسب ما تعلق به الأمر صفة الطاعة والحسن، ويكسب ما تعلق به النهي صفة المعصية والقبح (٦١).

أي أن الاعتداء الثاني لم يغيره الأمر أو يقلب معناه وإنما اكتسب من تعلقه به صفة الحق بخلاف الاعتداء الأول تعلق بالنهي فأكسبه صفة الباطل.

وعلاقات الترتيب والتركيب داخل الآية حظيت بعناية الأصوليين والاستدلال بها على دقائق ولطائف، لها أثرها في الحكم، ونبهوا على أسرار ذلك النسق وانتظام عناصره وما وراء ذلك من تناسق وانتظام، وما بينها من تلاحظ والتئام، بل إن ابن العربي نبه على كثير من الفوائد واللطائف في ترتيب آيات الأحكام حتى كاد ينعقد

عليها الحسن كله[٦٢]، وأضع بين يديك نصين له. الأول في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. قال فيها: "فهذان بناءان جاءا بصيغة أفعل، وأحدها مباح.... والثاني واجب.. وليس يمتنع في الشريعة اقتران المباح والواجب، لما في ذلك من الفوائد، ويتركب عليه من الأحكام، فأما الأكل فلقضاء اللذة، وأما إيتاء الحق فلقضاء حق النعمة... وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق، ليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف"[٦٣].

فنبه أولاً على مجيء فعلي أمر في نظم الكلام مع اختلاف دلالتهما فالأول مباح والثاني واجب، واقترانهما لفائدة ويترتب عليه أحكام، ثم قدم المباح على الواجب ليكون أدعى للفعل وأقوى في الحث عليه.وتأمل كيف جعل الابتداء بذكر النعمة للتبيين فالفعل الأول تبيين ومدخل لتقرير فعل التكليف الذي هو جذر الآية فيكون ذلك مهيئا للاستجابة وحاملاً على الإذعان للتكليف، ثم المناسبة بين الأكل لقضاء اللذة، والإيتاء وهو لقضاء النعمة، فابن العربي هنا يراجع مكونات الجملة ويقلبها ويدل على منازل الجمل بعضها من بعض.

والنص الثاني نبه فيه على تلاحظ المفردات داخل نظم الآية وتشاربها وتعانق أولها مع آخرها في نظام متفق لتؤول اللفظة الواقعة في آخر الكلام بما يناسب ويلامح أوله، كما في تفسير ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فالأمن يكون في خوف العدو غالباً، ولكن لما جاء في معية قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ وهو عام في العدو والمرض، وجه دلالته نحو العموم، فيكون معنى الأمن، فإذا أمنتم من عدو ومرض، ليكون آخر الكلام على نظام أوله[٦٤].

فالفقهاء والبلاغيون وإن كان لكل منهما غايته من تحليل الآية الحكمية إلا أننا نجد تقارباً مرجعه إلى لغة تلك الآيات وبلاغتها العالية، فلا يشق الفقيه عن الحكم إلا بكشف حجب اللغة وبعث أسرارها، وهذا أمر مشهود لهم فالزجاج حينما حلل قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ "فاختلف الفقهاء فيه إذا أكل من الصيد، فقال بعضهم يؤكل منه وإن أكل منه- أي الكلب -، وكل ذلك في اللغة غير ممتنع"(٦٥).

فتأويلات الفقهاء واستنباطاتهم كانت في دائرة اللغة ومحيطها، وبحوثهم إن توشحت بصيغة فقهية فهي في أصلها بحوث لغوية تستخرج من اللغة فوائدها وتقلبها على وجوهها المختلفة. ووقوفهم عند تحليلها ليس لاستقصاء الدقائق واللطائف البلاغية فلا يكاد يدع منها شيئاً إلا دل عليه ونبه إليه، لأنه ليس طالب حسن، وإنما مقاصده وأغراضه توجه منهجه التفسيري نحو استنباط الأحكام من البيان، وهو في هذا الاستنباط يعمل مكونات البلاغة التي شكلت مراد الشارع فحوت تلك المعاني والفوائد.

المبحث الثالث: مسالك البراعة في الإبانة عن الأحكام.

ينتخب المبحث بعض الآيات الحكمية الصريحة في الدلالة على الحكم، والتنقيب عن موضع الإعجاز وجس أسباب الحسن في العبارة، فبيان الأحكام له سبيل ومنهاج في تقرير الفوائد واستيعاب دقائق أصولها واستغراق فروعها، فإذا لم تكن الظواهر البلاغية التي يعقد عليها حسن الكلام سبباً في بلاغتها فمن أين تأدت تلك البراعة وتأتت إلى ذلك الإعجاز؟

هذا النوع الذي سبيله الظهور والمباشرة في الإبانة عن الغرض كثير نعد منه ولا نعده، لأن الغاية تجلية موضع الإشكال والإشارة إلى خباياه والتنبيه إلى أن بلاغة

الكلام تسمو إذا كان "قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله" [٦٦]، أي أنك لا تجد سبيلاً للإبانة عنه إلا بهذه الصورة ولا يكون تمام الدلالة إلا بهذا المنهاج الذي تتبرج به الفوائد وتنبع منه اللطائف، ووراء "أنواره على حسب محله" الكثير، و لا يكشف عنه إلا تحليل تلك الآيات والبحث في أوجه براعتها واستخراج محل أنوارها من صورتها ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ المائدة: ٤، سيقت الآية لبيان ما أحل بعد تفصيل القول فيما حرم أكله وعدده وذكر صفاته، وعدل عن نسق الآية قبلها ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ فلم يقل "أحل لكم" فأورد حكم المحللات بحكاية السؤال عنه فنبه ذلك على لطائف منها التمكين لتعليق الآية بما قبلها فجاء التعليق من وجهين [٦٧].

الوجه الأول: استئناف بياني.

الوجه الثاني: استئناف ابتدائي من بيان ما حرم أكله إلى بيان ما أحل.

وكلا الوجهين تكون فيهما الثانية منسلة من معنى الأولى وغرضها متصلة بها، تكشف عن المعاني المسكوت عنها في بيان سابقتها فتبعث ذلك السؤال النفسي الذي أثاره تفصيل المحرمات في ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أو تكون بياناً مكملاً وقسيماً متمماً لما قبلها فذكر المحرمات استلزم ذكر ما أحل فانساق اللفظ إليه وأم ذلك المطلب وأبان عنه.

ومجيء "يَسْأَلُونَكَ" بالفعل المضارع دل على أن من شأن هذا السؤال أن يتكرر وقوعه، وليستحضر ذلك الحدث ويصوره وكأنه ماثل أمام العين، وذكر الزمخشري أن

"يَسْأَلُونَكَ" بمعنى القول أي يقولون لك ماذا أحل لهم؟[٦٨]، وفي حكاية السؤال فائدة لا تجدها في القول من التشويق وإثارة انتباه السامع ليتشوف لمعرفة ماذا قالوا؟ وحكى السؤال ثم صرح به فقال "ماذا أحل لهم" والجملة الثانية هي "يَسْأَلُونَكَ" وجاء بضمير الغائب في الحكاية عنهم فقال "لهم" ولم يقل "ماذا أحل لنا" فلم يحك كلامهم بعبارتهم لأن غرض الحكاية بيان كيفية الواقعة [٦٩]، وهذا التصرف في السؤال أطلق القول من حيز السياق الذي قيل فيه ليستوعب كل زمن يمكن أن يثار فيه ذلك الاستفهام، وهذا متناغم مع التعبير بالفعل المضارع وإمكانية تكرر وقوع الحدث.

ثم رتب الضمير في الجواب على رأس الآية السابقة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ فقال على حذوها "أحل لكم" بالخطاب دون الغائب، لتستحضر بتلك المشابهة المعنى السابق وتفتح له قناة في بيان الحكم اللاحق.

ثم جاء وصف "الطيبات" ومعناه كل ما يلائم النفس وتستلذ به[٧٠]، وقال الزجاج هي:"كل شيء لم يأت تحريمه في كتاب ولا سنة"[٧١]، أي:المحللات،ورد الرازي المعنى الذي ذهب إليه الزجاج لأن السؤال يدل على الجهل فالأولى حملها على ما يشتهى ويستلذ [٧٢] وهو الأقوى.

ومجيء وصف الطيبات بعد ذكر الميتة و الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب وما أهل لغير الله به لا يمكن أن نعزله عن تلك المسميات ولا السياق الذي تفرع عنه ذكر الحل فكأن الطيبات يدخل فيها ايضاً كل ما خلا من تلك الأوصاف السابقة وكانت ذكاته بفعل الانسان وذكر عليه اسم الله، وقد صرح بذلك في قوله"وما علمتم من الجوارح" أي ما صدتم.

والصيد لم يكن مسئولاً عنه صريحاً وإنما هو داخل في عموم ما أحل المسئول عنه وعطفه من عطف الخاص على العام لمزيد العناية بهذا الخاص وتفصيله لأنه غرض الآية ومحورها، فالآية لم تأت لبيان تحليل أكل الصيد وإنما لتحليل صيده ويكون في الكلام حذف تقديره "أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح[٧٣] ولم يقل ما صدتم لأن "ما علمتم" اقتضت الصيد وتضمنت شرط حله أن تكون الجوارح الكاسبة له معلمة ونبهت على أن دخوله في الطيبات يستلزم ذلك الشرط ويتعلق به.

ثم انتصب "مكلبين" حالاً من "ما علمتم" بعد أن تضمنته "علمتم" ليفيد التأكيد على أن يكون من يعلم الكلاب الصيد نحريراً مدرباً[٧٤].

واستأنف بياناً آخر للسابق وهو "تعلمونهن مما علمكم الله" وهذا الاستئناف للمبالغة في اشتراط التعليم والتأديب للجوارح [٧٥].

وفيه زيادة بيان صفة التكليب وأن تأديبهن لطلب الصيد بالآداب التي قررها الشارع وهي إمساك الصيد، وأن لا يأكلن منه[٧٦]، أي لا يمسكه لنفسه وإنما للمرسل.

وقوله "مكلبين" و"تعلمونهن مما علمكم الله" تفصيل للإجمال في قوله "مما علمتم من الجوارح " وما بعدها يؤكد معناها ويقويه ويصب في بيانه بزيادة فوائد، ومكلبين تؤسس لمعنى وهو بيان صفة ذلك التعليم الذي أبهم سابقاً، فبين أنه ما تعارفتم عليه من تدريب كلاب الصيد وترويضها وتأديبها ثم أضاف لذلك التعليم العرفي علماً خاصاً وهو التشريعي "مما علمكم الله" أي الآداب التي شرعها الله حين إرسال الصيد لأنه لا يتصور أنه في ذات معنى "مكلبين" بل فيه خصوصية لإضافته لله فاتخذ منه صبغة تشريعية وحمله الواحدي على معنى "تؤدبهن لطلب الصيد وأن لا يأكلن الصيد كما أدبكم الله [٧٧].

فالآية بالغت في اشتراط التعليم والدربة وإن كان في سياق تعليم الجوارح إلا أنه يمتد إلى كل علم فلا يؤخذ العلم إلا من عالم نحرير يشهد له بذلك(٧٨).

وقوله "فكلوا مما أمسكن عليكم" الفاء عانقت بين الأكل والتعليم وطوت بينهما أحداثاً كثيرة وهي: فإذا علمتوهن واطلقتموهن على الصيد فامسكن عليكم فكلوا.

وأخر قوله "واذكروا اسم الله عليه" فوقع موقعاً حسناً لطيفاً؛ لأن الأصل في التسمية قبل الأكل، فلما تأخر في المحل أمكن تعليقه بجملتين فيصح ترتيبه على "مما أمسكن" ويكون المعنى "سموا عليه إذا ادركتم ذكاته"(٧٩) أو يترتب على قوله"ماعلمتم من الجوارح" فيكون المعنى التسمية عليه عند إرساله (٨٠).

وختمها بقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي اتقوه في جميع ما أمر به وعلمكم إياه من جملة الأحكام أو فيما تضمنته الآية من أمر تحليل الطيبات وإباحة صيد الجوارح، ووصف "سريع الحساب" معناه أحاط بكل شيء علماً، فلا يحتاج إلى محاولة عدٍّ(٨١) وهذا يناسب ما جرى في الآية من المبالغة في التعليم "ما علمتم" و "تعلمونهن" فأشار إلى سعة علمه سبحانه، وأن ما علمتم من شيء فهو بعض ما أتاكم الله وهذا مصدق لقوله "مما علمكم الله" أي بعض ما أتاكم إياه العليم الحكيم، ويرتد الأمر بالتقوى إلى فاتحة الآية " ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡ ﴾ ليفيد أن المعرفة بالحلال والحرام لابد أن يطوقها التزام ما شرع ومجانبة ما نهى عنه، و متى علم العبد أن الله تعالى يعد عليه أعماله ويحاسبه على ما علم وعمل قوي جانب التقوى ووقر في نفسه واتخذ لنفسه وقاية من العذاب.

ومما جاء في الأحكام أيضا قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا

أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ١٨٣-١٨٤.

قررت الأيتان فريضة الصوم وأجملت ما يتعلق بها من أحوال فبينت المدة وسبب فرضه وما يعرض للمكلف من موانع تعيقه عن إتمام التكليف وبين تلك الموانع وما يلزمه من كفارة، فحوت باب الصوم وأحكامه في ألفاظ وجمل معدودة، فصلها الفقهاء في مباحث طويلة، وإذا تأملت ارتداد تلك الأحكام وتفريعها من لغة هذه الآيات وقر في نفسك بديع إيجاز كلمات الله تعالى ودقة بيانها.

وطي تلك المعاني الكثيرة والتفصيلات المتنامية يتطلب بلاغة عالية ومسلكاً لطيفاً في ترتيب الألفاظ وتجاورها فينفث فيها روحاً تتخلق لتشكل سعة المعاني وتفتح باب الاحتمالات، وهذا النمو انتجه اختيار الألفاظ وتركيبها واعتبار بعضها مع بعض.

والآية اشتد إحكام حلقاتها وتماسكت جملها على نحو قلما يتفق في بيان،فكل جملة يمكن أن تنعطف على عدة جمل ولها في كل عطف معنى وفائدة وسيتضح ذلك من خلال تحليل عناصرها البنائية، فصدر الحكم ابتداء بالنداء "يا أيها" ومجيئه في كلام الله إيذان بعظم ما بعده وأهميته،فمن شأنها أن تهيء النفوس للأمر، وذلك الأمر هو "كتب عليكم الصيام" فكونه فريضة واجبة عليكم أمر مقرر منذ بدء الخليقة أي من عهد آدم إلى عهدكم(٨٢)، ولفظ "كتب" أقوى في إفادة الوجوب لأنها تتضمن الفرض و دوام التذكر حتى ينقش في نفس المكلف فلا يتقاصر من كتب عليه عن الالتزام بما فرض(٨٣).

وقوله "عليكم" أكد الاستعلاء معنى الإلزام، وأفاد عموم الخطاب للأمة، وجملة "كتب عليكم الصيام" إجمال هيأ لتفصيلات تضيفها الجمل بعده من بيان ماهية الصيام وكيفيته وخصوصيته في الإسلام وأحكامه.

وقوله "كما كتب على الذين من" تفصيل أبان أن فرض الصيام لم يكن شريعة خاصة بأمة محمد ولم يفرض عليكم وحدكم(٨٤)، وإنما فرض على من قبلكم، فالتشبيه هنا لبيان عموم الفرض، ووراء ذلك فائدة وهي تخفيف ما يجده المؤمن من عظم التكليف ومشقته فإذا تقرر لديه فرضيته على غيره من الامم سهل عليه فالشيء الشاق" إذا عمّ سهل تحمله "(٨٥).

وذيل الكلام بقوله "لعلكم تتقون" وموقعها خاتمة مكن لها علقة بجملة البدء وجملة التشبيه، فردَّها إلى فاتحة الكلام خصص دلالتها وحملها معنى الفرض أي:اتقوا الأكل والشرب والوطء وقت وجوب الصوم(٨٦).

أو تتعلق بها باعتبار السببية أي:صوموا لأن الصوم صلة إلى التقى(٨٧)،فهو يكسر شهوة النفس ويكفها عن المعاصي، وهذا معنى في معنى قوله عليه السلام "الصوم جنة".

أو تكون مفصلاً تلتقي عندها مقاطع الآية "يا أيها الذي آمنوا وكتب عليكم"و "كما كتب على الذين من قبلكم" فتعقد كل ما سبق في بيانها، "فالذين آمنوا قابله في الخاتمة بالمتقين ليفيد بيان ترقي درجة المنقادين لهذا التكليف إلى رتبة التقوى،"فينتظمون بسبب هذه العبادة في زمرة المتقين(٨٨)، وفي هذا تهيج للامتثال بالترغيب فيستدعي قبول النفس له.

وتقع من قوله "كتب عليكم الصيام" بياناً وتعليلاً، أي أن فرض الصوم وإمساككم عما تشتهي النفس من شهوات ومطامع حسية هو تربية وتهذيب للنفس فيحصل لها اتقاء لعموم المعاصي فيكون المعنى "إذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف"(٨٩)، ومعرفة الحكمة المترتبة على ذلك التكليف تخفف من مشقته فتتقبله النفس تقبل الطالب له، وهذا المقصد ينمي فائدة التشبيه "كما كتب على الذين من قبلكم" وهي تسهيل مشقة الفرض ويقويها بالإبانة عن الحكمة، فالنفس إذا علمت ما فيه من مصلحة اشتدت رغبتها ولم تفوت المقصد.

وتأمل هذه الآية وجهة بيانها تجد أن اللفظ أم غرضاً محدداً وأدار الجمل عليه وهو تهيئة النفس لتلقي الحكم،وقود المخاطب إلى الفعل بنفس راغبة فيه طالبة له، فلما تقرر الفرض جاء ما بعدها لبيان "كتب عليكم الصيام"وأحكامه ومدته وكيفية إدائه وقضائه، فابتدأ الكلام بقوله "أياماً معدوداً" ظرفاً موصولاً بالفاتحة "كتب عليكم" وله موقع لطيف حسن معه تأخيره وتصديره للآية بعدها وكأني به آية داخل آية تستلزم ممن يتلوها الوقف عند هذا المقطع تفخيماً لشأنه وأن لهذه الأيام القلائل من الفضل ما لها حثاً وترغيباً على اغتنامها فتكون تجسيراً ونقلة إلى "فمن كان مريضاً" وسنفصل المعنى لاحقاً، وتفتح مداخل المعاني متزاحمة تولدت من الآية السابقة وتهيء لمعان لاحقة انسلت من بيان الظرف فتعلقها بقوله"كتب عليكم الصيام" احتمل يوماً أو يومين أو أياماً فجاء بيان المدة بـ"أياماً معدودات" أي قلائل ثم أبان العدة كاملة في الآية بعدها بقوله "شهر رمضان" وهذا التدرج في بيان المدة يعتبر حال المخاطبين ليستل ما يجده المخاطب من ثقل الإلزام والتكليف،والمقصود من هذا الكلام: إني

رحمتكم وخففت عنكم حين لم أفرض عليكم صيام الدهر كله ولا صيام أكثره ولو شئت لفعلت ذلك ولكن رحمتكم وما أوجبت عليكم إلا في أيام قليلة"[٩٠].

ثم إن مجيئه متأخراً عن العامل "كتب عليكم" يمكن نظمه في منظومة جملة التشبيه كاملة، فيصبح إجراؤها صلة لقوله "كما كتب على الذين من قبلكم" فتفيد بيان المماثلة وأن فرض الصوم علينا وعلى من كان قبلنا كان مدة قصيرة غير متطاولة وإن اختلفت، فتزيد معنى شمول رحمة الله وعمومها بجميع الأمم وتسهيله لأمر التكليف عليهم[٩١]

وقوله" ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ الفاء رتبت الجملة على تمام الإبانة عن فرض الصوم في مدة معلومة ثم جاءت الفاء ناقلة للمعنى إلى بيان كيفية أدائه وقضائه أي حال الاستثناءات التي قد تداخل ذلك الفرض فيكون المعنى:أن من لم يدرك فضل الصيام وحال دونه مرض أو سفر فله الرخصة من الله.

وقوله" أو على سفر" جاء مخالفاً لنسق ما قبله "مريضاً" فلم يقل أو مسافراً لمعنى يترتب على ذلك الاختيار فـ"على" تستعمل في الاستعلاء فيستلزم معنى التمكن، وفسرها الزمخشري بـ" راكب سفر"[٩٢]، وقال غيره "قاصد سفر" [٩٣].

وتأويل الزمخشري أدق لأنه ينبه على معنى التلبس بالفعل فيترتب على ذلك حكم قرره الفقهاء وهو "أن لا يفطر حتى يأخذ في السير في السفر دون مجرد النية "[٩٤].

وقوله"فعدة من أيام آخر" من جزيل اللفظ ففيه من اللطائف ما فيه وترتيبه على ما قبله بالفاء غاية في الإيجاز فالمعنى: فمن كان مريضاً أو على سفر فأفطر فعليه عدة، وقد نبه ابن العربي على دقيقة في هذا التركيب تأمل قوله"هذا القول من لطيف الفصاحة لأن تقريره فأفطر فعدة فإن جزالة اللفظ وقوة الفصاحة تقتضي فأفطر[٩٥]

فطوى الفعل "أفطر" لأن اللفظ يحمل إيحاء به وقويت دلالته عليه فإذا كان كذلك كان العلم به مغن عن التلفظ به لظهوره، والذي مكن له موقعه من النظم قوة الفصاحة المقتضية حضور اللفظ المطروح في معنى الجملة رغم غيابه وحذفه وهذا فقه كلام ابن العربي،وقوله"فعدة" أي فعليه عدة من أيام آخر[٩٦]، وقيل "مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدة من أيام آخر"[٩٧].

وجيد اضمار معنى مكتوب لاستحضاره عند كل فرض من فروض الصوم فأنجر إلى قوله"فعدة" وكأن الرخصة في الإفطار لمن استثنته الآية هي كتاب من الله كما أن فرض الصوم كتاب منه أيضا وهذا في معنى قوله عليه السلام "إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه"، وقوله"من أيام آخر" أفاد الوصف عدم التقيد بوقت معلوم فاقتضى ذلك وجوب القضاء من غير تعيين لزمان، وترتب عليه جواز الصوم متفرقاً لأن ظاهر الآية لا دليل فيه على التتابع [٩٨]،"ويكون التقييد بالتوالي والترتيب مخالفا لهذا التعميم، وعن أبي عبيده الجراح أنه قال: "أن الله لم يرخص لكم في فطره وهو يريد أن يشق عليكم في قضائه" [٩٩].

ثم عطف عليها قوله "وعلى الذين يطيقونه فدية" وتأمل جلال اختيار كلمة "يطيقونه" ولو راجعت كلام المفسرين واختلاف تأويلهم لها لو جدت امتداداً واسعاً فتحه هذا الاختيار، وهيأ له عطفها على فمن كان مريضاً أو على سفر" وقال عنها ابن العربي"هي بيضة العقْر"[١٠٠].

أي لا يستطاع مسها والإنتهاء إلى دلالة قاطعة فيها، فـ"يطيقونه" بمعنيين متضادين هما: الأول: معنى القدرة أي قادرين على الصيام ولم يصوموا[١٠١]، وحملها على معنى القدرة يجعل الآية منسوخة حيث ذكر العلماء "أن فرض الصيام كان على

التخيير بين الصيام والفدية ثم نسخت بقولـه"فمن شـهد مـنكم الشـهر فليصـمه"[١٠٢] الثـاني: بمعنـى التكلـف والمشـقة وقيـل الطاقـة أقـرب درجـات القـدرة إلى مرتبـة العجز[١٠٣]، فتتأول يتكلفونه بمشقه وعنت، وحملة ابن عباس على هذا المعنى وفسرها بالشيخ الكبير الذي عجز عن الصوم بعد أن كان قادراً عليه فضـعف فيفطـر ويطعـم عن كل يوم مسكيناً[١٠٤].

وتفسير ابن عباس هو فقه نظم الآية لأن الآية الأولى مـن لا يسـتطيع الصـيام لعارض فيصوم قضاء عند زوال العارض وجاء "يطيقونه" لحال أخرى وهي من يعجـز عن الصيام وليس في استطاعته القضـاء فأوجـب عليـه الفديـة، ويؤيـد المعنـى قـراءة "يطوّقونه" تشبيه للضعف بالطوق المحيط بالشيء فيمنعه، فحملوها على الشيخ المأيوس منه القضاء وقرر الجصاص ثبوت حكم هذه الآية بهذه القراءة فقال:" إذا كان معناهـا ما وصفنا فهي غير منسوخة بل هي ثابتة الحكم، إذ كان المراد بها الشيخ المأيوس منـه القضاء العاجز عن الصوم"[١٠٥].

وواو العطف "وعلى الذين يطيقونه" آذنت بوجود المغايرة، فأما أن تكون مقـابلاً لما قبلها أو قسيماً مكملاً لنسق الجملة السابقة، فيكـون "المـراد مـن المسـافر والمـريض المذكورين في الآية هما اللذان لا يمكنهما الصوم البتة، والمراد من قوله" وعلـى الـذين يطيقونه" المسافر والمريض اللذان يمكنهما الصوم فكانت المغايرة حاصلة"[١٠٦].

وأبان عن مقدار الفدية بقوله"طعام مسكين" فجاء الإفراد لبيان المقدار، وفهم من وصف مسكين معنى وهو ما يقوم به أود المحتاج للطعام فقدروها بالمدّ لكل واحد، ثم استأنف بالفاء معنى وهو "فمن تطوع خيراً فهو خير له" وهذا المعنى إمـا يكـون ابتـداء كلام لا تعلق له بما قبله، والغرض منه الحث علـى التطـوع بالطاعـات[١٠٧]، دون أن يتقيد بالصيام والفدية التي جرى ذكرهما وإما أن يكون مترتباً علـى مـا قبلـه، ورتبـه

المفسرون على موضعين سابقين وفي كل تعليق فائدة، فإذا علق بقوله"ففدية طعام" أفاد معنى من زاد الإطعام على المد ذكره مجاهد[١٠٨] فتفسر خيراً الأولى بالمال والنفع وخيراً الثانية لبيان الفضل[١٠٩]، وهو الأظهر، وردها قوم إلى قوله"فعدة من أيام آخر" فيكون المعنى من زاد الفدية على صيام القضاء فهو خير له منهم الزمخشري حيث ذكر أنه "يجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً"[١١٠]،وتشابه حذوا الكلامين بعيد استحضار قوله "فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة" وينظمها في " فمن تطوع فهو خير له" فتشابه البناء و شيجة توأخي بين الكلامين وتقارب بينهما وتدل على مواطن الألفة ليبرزها العقل ويستنبط دقائق ذلك الوصل وعجائبه.

وتأخير قوله" وإن تصوموا خير لكم" إلى نهاية الآيات يحكم وصل ما سبق وتجتمع عنده جميع العناصر السابقة، وله في كل تعلق فائدة وفي كل ارتداد امتداد وسعة، وقد حمّل المفسرون هذه الجملة معان كثيرة وأوجه متعددة يمكن تلخيصها في الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن تكون خطاباً "للذين يطيقونه" فدية والمعنى "أن صومكم خير من إطعام الفدية والتطوع الزائد على الفرض "[١١١].

الوجه الثاني: تكون خطاباً للمسافرين فتفيد أن صومكم وتحملكم المشقة في السفر خير من إفطاركم، فقد جرت العادة على أن أكثر المسافرين يمكنهم الصوم من غير ضرر وإن كان الأغلب فيه مشقه [١١٢]، وبهذا تكون رخصة لمن شاء الصوم في السفر وقد نقل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه صام في السفر وأفطر.

الوجه الثالث: إجراء اللفظ على العموم وعدم تقييده بنطاق الجملة السابقة له فينتظم المريض والمسافر الذين يطيقونه فلا منافاة في رجوعه إلى الكل[١١٣].

الوجه الرابع: ارتدادها إلى خاتمة الكلام فتعطف على قوله"كتب عليكم الصوم" فيكون المعنى "كتب عليكم الصيام وأن تصوموا خير لكم[١١٤].

وفي هذا تأكيد لفضيلة الصيام لبيان الخيرية، فينمي معنى "لعلكم تتقون" فتلك أبانت أن الصوم سبب في حدوث التقوى وهذه أكدت معنى النفع وخيرية الامتثال لفرض الصوم، ونبهت إلى ما يناله العبد من منافع دنيوية من صحة ورزق مع عظيم الأجر في الآخرة [١١٥].

الوجه الخامس: استئناف لبيان فضل الصيام ومنزلته، فانتقل الكلام من فضل صيام الفرض إلى صيام التطوع فدل على أن "صوم يوم تطوعاً أفضل من صدقة نصف صاع[١١٦] كل هذه المعاني بعثها تنزيل الآية في هذا الموقع فاسترجع أصداء ما سبق وحرك دلاله المقاطع السابقة كلها لتزيد إشعاراً بمعان تخلقت من ذلك الوصل.

ثم ختم جملة أحكام الصيام بقوله"إن كنتم تعلمون" تأكيد على فضيلة الصيام وأن تفكركم في هذه الفريضة ونفعها حري أن يورث في نفوسكم اليقين بأنها خير لكم.

فانتظام جمل الآية الحكيمة وترتيبها وانتساب بعضها إلى بعض وإحكام التعالق بينها ليس من مكونات بلاغتها فحسب بل أصل في بناء الحكم وتفريعه وامتداد دلالته وتقليبها على وجوه مختلفة، فتصبح قابلة لتأويلات متنوعة تتسع لتستوعب جميع أحواله.

وبلاغة الترتيب تتنامى بها أيضاً المفردات داخل الكلام، فاختيارا لمفرده وتنسيقها واعتبار بعضها من بعض يكون وفق خصوصيات أوجبت لها مفردة مكانها، ومن أخفى أنواع الترتيب ترتيب الأسماء والألقاب وتواليها في الكلام فقلما يتفق فيه

الإصابة وقد عيب على كثير من الفصحاء وقوع توالي الأسماء في كلامهم، لأنـه إذا جاء في تضاعيف كلام بليغ ذهب برونقه ولم يحسن إلا في مواضع معدودة ذكروا منها قول الشاعر:

إن يقتلـوك فقـد ثللـت عروشـهم بعتيبـة بـن الحـارث بـن شـهاب

وقد تكاثرت في القرآن الكريم وفي كل موضع جاءت فيه كانـت نـوار بلاغتـه وأصلاً في براعة تركيبه ومدخلا للطائف ودقائق لم تكن لولا ذلك التـوالي، وقـد نبـه الامام الباقلاني على دقة ذلك الترتيب وحسنه في سياق رده على الطاعنين في فصاحة هذا الضرب من البيان وقولهم إنه من القبيـل الـذي لا تظهـر فيـه براعـة، ولا يتميـز ببلاغة، وإنما يجرى مجرى ما يحتاج إلى ذكـره مـن الأسمـاء والألقـاب، وعقـد بلاغتـه وإعجازه في "تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى"[١١٧].

وهذا يتطلب الاهتداء إلى أغراض الكلام ومقاصده، والتلطف لاستلال فوائده من تصريف ألفاظه وجهاتها وطرائق انتظامها وقد بينا بلاغة هذا الضرب سابقا في آية حكمية وهي قوله"حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم" دللنا على أسـرار انتظـام مفرداتهـا والمعاني الخبيئة وراء ترتيبها، وأن الحسن والفائدة منوطة بتوالي تلك الأسماء، ومتـى أفاد في موضع من القرآن فاضطراد فائدته وبراعته في كل موضع جاء فيه أمـر مقـرر، ومن حق هذا النمط من الكلام الذي دخل الجهل ببلاغته زمناً أن يجمع ويكشف عن إعجازه وحسن متصرفاته، لن يسع هذا البحـث تقصـيه واقتصـاص آثـار بلاغتـه في القرآن لأنه يخرج عن غاية البحث ومساره، ولكن ندل على أثره في بناء الآية الحكمية وما وراء التوالي من أسرار ودقـائق، فقـد كثـر في تلـك المعـاني وحسـن فكـان مـن الواجب إيراده وبعث لطائفه بالقدر الذي يتناسب مع مسـار الدراسـة، وللأقـلام أن تبعثه في بحث مستقل يبين عن نوار فصاحته وعجائب حكمته في الترتيب.

ومن الآيات الحكمية التي لطف فيها موضع تلك الاسماء ودق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ الأحزاب آية ٥٠.

محور هذه الآية ومدراها على مقصد عظيم هو بيان ما شرف الله نبيه وما خصه به من أحكام، ومنها تشريفه بأمر النكاح والتوسعة عليه فيه.

وجميع ما في الآية من اعتبارات تخدم هذا الغرض وتنمي دلالته وتقويها، وابتداء الكلام بقوله" يا أيها النبي إنا أحللنا لك" تأسيس وتهيئة للمقصد وتنبيه إلى جهته، فجاء "النبي" وصفا مشعرا "بمبدأ القرب ومنبع الكمال ومداره"[١١٨]، أي إن كونك نبياً استوجب لك من الفضائل ما يتناسب مع اصطفائك بمنزلة النبوة ورتبتها السنية، فرتب على الوصف الحكم "إنا أحللنا لك" وتلك أبرزت معنى الاختصاص ونصته ووجهت الكلام نحوه، والمعنى أن ما فرض في الآية من حلَّ هو لك خاصة دون المؤمنين تشريفاً لمقام النبوة وقوله"أحللنا" دون "أحل" بإسناد فعل التحليل إلى الله والاسناد "ذو أهمية في تجريد محمد صلى الله عليه وسلم من الفعل في هذا الأمر الخاص بشخصه، والذي كثرت فيه قالة المغرضين فالأمر كله لله وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم إلا أن يمْثل لهذا الأمر"[١١٩].

والحل حصر في أصناف محددة وهي:

أولاً: أزواجه اللاتي أتاهنَّ مهورهنَّ، وفيه قولان:

الأول: أنه أحل له أن يتزوج أي امرأة يؤتيها أجرها.

الثاني: أنه إشارة إلى من في عصمته من نساء أتاهنَّ مهورهنَّ وهو قول الجمهور ورجحه ابن العربي لأن "آتيت" حكاية لأمر مضى[١٢٠].

ويؤكد أيضاً قوله"وبنات عمك وبنات عماتك وبنت خالك وبنت خلاتك" فالتحديد هنا يدل أن المقصود في صدر الآية من تحت عصمته لا كل النساء وإلا لما كان لتخصيصهن فائدة.

ثانياً: ملك اليمين مما غنمه على جهة الغلبة والقهر.

ثالثا: بنات العم وبنات العمات وبنات الخال وبنات الخالات وقيد الاباحة بشرط الهجرة.

رابعا: المرأة المؤمنة الواهبة نفسها للنبي عليه الصلاة والسلام وقيد الحل بقبوله تلك الهبة.

هذه الزيجات التي أحلها الله لرسوله جاءت على نسق بديع وترتيب بارع يتناسب مع الغرض الذي يؤمه الكلام وهو تشريفه عليه السلام باختيار الأفضل والأولى له في النكاح، فقدم إيتاء الأجور في النكاح لفضله ولكونه الأصل، وذكر المملوكة عقيبه لما بينهما من مقابله، ثم نحا بالكلام بعد العموم نحو الخصوص وذلك بذكر ما أحل الله له من أقاربه خاصة وبنات العم وبنات العمه وبنات الخال وبنات الخالة، وختمة بما أحل له من النساء من غير مهر"وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي" وأخرها لندرة هذه الصورة، وقابل بين هذه الصورة والصورة الأولى وهي" زوجاتك اللاتي أتيت أجورهن" فأبان أن النبي في الأولى يكون طالباً للمرأة فيجب عليه اعطاء

المهر، وأما الثانية فالمرأة مزوجة نفسها للنبي فلا يكون لها صداق فتناسقت الأقسام وتكاملت وفتح بعضها غيب بعض ونبه إلى بعض أحكامه، فإن قيل لم قدمت المملوكة على قريباته عليه الصلاة والسلام والغرض من الترتيب بيان تشريفه؟ قلنا: قدمت المملوكة لمناسبتها مع "اللاتي أتيت أجورهن" فكونهما من كسبه – عليه السلام – كان موجباً لاقترانهما، فالحرة بصداقها الذي سماه أجراً، والمملوكة بسيفه وسماه فَيْء الله" وهذا المعنى يتلاءم مع كمال أدب النبوة فقد "كان يأكل من عمله، ويطأ من ملك يمينه بأشرف وجوه الكسب، وقد قال عليه السلام:"رزقي تحت ظل رمحي"[١٢١].

وأخر قريباته – عليه السلام – لأن زواجه بهن مشروط بالهجرة فلاءم تأخيره ما بعده "امرأة مؤمنه" لكون علة الإباحة في كلٍّ هي العمل الصالح، فهجرة القريبة شرفت بها واستحقت لأجلها أن تكون في معيته "معك" وتلك "مؤمنة" إيمانها كان سبباً في تحليلها له عليه الصلاة والسلام واقتران هاتين الصورتين كان باعثاً لمعنى وهو تحريم الحرة الكافرة عليه الصلاة والسلام فقد "قصر هو لجلالته على المؤمنات، وإذا كان لا يحل له من لم يهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألا تحل له الكتابية الحرة لنقصان الكفر"[١٢٢].

وقد أشار الزمخشري إلى ملمح دقيق في بناء الآية وهو التخصيصات والقيود التي جاءت في تلك الأقسام "اللاتي أتيت أجورهن" و "مما أفاء الله عليك" و "اللاتي هاجرن معك" وبين ما وراء تلك التخصيصات من فوائد تنمي غرض الآية وتزيده – عليه الصلاة والسلام – تشريفاً وتعظيماً قال الإمام الزمخشري: "قد اختار لرسوله الأفضل والأولى واستحبه بالأطيب الأزكى، كما اختصه بغيرها من الخصائص وآثره بما سواها من الأثر، وذلك لأن تسمية المهر في العقد أولى، وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم وما لا يعرف

بينهم غيره،..وكذلك الجارية إذا كانت سبيئة مالكها، وخطبها سفيه ورمحه ومما أغنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشترى من شق الجلب، ويدل عليه "أفاء الله عليك" لأن فَيْء الله لا يطلق الا على الطيب دون الخبيث، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله – صلى الله عليه و سلم– من قرابته غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه[١٢٣].

هذه التفضيلات والتخصيصات هي التي تعطي للمعنى شياته وترسم أحواله وتحددها لتميز الأفضل في جنسه فتختصه به وتختاره له، وكل ذلك يغذى المقصد المحوري للآية وهو التشريف له وبيان خصوصية مقام النبوة، فقيّد كل نوع من الزوجات بقيد ليدل على فضلها في جنسها، فالمرأة التي أوتيت مهرها خير من التي لم تؤت، والمملوكة التي أخذها بالغلبة والقهر خير من التي تعرض في الأسواق لكل أحد، والقريبة التي هاجرت و زاد شرفها بالهجرة والعمل الصالح خير من التي لم تهاجر. أضف إلى ذلك ما تضمنته من إشارات إلى كماله – عليه الصلاة والسلام – في "أتيت أجورهن" التعبير بالفعل "أتيت" أفاد تعجيله عليه السلام للمهور واستيفاءه لها[١٢٤]، وعلى سنته تربى السلف فكان ديدنهم التعجيل حتى قيل إنهم لا يعرفون غيرها كما ذكر الزمخشري.

وفي قوله"مما أفاء الله عليك" إسناد الفيء إلى الله امتنان بنعم الله على نبيه، ولعل إسناد الملك إلى اليمين هيأ لهذا المعنى ومكن لدلالته، وقد نبه البقاعي إلى فائدة أخرى وهي الإشعار بأنه فيء طيب على الوجه الذي أحله الله لا خيانة فيه ولا خبث [١٢٥].

أما قوله "وامرأة مؤمنة" نسق مختلف عن الصور الثلاث السابقة لها، حيث نكر "امرأة" بعد تعريفات متتالية ليفيد أن هذا الأمر نادر قليل الشيوع، لذلك قال الزمخشري "إن اتفق ذلك، ولذلك نكرها" [١٢٦]

وقد تكاثرت الخصوصيات البلاغية في بناء هذه الجملة ويغلب على ظني أن كونها مفصلاً من مفاصل الكلام التي تُبرز بها دلالة الآية ومقصدها كان سبباً في ذلك الاحتشاد البياني، ونبه للمعنى الفارق في هذه الجملة المفسرون فذكر ابن العربي أن الله أحل له في الآية التي قبلها أزواجه الآتي آتي أجورهن، وهذا معنى يشاركه فيه غيره، فزاده فضلاً على أمته أن أحل الموهوبة ولا تحل لأحد غيره"[١٢٧].

وقال فيها البقاعي: "لما بين ما هو الأشرف من النكاح لكونه الأصل أتبعه – سبحانه – ما خص به شرعه صلى الله عليه وسلم من النعم الذي تولى سبحانه إباحته، اتبعه ما جاءت إباحته من جهة المبيح إعلاماً بأنه ليس من نوع الصدقة التي نزه عنها قدره[١٢٨].

ويؤكد خصوصية المرأة الواهبة له عليه الصلاة والسلام تحول الخطاب إلى الغيبة "وهبت نفسها للنبي" ولم يقل: وهبت نفسها لك، لأن لفظ الخطاب يغرسها في سياق ما قبلها ويذيب الفروق اللطيفة بينها وبين الأنواع السابقة لها، والانتقال إلى الغيبة ملمح يهدي إلى تلك الفروق ويدل عليها، فظهور مسمى "النبي" ترتب عليه حكم وهو أن عقد النكاح بلفظ الهبة ليس لأحد غيرك[١٢٩] وهنا تخصيص للتشريف في معنى لا يشاركه فيه غيره، وأيضاً أن هذا الإنعام إباحته من جهة المبيح – كما ذكر البقاعي – ليفيد بيان فضل الله تعالى على نبيه أن ألقى محبته في القلوب ورغبت فيه النساء طمعاً فيشريف مكارمه، فـ"ذكر وصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة من الخلائق تشريفاً له به وتعليقاً للحكم بالوصف" [١٣٠] وقوى معنى الخصوصية عناصر عدة وهي:تكرار "النبي" لتقرير استحقاقه لكرامة النبوة [١٣١]، ثم "خالصة" و"لك" أي ليس لغيرك، ثم صرح بالمفهوم منطوقاً في قوله"من دون المؤمنين" وهذا غاية التخصيص ولفت أهل البيان إلى طريقة بناء الجملة في إفادة معنى التخيير بترتيب

شرط على شرط، فالإباحة ترتبت على هبتها نفسها مقيدة بإرادة النبي صلى الله عليه وسلم نكاحها والغرض من ذلك رفع الحرج عنه فمن كريم شمائله قبوله هبة الواهب وكان ردها مستهجناً في العادة لما يورث من إنكسار نفس الواهب وإذابة قلبه فجاء الشرط ليقرر حقه عليه السلام رفعاً للحرج عنه وليبطل ظن الناس في عادتهم وقولهم[١٣٢] وقوله تعالى:(قد علمنا ما فرضنا عليهم) جملة اعتراضية امتدت بين "خالصة لك من دون المؤمنين" و "لكيلا يكون عليك حرج" واقتحامها هذا الموقع بعد أن تتابعت عناصر تخصيص الغرض بالنبي استوجب حلوليتها في النظم ليعلم الذين آمنوا أن فريضة التعدد للنبي على هذه الكيفية الخاصة به عليه الصلاة والسلام هي مما "علم الله إيجابه ففرضه، وعلم بالمصلحة والأحوال فاختصه به"[١٣٣]

فقد رأينا كيف توالت الخصوصيات ودقت ولطفت حتى لا يكاد يُتَنبَّه لموضعها من البلاغة، فإذا رتبت على ما قبلها تكشفت تلك العلائق عن فوائد وبانت لك عن لطائف متكاثرة وهذه هي التي سماها الباقلاني "الحكمة في الترتيب" وجعلها مناط الإعجاز في الأحكاميات أي موقع اللفظة أو الجملة وبراعة تعليقها بعناصر سابقة وتدويرها على مواقع مختلفة مما يوجب فيها خصوصية ويحرك أحوالها المختلفة فيبعث معان تستوعب مقاصد المتكلم وتبين جهات الحكم وأحواله، فيبلغ باللفظ القليل معان ممتدة.

وهذا الباب حري بالدراسات أن تحتشد له وتتبع مواضع بلاغته وتدل على الخصوصيات التي تميز بها، وقد نبه البحث على بعض منها وهناك الكثير لا يفتحه إلا استقصاء الأحكاميات بالتحليل لاستخراج السمت البياني الذي ميزها عن غيرها من الآيات.

الهوامش والتعليقات:

(١) ينظر ص٢١-٢٢ من هذا البحث

(٢) ابن العربي "أحكام القرآن" ٢/ ٣

(٣) انظر:الغزالي، المستصفى ١/ ٣٤٢، والرازي، والمحصول ٦/ ٣٣.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٤٠٧

(٥) المرجع السابق.

(٦) محمد الخضر حسين "رسائل الإصلاح، ٣/ ٢٢

(٧) ينظر: الزركشي، البرهان ٢١/ ٤٠٣

(٨) إعجاز القرآن ٣٧

(٩) السابق، ٣٧.

(١٠) السابق، ٢٠٧- ٢٠٨.

(١١) الزركشي، البرهان، ١/ ٥٢٠

(١٢) السابق، ١/ ٢٢٤.

(١٣) الغزالي، جوهر القرآن، ٩٦-٩٧.

(١٤) الزركشي، البرهان" ١/ ٥٢١

(١٥) السابق، ١/ ٥٢٢.

(١٦) إعجاز القرآن" ٢٧٤.

(١٧) ينظر ص ٢٢ من هذا البحث.

(١٨) بيان إعجاز القرآن، ٢٧-٢٨

(١٩) السابق، ص٢٧

(٢٠) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٢٤٤.

(٢١) ينظر: المدخل لدراسة القرآن، ١٠، ١١.

(٢٢) إعجاز القرآن، ص٢٠٨

(٢٣) منهاج البلغاء، ١٣

(٢٤) دلائل الإعجاز، ٤٨٣.

(٢٥) ابن عاشور "التحرير والتنوير"، ٢/ ٢٩٤

(٢٦) البقاعي، نظم الدرر، ٢/ ٢٣٢.

(٢٧) ابن العربي، أحكام القرآن، ١/ ٤٧٨

(٢٨) الباقلاني، إعجاز القرآن، ٢٠٧.

(٢٩) السابق نفسه.

(٣٠) السابق نفسه.

(٣١) الزمخشري، الكشاف، ١/ ٤٩٤.

(٣٢) الواحدي، "الوسيط"، ٢/ ٣٣.

(٣٣) ابن عاشور "أحكام القرآن" ١/ ٤٨٧.

(٣٤) ابن العربي، "أحكام القرآن"١/ ٤٨٧

(٣٥) الكشاف ١/ ٤٩٦.

(٣٦) إعجاز القرآن، ٤٢.

(٣٧) الرافعي، إعجاز القرآن، ٢١٠.

(٣٨) الباقلاني، إعجاز القرآن، ٢٠٨.

(٣٩) السابق نفسه.

(٤٠) السابق.

(٤١) السابق ٢٠٧.

(٤٢) أحكام القرآن ١/ ٦٥٤

(٤٣) ابن كثير البداية والنهاية، الجزء ٣ ص٦٨.

(٤٤) الطيبي، (التبيان) ص١٥٤-١٥٥.

(٤٥) سر الفصاحة، ٢١٥.

(٤٦) الزمخشري "الكشاف" ٤/ ٥١٨

(٤٧) الشريف الرضي "تلخيص البيان" ٢٨٧.

(٤٨) أحكام القرآن ١/ ٦٥٤

(٤٩) بديع القرآن "١٧٤-١٧٥، بتصرف.

(٥٠) السابق ٢٣٩

(٥١) محمد أركون "الفكر الإسلامي" ٢١٧

(٥٢) السابق، ٢١٩

(٥٣) أحكام القرآن ١/ ٥

(٥٤) أحكام القرآن ١/ ٣-٤

(٥٥) المثبج: المضطرب، والثبج: اضطراب الكلام وتخليطه، اللسان، ٢/ ٢٢٠.

(٥٦) أحكام القرآن، ١/ ٣٣٠.

(٥٧) السابق ١/ ٥٢٤.

(٥٨) السابق.

(٥٩) الجصاص "أحكام القرآن" ١/ ٤٧٢

(٦٠) ابن العربي، أحكام القرآن، ١/ ٢٩٦

(٦١) السابق ١/ ١٦١

(٦٢) ينظر: "أحكام القرآن" ١/ ٥٦٤، ٦٤٠ و ٣/ ٦٠٢ و ٦١٨

(٦٣) أحكام القرآن ٢/ ٢٨١

(٦٤) ابن العربي "أحكام القرآن، ١/ ١٧٨.

(٦٥) معاني القرآن "٢/ ١٥٠

(٦٦) الباقلاني، إعجاز القرآن ١٨١

(٦٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير "٣/ ١١٠

(٦٨) الكشاف ١/ ٦٠٦

(٦٩) الرازي مفاتيح الغيب "٤/ ٢٩٠

(٧٠) ابن العربي "أحكام القرآن ٢/ ٣٣

(٧١) معاني القرآن ٢/ ١٤٩

(٧٢) مفاتيح الغيب "٤/ ٢٩٠

(٧٣) ابن عطية "المحرر الوجيز" ٢/ ١٥٨

(٧٤) الرازي "مفاتيح الغيب" ٤/ ٢٩٢

(٧٥) السابق نفسه.

(٧٦) ابن الواحدي "الوسيط "٢/ ١٥٦

(٧٧) الوسيط ٢/ ١٥٦

(٧٨) الزمخشري "الكشاف" ١/ ٦٠٦

(٧٩) السابق ١/ ٦٠٧

(٨٠) الواحدي "الوسيط، ١/ ١٥٧

(٨١) ابن عطية "المحرر الوجيز "٢/ ١٥٨

(٨٢) الزمخشري "الكشاف" ١/ ٢٢٦

(٨٣) ينظر "البقاعي "نظم الدرر "١/ ٣٣٨

(٨٤) الزمخشري "الكشاف "١/ ٢٢٦

(٨٥) الرازي "مفاتيح الغيب" ٢/ ٢٣٩

(٨٦) ابن عطية "المحر الوجيز" ١/ ٢٥

(٨٧) الزجاج "معاني القرآن وإعرابه "١/

(٨٨) الرازي: مفاتيح الغيب "٢/ ٢٤١.

(٨٩) السابق نفسه.

(٩٠) الرازي "مفاتيح الغيب" ٢/ ٢٤٣

(٩١) السابق نفسه.

(٩٢) الكشاف ١/ ٢٢١

(٩٣) الرازي "مفاتيح الغيب "٢/ ٢٤٥

(٩٤) ابن عاشور "التحرير والتنوير" ٢/ ١٦٣

(٩٥) أحكام القرآن ١/ ١١٢

(٩٦) الواحدي "الوسط" ١/ ٢٧٣

(٩٧) الزمخشري "الكشاف" ١/ ٢٢٦

(٩٨) ابن العربي "أحكام القرآن" ١/ ١١٢-١١٣

(٩٩) الرازي "مفاتيح الغيب "٢/ ٢٤٧

(١٠٠) ابن العربي "أحكام القرآن"١/ ١١٣

(١٠١) ابن العربي أحكام القرآن "١/

(١٠٢) الراغب "مفردات القرآن ١/ ٢١٦

(١٠٣) الجصاص "أحكام القرآن"١/ ١١٥

(١٠٤) الجصاص "أحكام القرآن"١/ ٢١٦

(١٠٥) السابق ١/ ١١٧.

(١٠٦) الرازي "مفاتيح الغيب"١/ ٢٤٩

(١٠٧) الجصاص "أحكام القرآن ١/ ٢١٩

(١٠٨) الابن عطيه "المحرر الوجيز"١/ ٢٥٣.

(١٠٩) السابق نفسه

(١١٠) ابن العربي "أحكام القرآن ١/ ١١٤

(١١١) الرازي مفاتيح الغيب ٢/ ٢٥٠

(١١٢) الرازي "مفاتيح الغيب"٢/ ٢٥٠

(١١٣) السابق نفسه

(١١٤) السابق نفسه.

(١١٥) ينظر البقاعي "نظم الدرر"١/ ٣٤٠

(١١٦) الجصاص "أحكام القرآن ١/ ٢٢٠

(١١٧) البلاقلاني "إعجاز القرآن"٢٠٧

(١١٨) البقاعي "نظم الدرر"٦/ ١١٩

(١١٩) أبو موسى. محمد "من أسرار التعبير القرآني"٣٧٥

(١٢٠) أحكام القرآن ٣/ ٥٨٩

(١٢١) ابن العربي "أحكام القرآن ٣/ ٥٩١

(١٢٢) السابق ٣/ ٥٩٥

(١٢٣) الكشاف ٣/ ٥٤٩-٥٥٠

(١٢٤) الرازي "مفاتيح الغيب "٩/ ١٧٦

(١٢٥) نظم الدرر ٦/ ١١٩

(١٢٦) الكشاف ٣/ ٥٥٠

(١٢٧) آيات الأحكام ١/ ٥٩٧

(١٢٨) نظم الدرر "٦/ ١٢٠

(١٢٩) ابن العربي "أحكام القرآن "١/ ٥٩٧

(١٣٠) ابن العربي "أحكام القرآن ٣/ ٥٩٥

(١٣١) الزمخشري "الكشاف "٣/ ٥٥٠

(١٣٢) ينظر: ابن العربي:أحكام القرآن ٣/ ٥٩٧

(١٣٣) الزمخشري "الكشاف "٣/ ٥٥١

فهرس المصادر والمراجع:

١- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله "أحكام القرآن" راجعه: محمد عبد القاهر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

٢- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس د. ط

٣- ابن عطيه الاندلسي، أبو محمد. عبد الحق بن غالب "المحرر الوجيز" تحقيق عبد السلام عبد محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٤- أبوموسى،محمد محمد،" من أسرار التعبير القرآني"،مكتبة وهبة-القاهرة- الطبعة الثانية ١٤١٦هـ

٥- أركون، محمد " الفكر الإسلامي " ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م

٦- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد صقر، دار المعارف، مصر الطبعة الثالثة. د.ت

٧- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز " تحقيق محمود شاكر،ـ مطبعة المدني، مصر، جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ

٨- الجصاص، ابو بكر أحمد الرازي،"آيات الأحكام"، ضبطه:عبد السلام شاهين،دار الكتب العلمية –بيروت-د-ت

٩- الخطابي، حمد بن سليمان "بيان إعجاز القرآن"، تحقيق: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

١٠- الخفاجي، ابن سنان،محمد بن عبدالله تحقيق: عبد المتعال الصعيدي مكتبة – محمد علي صبيح وأولاده ١٣٨١هـ د- ط.

١١- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر "التفسير الكبير" دار إحياء التراث العربي- بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ.

١٢- المحصول في على الأصول علق عليه "محمد عطاء دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
١٣- الرافعي مصطفى صادق "إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية" دار الفكر العربي د- ت.
١٤- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري" معاني القرآن" تحقيق: د-عبد الجليل شلبي،عالم الكتب -بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
١٥- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله "البرهان في علوم القرآن" قدم له: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ
١٦- الزمخشري، محمود جار الله "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، صححه: مصطفى حسين أحمد. دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ.
١٧- الشاطبي، ابو إسحاق إبراهيم بن موسى اللحفي "الموافقات" ضبطه أبو عبيدة مشهور آل سليمان. دار ابن عفان – الخبر.الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١٨- الشريف الرضي "تلخيص البيان". في مجازات القرآن " عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ
١٩- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد "المستصفى في علم الأصول"، دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى ١٣٢٢
٢٠- القرطاجني، حازم "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجه. دار الغرب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.
٢١- القطان، مناع "مباحث في علوم القرآن"،مكتبة وهبة –القاهرة- الطبعة الخامسة ١٤٠١
٢٢- ابن كثير" البداية والنهاية "، تحقيق: محمد عبدالعزيز النجار، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة. د-ت
٢٣- المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن " تحقيق: حفني شرف، نهضة مصر، د – ت

9- When preceded by one of the two interrogative words of /mʌn/ (من) or /mæ/ (ما).

10- In some very rare cases, /mʌn/ (مَن) is used to refer to non-persons, and /mæ/ (ما) to persons. See, for instance, verse 45 in chapter 24 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾, and verse 3 in chapter 4 ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ of the Holy Quran.

11- They are usually called 'free' or 'headless' relative clauses (Hamdallah and Tushyeh, 1998:141).

12- Some grammarians prefer to call it the 'resumptive' or 'returning' pronoun and point out that it existed in Old English and in some 'non-standard dialects' of English (See, for instance, (Zobl, 1980a), (Zobl, 1980b), (Suaieh, 1980), (Zagood, 2012), and (Algady, 2013)).

13- 'One' here (and in the following example above) should refer to a male person only.

14- Chomsky (1977:80) points out that this is true of Hebrew as well.

Works Cited:

1- The division in a society between two languages or two varieties of a language, in which one is considered formal and the other as informal. For instance, the "Modern Standard Arabic, based on the language of the Koran" as compared to "the colloquial Arabics of each Arabic-speaking region, such as Moroccan and Egyptian" (McWhorter, 2004: 61).

2- It is usually referred to as 'sentential relative clause' (Quirk et al., 1985).

3- 'Case' refers to the function of a word in s sentence (see under Case and Gender in Relativization below).

4- In this paper, the International Phonetic Alphabet (IPA) is used for the phonetic transcription of Arabic. For Arabic sounds which do not exist in English, their English closest sounds in terms of points of articulation are highlighted (underlined) and used in their stead (see Appendix I).

5- The Arab Tribes of "Banu Huthail" (بنو هذيل) prefer to use /əl.lə.ðu:n/ (الذون) in addition to /əl.lə.ði:n/ (الذِين) when this conjunctive noun signifies the doers of an action or refers to the subject of a sentences (Wright, 1996:271).

6- It is to be noted however, that /əl.ɔ:.lə/ (الأُلى) can also be used as a personal plural feminine conjunctive noun.

7- It is also acceptable and even more common in Arabic to use the conjunctive noun of /əl.lə.ti:/ (التي) with non-personal feminine plurals (e.g., (البقرات التي في المزرعة) (the three cows which are in the farm)).

8- The Arab Tribes of (طيء) /t̲eɪ/ have their own common conjunctive noun of (ذو) /ðu:/, which often replaces the conjunctive noun of /əl.lə.ði:/ (الذي) (Wright, 1996:272).

SPECIAL ENGLISH SYMBOL

IPA	MEANING
ʳ	/ka: ʳ/ means /ka:r/ in American English and /ka:/ in British English. However, in BrE, (r) will be heard if ʳ is followed by a vowel. For example, *far out* is pronounced /ˈfa:ˈraʊt/.

SPECIAL ARABIC SYMBOLS

Symbol	Example	Symbol	Example
ج = j	جَاد (jæd)	ض = d	ضَرَبَ (daraba)
ح = h	حَال (hæl)	ظ = d'	ظَفَرَ (d'afara)
خ= g	خَال (gæl)	ع= a	عِلم (aelm)
ص = s	صاد (sad)	غ = gh	غِمد (ghemd)
ط = t	طَرب (tarab)	ق = q	قَدم (qadam)

VOWELS	
IPA	Examples
eɪ	say, eight
ɪəʳ	near, here
oɪ	boy, join
ʊəʳ	pure, tourist

CONSONANTS	
IPA	Examples
b	bad, lab
d	did, lady
f	find, if
g	give, flag
h	how, hello
j	yes, yellow
k	cat, back
l	leg, little
m	man, lemon
n	no, ten
ŋ	sing, finger
p	pet, map
r	red, try
s	sun, miss
ʃ	she, crash
t	tea, getting
tʃ	check, church
θ	think, both
ð	this, mother
v	voice, five
w	wet, window
z	zoo, lazy
ʒ	pleasure, vision
dʒ	just, large

- الغلاييني، مصطفى. جامع الدروس العربية، الأنصاري للنشر، (بيروت، ١٩٨٠م) (Al-Ghalayini).
- الفضلي، عبدالهادي. مختصر النحو، دار الشروق، (جدة، ١٩٨٤م). (Al-Fadhli)
- عبدالحميد، محمد محي الدين. منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، دار الفكر، (بيروت، ١٩٧٩م). (AbdulHameed, M.).
- عبدالحميد، محمد محي الدين. عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية، (بيروت، د. ت.) (AbdulHameed, M.).

Appendix I

THE INTERNATIONAL PHONETIC ALPHABET (IPA)

VOWELS	
IPA	Examples
ʌ	cup, luck
ɑ:	arm, father
æ	cat, black
ə	away, cinema
e	met, bed
ɜ:ʳ	turn, learn
ɪ	hit, sitting
i:	see, heat
ɒ	hot, rock
ɔ:	call, four
ʊ	put, could
u:	blue, food
aɪ	five, eye
aʊ	now, out
oʊ/əʊ	go, home
eəʳ	where, air

- Suaieh, S. I. (1980). Aspects of Arabic relative clauses: A study of the structure of relative clauses in modern written Arabic. Unpublished doctoral dissertation, Indiana University, USA.
- Wright , W. (1996). A Grammar of the Arabic Language (3rd ed.). Beirut: Librairie Du Liban.
- Ziadeh , F. J. and R. B. Winder. (1957). An Introduction to Modern Arabic. Princeton, New Jersey: Princeton University Press.
- Zagood. M. (2012). A contrastive study of relativization in English and Arabic with reference to translation pedagogy. Unpublished doctoral dissertation, Durham University, UK.
- Zobl, H. (1980a). The formal and developmental selectivity of L1 influence on L2 acquisition. Language Learning 30: 43-57.
- Zobl, H. (1980b). Developmental and transfer errors: Their common bases and (possibly) differential effects on subsequent learning. TESOL Quarterly, 14(4): 469-479.

Arabic References

- الأنصاري، عبد الله بن هشام. شرح قطر الندى و بل الصدى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت، ١٩٨٨م). (Al-Ansari).
- الأنصاري، عبدالله بن هشام. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت، ١٩٩١م). (Al-Ansari)

- Lado, R. (1957). Linguistics Across Cultures. Ann Arbor: The University of Michigan Press.
- McWhorter, J. (2004). The Story of Human Language. Chantilly, Virginia: The Teaching Company.
- O'Grady, W., M. Dobrovolsky, and F. Katamba. (Eds.). (1996). Contemporary Linguistics: An Introduction. Harlow, Essex: Pearson Education.
- Ouhala, J. (1999). Introducing Transformational Grammar. London: Arnold.
- Parrott, M. (2010). Grammar for English Language Teachers. Cambridge: Cambridge University Press.
- Penston, T. (2005). A Concise Grammar for English Language Teachers. Co. Wicklow, Ireland: TP Publications.
- Quirk, R., S. Greenbaum, G. Leech, and J. Svartvik. (1985). A Comprehensive Grammar of the English Language. Harlow, Essex: Longman.
- Ryding, K. C. (2005). A Reference Grammar of Modern Standard Arabic. Cambridge: Cambridge University Press.
- Simpson, P. (2004). Stylistics: A resource book for students. London: Routledge.
- Smalley, R. L. and M. R. Hank. (1982). Refining Composition Skills: Rhetoric and Grammar for ESL Students. New York: Macmillan.

- Ellis, R. (1985). Understanding second language Acquisition. Oxford: Oxford University Press.
- Farghaly, A. (2008). The Arabic Language, Arabic Linguistics and Arabic Computational Linguistics. In A. Farghaly (Ed.), Arabic Computational Linguistics: Current Implementations. Stanford, CA: Center for the Study of Language and Information (CSLI). 43-81.
- Feigenbaum, I. (1985). The Grammar Handbook. Oxford: Oxford University Press.
- Fisiak, J. (Ed.) (1981). Contrastive Linguistics and the language teacher. Oxford: Pergamon Press.
- Frank , M. (1972). Modern English II. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall.
- Hamdallah, R. W. and H. Y. Tushyeh. (1998). A contrastive analysis of English and Arabic in relativization. Papers and Studies in Contrastive Linguistics, 43: 141-152.
- Hudson, R. (1998). English Grammar. London: Routledge.
- Khan, I. A. (2011). Role of applied linguistics in the teaching of English in Saudi Arabia. International Journal of English Language, 1(1): 105-114.
- Khansir, A. A. (2012). Error analysis and second language acquisition. Theory and Practice in Language Studies, 2 (5): 1027-1032.

- Brown, H. D. (1980). Principles of Language Learning and Teaching. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall.
- Byram, M. (Ed.). (2000). Routledge Encyclopedia of Language Teaching and Learning. London: Routledge.
- Chomsky, N. (1977). On Wh-Movement. In P. Culicover, T. Wasow, and A. Alkmajian (Eds.): Formal syntax. New York: Academic Press. 71-132.
- Chuang, S. (2002). A study of the use of English relative clauses by speakers of Chinese learning German in Taiwan. Unpublished Master thesis, University of Texas at Arlington, USA.
- CIA. (2008). CIA World Fact Book. Washington, DC.: Central Intelligence Agency.
- Cook, G. (1998). Contrastive analysis. In K. Johnson and H. Johnson (Eds.): Encyclopedic Dictionary of Applied Linguistics. Oxford: Blackwell. p. 85.
- Cowan, D. (1958). An Introduction to Modern Literary Arabic. Cambridge: Cambridge University Press.
- Crane, L. B., E. Yeager , and R. L. Whitman. (1981). An Introduction to Linguistics. Boston: Little, Brown & Company.
- Davis, P. (1977). English Structure in Focus. Rowley, Massachusetts: Newbury House.

English References

- Alduais, A. M. S. (2012). Simple sentence structure of standard Arabic language and standard English language: A contrastive study. International Journal of Linguistics 4(4): 500-524.
- Algady, D. (2013). The acquisition of relative clauses: How do second language learners of Arabic do it? Unpublished doctoral dissertation, University of Wisconsin Milwaukee, USA.
- Ali, A. S. (2013). The verbal system of Malay and Arabic: Contrastive analysis. International Journal for Business and Social Science, 4(1): 21-37.
- AL-Khuli , Mohammad Ali. (1979). A Contrastive Transformational Grammar: Arabic and English. Leidoen, The Netherlands: E. J. Brill.
- Al-Shaikhly, M. and I. A. Shalaby. (2011). English-Arabic contrastive analysis: Redefinition of goals. Journal of Language Teaching Research, 2(6): 1337-1345.
- Azar, B. S. (1989). Understanding and Using English Grammar. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall.
- Bassiouney, R. and E. G. Katz (Eds.) (2012). Arabic Language and Linguistics. Washington, DC: Georgetown University Press.

- In Arabic we have dual conjunctive nouns /əl.lə.ðæn/ (اللذان), /əl.lə.ðeɪn/ (الذين), /əl.lə.tæn/ (اللتان), /əl.lə.teɪn/ (اللتين). Still, we do not have them in English.
- English distinguishes between ‘identifying’ and ‘non-identifying’ clauses structurally and phonologically, but Arabic distinguishes between them phonologically only. In English ‘non- identifying’ clauses, '*that*' is not used, no relative can be deleted, and commas have to be used in writing. In Arabic, nothing is done to mark ‘non-identifying’ clauses except in speaking (e.g., with a different tone of speech or a pause before and after).

used for both masculine and feminine, singular and plural: (The man who was talking), (The woman who was standing), and (The children who were playing).

- Unlike Arabic, English has the possessive relative pronoun (whose): (I talked to the boy whose father was sick).
- In English we have "zero" relative pronoun, while in Arabic we cannot find sentences with "zero" conjunctive noun: (The man you met yesterday was convicted of theft).
- In English we have the so called 'sentential relative clauses' which do not exist in Arabic. (He supports Mr. Ahmed which I appreciate).
- Relative pronouns in English can in some cases be replaced by special adverbs of time, manner, and cause. This is not applicable to Arabic.
- In Arabic the conjunctive sentence should in most cases have a 'returning' resumptive pronoun that refers to the conjunctive noun, while in modern standard English we never find that. For example, the conjunctive (relative) noun (pronoun) and the object pronoun may exist together in Arabic whereas in English they cannot (رأيت الرجل الذي ضربتهِ = I saw the man whom you have beaten).
- In Arabic the antecedent to the conjunctive clause should always be definite. The antecedent to the English relative clause could either be definite or indefinite.

the Arabic users of English or vice versa. In fact, as Khan (2011:107) puts it, "Language teaching practice often assumes that most of the difficulties that learners face in the study of English are a consequence of the degree to which their native language differs from English (a contrastive analysis approach)."

Since both languages share approximately the same aspects of the relativization notion, it suffices to indicate the differences in order to compare the use of the relative clauses in both languages:

- In English we basically have five relative pronouns (plus the "zero" (ø) relative pronoun). These are: (*who*), (*whom*), (*that*), (*which*), and (*whose*). Arabic, on the other hand, has sixteen relative nouns. They include: /əl.læ.ði:/ (الذي), /əl.læ.ti:/ (التي), /əl.lə.ðæn/ (اللذان), /əl.lə.ðeɪn/ (اللذَين), /əl.lə.tæn/ (اللتان), /əl.lə.teɪn/ (اللتَين), /əl.lə.ði:n/ (الذِين), /əl.ɔ:.lə/ (الأُلى), /əl.læ.ti:/ (اللاتي), /əl.lə.wæ.ti:/ (اللواتي), /əl.læ.ei/ (اللائي), /mʌn / (من), /mæ/ (ما), /əl/ (أ ل), /ə.eɪ/ (أ ي), and /ðæ/ (ذ ا) .
- Only two of the English five relative pronouns are marked for case; (*whom*) for accusative and (*whose*) for the genitive. In Arabic, there should be agreement in gender, number and case between the relative "noun" and its antecedent, while in English gender and number is not important. For example, the relative pronoun (*who*) can be

- أفكر فيما هو كاتبه أو أفكر فيما هو كاتب = (I think about what he is going to write.), (/mæ/ =
- أتحدث إلى التي هو متزوجها أو أتحدث إلى التي هو متزوج = (I speak to whom he is going to marry.). (/əl.lə.ti:/ =

If the suffix is attached to the same preposition that precedes the conjunctive noun, it can be omitted along with the preposition. However, it should not be omitted if the preposition preceding the conjunctive noun is different from that to which the pronominal suffix is attached:

- قرأتُ عن من قرأتَ عنه أو قرأتُ عن من قرأتَ = (I read about the one whom you have read about). (/mʌn/ =
- تحدثتُ إلى مَنْ قَرأتَ عنهُ = I talked to the one whom you have read about.). (/mʌn/ =

4. Conclusion

By and large, 'Relativization' in English and in Arabic is to a great extent similar at the deep structure level, and to some extent at the surface structure level (Suaieh, 1980; Hamdallah and Tushyeh, 1998). For instance, the relative pronouns (conjunctive nouns in Arabic) must appear at the very beginning of the adjective clause. Moreover, in both languages, the relative clause must have a verb. However, there are some basic differences between Arabic and English in the use of relativization at the surface structure level. These, in turn, should in particular have pedagogical implications, and generally speaking are expected to constitute difficult areas for

(/əl.lə.ðiː/ = تحدثتُ إلى الذي هوَ أكرمُ = I talked to the one who is more generous.).

(/mʌn/ = رأيتُ مَنْ هو معَك cf. رأيتُ مَنْ (هو) معَكَ فيما ذهبتَ إليه)

(/əl.lə.ðiː/ = رأيتُ الذي هُوَ في الدار cf. رأيتُ الذي (هو) في الدارِ يجلسُ بجوارِك)

Secondly, it can be expressed by an attached manifest pronoun. It is attached to the end of the verb when the pronoun occurs in the accusative case as an object of the verbal sentence after the conjunctive noun. Again, this suffix is optional, and it is often omitted14:

(/əl.lə.ðiː/ = رأيتُ الرجلَ الذي ضَرَبْتَ أو رأيتُ الرجلَ الذي ضَرَبْتَهُ = (I saw the man whom you have beaten.),

- (/ðæ/ = ماذا صَنعتَ ؟ أو ماذا صَنعتَهُ ؟ = (What did you do?),
- (/mæ/ = قُلْ ما تُريدُ أو قُلْ ما تُريدُه = (Say what you want).

Thirdly, it is represented by an attached manifest pronoun. This time, it occurs in the genitive case, and thus, the 'pronominal' suffix should be attached to a noun or a preposition. However, if the noun to which the pronoun is attached is an active participle (اسم فاعل) (cf. passive participle (اسم مفعول) (Ryding, 2005)), the 'pronominal' suffix is optional:

- (/əl.lə.ðiː/ = رأيتُ الرجلَ الذي هذا كتابُه = I saw the man whose book is this),
- (/əl.lə.tiː/ = المرأة التي تحدثتُ إليها معلمةٌ = The woman (whom) I talked to is a teacher).

However, if the subject of the subordinate conjunctive clause is other than the head constituent, the clause must represent its own subject in the form of a suffix personal pronoun (ضمير متصل) (Cowan, 1958:72):

– (/ət.tæ.lebjɔ:lʊ əl.lə.ði: alə.mu:h/ = الطالب الذي علموه = The pupil whom they taught),

– (/ət.tɔ:l.læb əl.lə.ði:n wəθeqtə behem/ = الطلاب الذِين وَثِقْتَ بِهِم = The pupils whom you trusted.).

The conjunctive clause should have a personal pronoun (it could be embedded (مستتر) or manifest (ظاهر)) that refers to the conjunctive noun and shows concord with it in number and gender. This 'referring pronoun'12 has three probable occurrences (Wright, 1996:322-324).

Firstly, it can be an embedded third person pronoun (ضمير غائب مستتر) when it occurs in the nominative case as a subject of the verbal sentence after the conjunctive noun. However, it can be represented by an independent personal pronoun (ضمير منفصل) (Ryding, 2005) if the sentence after the conjunctive noun is nominal. Still, this pronoun is optional in nominal sentences if they have adverbial (ظرفي) or prepositional (حرفي) predicates:

(/bɪl.lə.ði:/ = مررتُ بالذي يدرسُ بجدٍّ = I passed by the one13 who studies hard.),

4.2 The Conjunctive Clauses

Like English, Arabic conjunctive nouns cannot stand independently from their conjunctive clauses. The conjunctive nouns need to be immediately followed by clauses in order to have meaning in sentences. These clauses could be substantive (أسمية), verbal (فعلية), or genitive (شبه جملة). Their only function is to modify the conjunctive nouns. The conjunctive nouns plus their clauses constitute the conjunctive clauses. Some of these conjunctive clauses, as mentioned earlier, could be used either substantively or adjectively. Their main function, in Arabic as well as in English, is to modify a preceding noun constituent. Therefore, they are most frequently used adjectively. Other functions may include 'identifying, classifying, or giving emphasis' (Zagood, 2012). The 'adjectival' conjunctive noun should agree with its antecedent in case, number, and gender. However, some other conjunctive nouns (i.e., /mʌn/ (مَنْ), /mæ/ (مَا), and /ə.eɪ/ (أيّ)) could only be used substantively in the nominative case11. They occur at the commencement of compound or complex sentences and function as subject for them. The subject of a subordinate conjunctive clause is usually the same head constituent modified by that clause (Wright, 1996:321):

– (/ər.rəjɒlɒ əl.lə.ðiː də.rə.bə eb.nət.təh/ = الرجلُ الذي ضَرَبَ ابنَتَه = The man who beat his daughter.).

– (/mæ-ðæ/ = ؟ ما ذا رأيتَ البارحة = What did you see last night?),

– (/mʌn-ðæ/ = ؟ مَنْ ذا رأيتَ البارحة = Who was that you saw last night?).

Unlike /əl.lə.ði:/ (الذي), /mʌn/ (مَنْ) and /mæ/ (مَا) can never be used adjectively because they refer to 'non-specified entities' (Ryding, 2005:325). Rather, they are always used substantively. /mʌn/ (مَنْ) is used only with human beings, while /mæ/ (مَا) is used for non-persons10. For /ðæ/ (ذا) to be a conjunctive noun, it has to be preceded by the interrogative /mʌn/ or /mæ/ as in the last two examples above. If /ðæ/ (ذا) is not preceded by /mʌn/ (مَنْ) or /mæ/ (مَا), it is not a conjunctive noun, rather it is a demonstrative noun (اسم إشارة) which means "this".

The (common) conjunctive noun /ə.eɪ/ (أيّ) is declinable according to the case and gender. However, it does not normally have dual or plural forms. It could be personal or non personal. It must be followed by a definite noun or attached to a pronoun:

- (/ə.eɪ-ə əl.hɪz.beɪn/ = أعلمُ أيَّ الحِزبَيْنِ مُصِيب = I know which party is right.),
- (/ə.eɪ-hʊm/ = يعجبني أيهم قائم = I like the one(s) (of them) who is (are) standing.).

In the first example, /ə.eɪ/ (أي) is immediately followed by /əl.ẖɪz.beɪn/ (الحِزبَيْن) which is a definite noun, but in the second it is attached to the pronoun /hʊm/ (هُمْ) which is definite by its nature.

- (/əl.læ.ti:/, /əl.læ.ei/, /əl.lə.wæ.ti:/ or /əl.ɔ:.lə/ = الفتياتُ (أو الأمهاتُ) اللاتي أو اللائي أو اللواتي أو الأُلى = the girls or mothers who…),
- (/əl.læ.ei/, /əl.lə.wæ.ti:/ or /əl.læ.ti:/ = السماواتُ اللواتي أو اللاتي أو النباتاتُ) اللائي أو = the skies (or the plants) which…).

The common conjunctive nouns (See Table 2 below) can be used regardless of the gender or number.

Table (2): Arabic common (مشتركة) conjunctive nouns with their phonetic spellings.[8]

Masculine	Feminine
/ mʌn / (مَنْ)	/ mʌn / (مَنْ)
/mæ / (ما)	/mæ / (ما)
/əl/ (أ ل)	/əl/ (أ ل)
/ə.eɪ/ (أ يّ)	/ə.eɪ/ (أ يّ)
/ðæ/[9] (ذ ا)	/ðæ/ (ذ ا)

/mʌn/ (مَنْ), /mæ/ (مَا), /əl/ (أل), /ə.eɪ/ (أيّ), and /ðæ/ (ذا) can be used regardless of the gender, the number, or the case. They can be used with both masculine and feminine, whether singular, dual or plural nouns:

– (/æajəbəni: mʌn/ = أعجَبَني من زارَكَ أو زاروكَ = I liked the one (ones) who visited you.),

– (/æajəbəni: mæ/ = أعجَبَني ما صنعتَ = I liked what you did.),

– (/jæ.əni: əl.qæ.ə.ɪm/ = جاءَني القائمُ = the standing one came to me.),

– (/ə.eɪ-ɪn/ = سأتحدثُ إلى أيٍ مِنهُم = I will talk to anyone of them.),

We notice here that the singular (peculiar) conjunctive nouns /əl.lə.ði:/ (الذي) and /əl.lə.ti:/ (التي) can be used for both persons (as in the first example above) and non-persons (things) (as in the second one). The dual conjunctive nouns can also be used for both persons and non-persons:

- (/əl.lə.ðæn/ = هذان الرجلان اللذان فازا = These are the two men who won.),
- (/əl.lə.ðæn/ = هذان المنزلان اللذان اشتريتُهما = These are the two houses which I bought.),
- (/əl.lə.tæn/ = هاتانِ المرأتان اللتان سافَرَتا إلى الخارجِ = These are the two women who travelled abroad.),
- (/əl.lə.tæn/ = هاتانِ السيارتانِ اللتان اشتَرَيتُهما = These are the two cars which I bought.).

The masculine plural (peculiar) conjunctive noun /əl.lə.ði:n/ (الذِين) is used only for persons, while /əl.ɔ:.lə/ (الأُلى) can be personal or non-personal:

- (/əl.lə.ði:n/ (or /əl.ɔ:.lə/) = هؤلاءِ الرجال الذِين (أو الأُلى) أحبُّ = These are the men whom (who) I love.),
- (/əl.ɔ:.lə) = المساجد (أو المنازل) الأُلى رأيتُ = The mosques (or the houses) which (that) I saw.).

But not (/əl.lə.ði:n/ = المساجد (أو المنازل) الذِين رأيتُ = The mosques (or the houses) who (whom) I saw.).

The plural feminine (peculiar) conjunctive nouns /əl.læ.ti:/, /əl.læ.ei/, and /əl.lə.wæ.ti:/ can be used for both persons and non-persons[7]:

(كصفات). In the former case, they could be personal or non personal. When they are used adjectively, they should show concord with the definite head constituents in number, gender, and case. This way, they noticeably differ from their English counterpart relative pronoun of (who):

- (/əl.lə.ði:/ = رأيت الذي علمك الحساب = I saw the man who taught you calculus.),
- (/əl.lə.ti:/ = سيارتي أسرع من التي اشتريتَ = My car is faster than the one (which) you bought.),
- (/əl.lə.ði:/ = الرجل الذي علمك الحساب = The man who taught you calculus …),
- (/əl.lə.ti:/ = هذهِ المرأةُ التي زارَتْنا = This is the woman who visited us.),
- (/əl.lə.ðæn/ = الرجلان اللذان زارانا كريمان = The two men who visited us are generous),
- (/əl.lə.tæn/ = المرأتانِ اللتان تعملانِ في المدرسة = The two women who work at school…),
- (/əl.lə.ðeɪn/ = بالطالبين اللذَيْن = with the two male students whom (who)…),
- (/əl.lə.teɪn/ = بالطالبتين اللتَيْن = with the two female students whom (who)…),
- (/əl.lə.ði:n/ or /əl.ɔ:.lə/ = الطلاب الذِين (أو اللألى) = the (male) students who…),
- (/əl.læ.ti:/ /əl.læ.ei/ /əl.lə.wæ.ti:/ /əl.ɔ:.lə/ = (أو اللائي أو اللواتي الطالبات اللاتي أو الألى) = the (female) students who...).

4.1 The Conjunctive Nouns

The English relative pronouns have their counterparts in Arabic as conjunctive nouns. These are of two major types; the peculiar (مختصة) and the common (مشتركة) conjunctive nouns (Al-Ghalayini, 1980:130).

The peculiar conjunctive nouns (See Table 1 below) must agree with their antecedents in gender, number and case. Case in Arabic Grammar refers to the different forms that nouns, pronouns, or even a sentence could have according to their function in a (longer) sentence and their relationship to the surrounding words. There are three major types of cases in Arabic (i.e., accusative case (حالة النصب أو المفعول به), genitive case (حالة الجر أو الإضافة), nominative case (حالة الرفع أو الفاعل).

Table (1): Arabic peculiar (مختصة) conjunctive nouns with their phonetic spellings.

	Masculine	Feminine
Singular	/əl.lə.ðiː/ (الذي)	/əl.lə.tiː/ (التي)
Dual	/əl.lə.ðæn/ (اللذان) /əl.lə.ðeɪn/ (اللذَيْن)	/əl.lə.tæn/ (اللتان) /əl.lə.teɪn/ (اللتَيْن)
Plural	/əl.lə.ðiːn/[5] (الذِين) /əl.ɔː.lə/[6] (الأُلى)	/əl.læ.tiː/ (اللاتي) /əl.læ.ei/ (اللائي) /əl.lə.wæ.tiː/ (اللواتي)

Generally speaking, Arabic peculiar conjunctive nouns may be used either substantively (كأسماء) or adjectively

- This is the city
  - → that he grew up in.
  - → (Ø) he grew up in.
- This is the reason
  - → that he grew maize.
  - → (Ø) he grew maize.
- This is the way
  - → that he managed things.
  - → (Ø) he managed things.

4. Relativization in Arabic

A relative clause in Arabic starts with a word that is called a 'conjunctive noun' (اسم موصول). A sentence of this kind is called a 'conjunctive clause' (صلة الموصول) (جملة وصل) (الصلة) :

(/əl.lə.ðiː yə.s̲nə.a̲ɒl məl.læ.bes/[4] = رأيت الرجل الذي يَصنع_ الملابس = I saw the man who makes clothes).

The conjunctive noun in Arabic is only employed when the antecedent to the conjunctive clause is definite (Ziadeh and Winder, 1957:56). In fact, this is true of all Semitic languages (Wright, 1996:318). So, it is ungrammatical in Arabic to say:

- (/æ.ajə.bə.niː wə.ləd.ən əl.lə.ðiː fæ.zə/ = أعجَبَني ولداً الذي فازَ = (I liked a boy who won.).

It is to be noted, however, that the antecedents of the Wh-adverbial clauses in the previous examples may preferably be omitted as they (the antecedents) thought of as redundant and unnecessary:

- That was when he grew a beard.
- That is where he grew up.
- That was why he grew maize.

When the antecedent is mentioned, the two adjunct words of (when) and (where) can be replaced by the relative pronoun of (which) with the appropriate preposition preceding it or at the end of the relative clause (Chuang, 2002):

- This was the time
  - → at which he grew a beard.
  - → which he grew a beard at.
- This is the coastal city
  - → in which he grew up.
  - → in which he grew up.

(Where), (when), (why), and (how) can also be replaced by the neutral relative pronoun of (that) or the 'zero' (ø) relative pronoun. The appropriate preposition should be mentioned with (that) of place, but can be omitted with (that) of time, cause, and manner:

- This was the time
  - → that he grew a beard (at).
  - → (Ø) he grew a beard.

As for personality (a.k.a. humanness (Ryding, 2005:125), it is normally ascribed to human beings, but not bodies:

- The human bodies, which have systems and organs, …..

However, it is to be noted that some other creatures (such as angels, jinn, demons, fairies, etc.) which are believed to have certain high standard characteristics similar to those of humans or higher (such as thinking, listening, speaking, choosing, deciding, etc.) are also dealt with linguistically as personal:

- Angel Gabriel, who brought down the revelation to Prophet Mohammed PBUH,…….

Moreover, some pet animals' owners prefer to call their animals as 'persons':

- Bitsy (a cat's name), who has a long tail, caught a mouse.

Our babies are, linguistically speaking, considered as not having developed personality yet:

- Here is your baby, which you've just delivered.

3.3 Relativization and Adverbial Clauses

Some adjunct words can be used in the place of relative pronouns. Examples include adverbs of time (when), place (where), manner (how), and cause (why):

- That was the time when he grew a beard.
- That is the city where he grew up.
- That was the reason why he grew maize.

are two possible cases of 'case' in the relative pronouns; 'genitive' case and 'accusative' case:

I) (*whose*) is used when the relative pronoun is in a 'genitive' relation (علاقة إضافة أو ملكية) to the antecedent, irrespective of the latter's gender type; personal or non-personal (a.k.a. human or non-human):

- The boy whose father you talked to is my brother-in-law.
- The car whose tyre had a slow puncture has now been mended.

II) (*whom*) is used instead of (*who*) when the relative pronoun is in an 'accusative' relation (علاقة مفعول) to the antecedent, provided that the head is personal. Again, there are two situations of the 'accusative' case:

1. (*whom*) is optional and (*who*) can be used instead if the relative pronoun is an object, and 2. (*whom*) is obligatory if it is preceded by a preposition:

- These are the boys ⟶ who(m) he visited.
  These are the boys ⟶ to whom he talked.

The choice between (whom) and (who) under the first situation of the 'accusative' case is one of the level of language use 'formality'. That is, (whom) is used more frequently in writing, whereas (who) is often used in speaking (Hamdallah and Tushyeh, 1998; Parrott, 2010).

- The girl that (whom) you met is my daughter.
- The car that (which) we saw is very fast.
- The boy that you talked to (to whom you talked) is very intelligent.
- The bridge that Osamah drove under (under which Osamah drove) is very high.

Still, another possible alternative for the relative pronouns in the previous examples is to be dropped altogether from the sentences. This way, the whole clause is reproduced with the so called 'zero' (ø) relative pronoun:

- (The girl you talked to), (The car we saw), and (The bridge Osamah drove under).

By contrast, the other explicit relative pronouns are most frequently used in the 'non-identifying' clauses. Explicitness refers to the relative pronoun's need to show agreement with its head constituent in case, and/or in its being personal or non-personal (Quirk et. al., 1985):

- (Saud, who came the first,……), (My children, whom you taught,…..).
- (Jeddah, which is highly populated,……), (Wings, with which birds fly,……).

3.2 Case and Gender in Relativization

As said before, 'case' means the role that the relative pronoun plays in a relative clause in relation to the head. There

their antecedents is very weak. This is why in language use the employment of these clauses represents only a possible semantic option (and even a rare one in spoken language). Other preferable choices may include coordination (with or without conjunctive words) and subordination (See, for instance, (Smalley and Hank, 1982) and (Simpson, 2004):

- Then I visited Saud, → who congratulated me on graduation.
  → and he congratulated me on graduation.
- This is Ahmed, who (m) I talked about last week.
- This is Ahmed; I talked about him last week.
- I saw you in Riyadh in 1970, → which was a *small city*.
  → when it was a small city.
- I met him first in Jeddah, → which he was living in.
  → while he was living in it.

It is also highly noticeable that the neutral relative pronoun of 'that' is more frequently used in the 'identifying' clauses than the other relative pronouns. It is neutral in the sense that it does not have to show concord with the head noun or phrase. That is, it can be used regardless of its antecedent's case3, number, or gender type (human or non-human). Hence it is called neutral or general:

- The man that (who) is standing near the door is my brother.
- The tree that (which) is in the corner is very big.

signified by the omission of the adjectival (relative) clause from the sentence. However, the sentence (Yesterday morning I telephoned my mother, who lives in Mecca) has a non-defining clause (who lives in Mecca) which provides extra information about the noun that it describes (my mother), but it does not necessarily serve the purpose of identification. The mention of her place of living could only be for additional interest.

Language users might have noticed that most of the relatives of spoken English are of the defining category. 'Non-identifying' relatives are not very common in speech, but occur quite frequently in the more formal style of written language. The reason may well be that spoken language has the tendency towards using simple sentences, whereas the 'non-identifying' relative clauses include the intentional addition of extra information resulting in long and compound sentences. One example of the 'non-identifying' relative clause is to have as its antecedent a whole sentence or even more than one sentence rather than a mere noun or a noun phrase2 (Feigenbaum, 1985: 224):

- They appreciated our making the effort to attend their meeting, which was such a relief for us.

Often the 'non-identifying' clause comes from a stylistic conjunction of two distinct statements through 'coordination', 'apposition' or 'ellipsis'. Linguistically speaking, the relationship between the 'non-identifying' relative clauses and

clause. This substituting word is called a relative pronoun. Its choice depends on two factors. First, the gender type of the head noun, human or non-human. Second, the role that the relative pronoun plays in the relative clause as subject (nominative case), object (accusative case), or possessive (genitive case) (Chuang, 2002:29).

3.1 Identifying and Non-Identifying Relativization

Relative clauses in English can be viewed in a dichotomy of identifying and non-identifying clauses (a.k.a. defining and non-defining; or restrictive and non-restrictive respectively). 'Identifying' means that the head constituent is unknown, and can be linguistically identified only by dint of using the modification provided by the 'identifying' clause. 'Non-identifying' means that the head is sufficiently known and can be independently identified. In this case, any extra definition given to the head is optional and unnecessary for its identification. Unlike the 'non-identifying' relative clause, 'identifying' relative clause is never preceded by a comma in writing. A 'non- identifying' clause is uttered with a pause before and after it or with a different tone of speech (See (Penson, 2005) and (Suaieh, 1980)).

For example, the sentence (Yesterday morning I telephoned a friend who lives in Mecca) has a defining clause (who lives in Mecca) which carries the necessary purpose of identification; it identifies (a friend). This purpose can be

people across the Middle East and North Africa. Also, it is now recognized as an official language in the United Nations (McWhorter, 2004) (CIA, 2008) (Farghaly, 2008).

3. Relativization in English

In English, a relative clause (a.k.a. adjectival clause) comes after a noun or a noun phrase (the antecedent) to modify it (post modification). It consists of the relative pronoun (who, whom, whose, which, or that) and its complementation phrase (predicate) (Hudson, 1998; Chuang, 2002). According to the transformational grammar, it is "a surface structure realization of an embedded sentence following a definite or an indefinite head noun phrase called the antecedent and containing an NP coreferential with this antecedent" (Hamdallah and Tushyeh, 1998:141). Thus, two or more clauses can be joined together to form one compound sentence using relative pronouns.

- (They visited Majed) + (He had a car accident) = (They visited Majed, **who** had a car accident).
- (They congratulated Saleh) + (Saleh's horse came first in the race) = (They congratulated Saleh, **whose** horse had come first in the race).

The two independent clauses can be combined because they are related. The relationship is shown by the words (Majed) and (He) in the first example above, and (Saleh) and (Saleh's) in the second. A process of substitution is involved here; a new word replaces a word or phrase in an independent

In the immediate pre-Islamic period, the language became a rich poetic classical language, especially in the Arabian Peninsula. The poetry of pre-Islamic epoch (the Jahiliyah) (الجاهلية) signified this period. In addition to the classical Arabic, different dialects and varieties of the language were spoken by the different tribes of both Bedouins and peasants. In fact, this denoted the origin of even nowadays Arabic diglossia1 (Ryding, 2005).

From the seventh century A. D. on, the Islamic period started. The Arabic language has ever since assumed 'a unique and overwhelming importance' and preserved its stability for over fifteen centuries now due to the fact that is the sacred language of the Holy Quran. Arab grammarians have conducted comprehensive studies in order to codify and standardize the classical Arabic since the eighth century A. D. One of these studies was "the first complete known treatise on Arabic grammar", the great work of 'Sibawaih' (سيبويه) known as 'Al-Kitab' (الكتاب) (The Book) (Suaieh,1980).

Bearing in mind that there are now more than six thousand languages in the world, it does make sense to know that contemporary standard Arabic, which is a modernized form of the classical Arabic, has become one of the world's major languages. It is the sixth most widely spoken language in the world. It is the official language of all countries of the Arab world. That is, it is the language of governments, education, literature, press, and media of about 330 million

during the next four centuries. The first Scandinavian invasion of Britain was in 787 A. D.

The English language was later influenced also by the Norman French conquest of England in 1066. A big number of French words was assimilated into English. Moreover, many changes in the language and its grammar, such as the Great Vowel Shifts (started in 1400 A. D.), as well as great diversity in dialects took place during this period. These big changes signified the advent of the Middle English period (from 1100 to 1500).

A new period followed with the introduction of the printing press to Britain and the consequent increase in the literacy level (from 1500 to 1700). The so-called Early Modern English was 'illustrated' by the writings of Shakespeare (was born in 1564), and the London Speech of Dialect characterized most written works of the period. By the eighteenth century, much of the English language has become more like today's Modern English and American English (Crane et. al., 1981) (McWhorter, 2004).

2.2 A Brief History of the Arabic Language

Arabic is the most widely spoken Semitic language in the world (Farghaly, 2008). It is thought of as having evolved from the early not well-known and simple languages of Arabia including the Sabaean and Himyarite languages. This period went on from the pre-Christian era to the sixth century A.D.

2. Historical Backgrounds

2.1 A Brief History of the English Language

The complex history of a given language is usually thought of as incomparable as its development is uniquely associated with special lifestyles, cultures, ways of thinking, behavioural psychology, and nature of a particular people. The continuous interaction between these elements, as well as other social, political, and religious factors, keep changing as time passes. According to McWhorter (2004:1), "At all times, any language is gradually on its way to changing into a new one; the language that is not gradually turning upside-down is one on the verge of extinction." The development process of the Arabic and the English languages should not be an exception.

England was inhabited by the tribes of Celts, Picts, and Scots before the Romans arrived in the first century A. D. The Romans dominated Britain for several hundred years before they were forced to withdraw in A. D. 410. In The fifth century, the Germanic Saxons, the Angles, and the Jutes invaded England and conquered the Celts, and The Old English (a. k. a. Anglo-Saxon language) was then established. This language was influenced by Latin after the 'Christianization' of England at the end of the sixth century as 'Latin was the language of the Church'. It was also influenced by the Scandinavian occupation and colonization of Britain

one another but they do share at least generally some linguistic features at all levels: phonological, morphological, syntactic, semantic, and pragmatics' level". One similar aspect in these two languages is Relativization. On the face of it, English and Arabic similarly use the relative pronouns and conjunctive nouns to generate relative sentences which are complex. However, English/Arabic language users should notice the existence of some differences between the English relative pronouns and their Arabic counterparts per se, and also between the ways how relative sentences can be created in each language. Recognition and sensible utilization of these dissimilarities are expected to pave the way for informed language instruction and course design as well as accurate translation.

This paper begins by giving very brief historical accounts of both English and Arabic. Then a comprehensive description of Relativization in both languages follows. The relative pronouns (conjunctive nouns in Arabic) and clauses in both languages are described as they are used. In other words, a structuralistic model of description is followed. The paper sums up by contrasting; stating the differences between the two uses of Relativization in English and in Arabic.

more effective manner in the target classroom in general and in Saudi EFL situation in particular" (Ibid., 111).

1.2 Contrasting Methodology

Traditional contrastive analysis is characterized by the methodological principle that the structure of the languages to be contrasted will have to be described first by means of one and the same theoretical model, and these descriptions are then contrasted for the specification of similarities and/or dissimilarities. Traditionally speaking, the procedure, in most cases, is one of the following five: the same categories of the two languages are contrasted; the equivalents for a certain category of the target language are sought in the source language; rules or hierarchies of rules in the two languages are compared; the analysis starts from a semantic category whose surface realizations are sought in the languages to be contrasted; or the analysis starts from various uses of language (Lado, 1957 and Fisiak, 1981).

In this research paper, the first procedure is adopted. A given language category that exists in both English and Arabic languages (i.e., Relativization) is selected and compared at the linguistic use level. If we compare Arabic and English, we will notice that though Arabic belongs to the Semitic family and English belongs to the Indo-European (German) family, there are lots of similarities between them. According to Alduais (2012:502), English and Arabic "are originally different from

Contrastive Analysis hypothesis has noticeably witnessed a dramatic decline in influence and popularity recently. However, L1 interference has persisted to be a pedagogical and translating problem (Ellis, 1985; Khan, 2011). Although theoretically speaking may be feasible, it is perhaps very difficult, if not impossible, to suggest that L2 learners can be taught to think in L2 after they have already acquired L1 structural system. The major reason for this may be the simple fact that applications of linguistics are not really possible unless the study starts from the problems and tries to find out if there is anything in linguistics that might be useful in solving them. That is, purity of theory is thus secondary. Sajaavara in Byram (2000:208) clarifies, "Despite continued criticism, contrastive analysis remains a useful tool in the search for potential sources of trouble in foreign language learning. It cannot be overlooked in syllabus design, preparation of textbooks and production of teaching materials. It is also a valuable source of information for the purposes of translation and interpretation." Khan (2011:110) agrees, “Teaching of English as a second/foreign language (ESL/EFL) requires a good perception of at least two languages: L1 and L2 if one wants to contrast the characteristics of the two languages.” He adds that if the teacher of English is well-acquainted with good knowledge of inter-lingual studies, he will be in a good position to “diagnose the errors, their types, and accordingly evolve a compatible strategy to deliver in a

feasible that the tools of structural linguistics would enable a linguist to describe accurately the two languages in question, and to match those two descriptions against each other to determine valid contrasts between them.

By the mid-seventies, a clear picture of the influence of Transformational Grammar on contrastive analysis has developed (Brown, 1980). Several Transformational Grammar views have proved fruitful from the theoretical point of view. Still, the number of practical applications has remained small. Till our time, it is not easy to tell if a Transformational Grammar Approach to contrastive analysis has been any more fruitful for applied purposes (e. g., teaching and translating) than Structuralism (Ouhala, 1999).

1.1 Rationale for Language Contrasts

Contrastive Linguistics is firmly rooted in the idea of human language universals. That is, there are some features that are found in every language. Linguists have premised their establishment of a logical basis for comparisons between languages on this belief that supposedly all languages have common and even unchanging aspects or principles. They have always tried to figure out these universal human language elements (Alduais:2012). Although there are apparent differences between languages, the idea of universality emphasized that all languages are similar leastwise in their deep structures.

1. Introduction

Contrastive linguistics (a.k.a. contrastive analysis) may roughly be defined as "a sub discipline of linguistics concerned with the comparison of two or more languages or subsystems of language" in order to provide descriptions of both the differences and the similarities between them aiming explicitly at the principles and implicitly at the uses of these descriptions (Ali, 2013:21; Cook, 1998:85; Khansir, 2012:1027).

The aforementioned definition of contrastive analysis designates the affinities shared by this field on the one hand and Structural Linguistics and Behaviorist Psychology on the other. During the 40's and 50's of the 20th century when Behaviouristic Psychology and Structural Linguistics were in their heyday, the language teaching profession began to pay a great deal of attention to the very widely accepted Contrastive Analysis approach. It was deeply rooted in Behaviorism and Structuralism. In its strong version, the CA hypothesis claimed that the principal barrier to second language acquisition is the interference of the first language system with the second language system, and that a systematic analysis of the two languages in question should yield a taxonomy of linguistic contrasts between them. This in turn would enable the linguist to analyze errors resulting from L1 influence and predict the difficulties a learner would encounter (Al-Shaikhli and Shalaby, 2011; Khansir, 2012). At that time, it was considered

دراسة لغوية تحليلية عن الأسماء الموصولة و تراكيبها الجملية في اللغة العربية و ما يقابلها في اللغة الإنجليزية

د. حمدان بن محمد عيضة الغامدي

ملخص البحث

يعنى هذا البحث بدراسة استخدام الأسماء الموصولة و جملها في اللغة العربية و مقارنة هذا الاستخدام مع ما يقابله في اللغة الإنجليزية. الهدف العام للبحث هو محاولة إنعاش الدور التاريخي للغويات التباينية في دراسات اللغة التطبيقية كتعليم وتعلُّم اللغة الثانية والترجمة وتهدف هذه الدراسة بشكل خاص إلى تحديد أوجه الاختلاف بين اللغتين الإنجليزية والعربية في استخدام تراكيب الوصل، وبالتالي تحديد مواضع صعوبة محتملة قد يواجهها من يتعامل مع هذه التراكيب في إحدى اللغتين تعلما أو تعليما أو ترجمة. تبدأ الدراسة بنبذة عامة وموجزة عن اللغويات التباينية، واللغتين الإنجليزية والعربية. ثم يتبنى البحث المنهج التقليدي لمقابلة الاستخدامات اللغوية، حيث يتم في البدء تقديم عرض وتحليل شامل للاستخدام اللغوي المراد مقارنته (الوصل) في كل من اللغتين تحت الدراسة، ثم المقارنة بينهما بهدف تحديد الفوارق والمتشابهات. وتخلص هذه الدراسة في خاتمتها إلى قائمة محددة تحوي عشر أوجه من الاختلاف في استخدام الوصل بين اللغتين. والمتوقع أن تسهم هذه القائمة في تسهيل عملية تعليم و تعلُّم تراكيب الوصل عند دراسة أي من اللغتين كلغة ثانية أو عند القيام بترجمة هذا الاستخدام اللغوي من إحدى اللغتين إلى الأخرى.

الكلمات المفتاحية:

اللغويات التباينية، الأسماء الموصولة المختصة والمشتركة، ضمائر الوصل، جمل الوصل المحدِدة أو الحصرية.

Received: 25/11/1436H Accepted: 4/3/1437H

A Contrastive Linguistic Analysis of Arabic Conjunctive Nouns in their Syntactic Structures and their English Counterparts

Dr. Hamdan Mohammed E. Al-Ghamdi

Abstract:

This paper presents an endeavor to revive the role of contrastive linguistics in target language practice. It analyzes the use of the relative pronouns in English and contrasts it with that of their Arabic counterparts. The aim is to figure out the dissimilarities in their usage, which are normally taken to contribute to the associated difficulties in the two relevant applied linguistic fields of language learning/teaching and translation. Recognition of the spotted similarities and dissimilarities is particularly expected to benefit both English speaking learners of Arabic and Arabic speaking learners of English. This paper provides historical backgrounds of contrastive linguistics and the two languages under investigation. Then, it adopts the common methodological approach to contrastive analysis which starts with a thorough description of the same language category in both languages (relativization in this case), and ends with a contrast leading up to specifications of the differences. This study concludes with a handy listing of these ten contrasting specifications, and thus paving the way for relevant language users to make use of them to facilitate their target language practices.

Key Words: Contrastive Analysis, Peculiar and Common Conjunctive Nouns, Relative Pronouns, Restrictive or Identifying Relative Clauses.

A Contrastive Linguistic Analysis of Arabic Conjunctive Nouns in their Syntactic Structures and their English Counterparts

Dr. Hamdan Mohammed E. Al-Ghamdi
Assistant Professor of English Language Teaching,
English Language Centre, Umm Al-Qura University

Umm Al-Qura University
Journal of Languages and Literatures

Aims and Scope

The journal is a referred academic periodical, issued biannually by Umm Al-Qura University. It aims at publishing original academic research papers in the fields of languages & Literature. In addition, it accepts book reviews, funded research reports, recommendations of conferences, symposia and academic activities and dissertation abstracts. Researches in both Arabic and English from Umm Al-Qura University and elsewhere are accepted, on condition that they have not been published or being presented to be published in another publication. All researches are to be reviewed by the editors and referred by specialists in related fields.

Board of General Supervision

Dr. Bakry Matuq Assas

Chancellor, Umm Al-Qura University

Dr. Thamir Hmdan Al-Harbi

Vice-Rector for Graduate Studies and Academic Research

Editor in Chief

Dr. Muhammad Alqurashi

Editorial Board:

Prof. Abdulrahman H. Alaref
Prof. Omer Elsiddeg Abdalla
Dr. Haifaa Othman Feda
Dr. Abdullah M. Masmali
Dr. Abdullah A. Banqeeb
Dr. Ahmad Y. Alghamdi
Dr. Maryam A. Alqahtani

In the Name of Allah

The Most Gracious The Most Beneficent

PUBLICATION NOTES

1- Materials submitted for Publication in *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL) will be accepted according to the followings:

a) Four paper copies of the manuscript, and a CD copy are required.
b) The manuscript should be double-spaced, written in Microsoft Word, using Times New Roman Font, size 16 on A4 paper-size. Manuscript length should not exceed 40 pages, including tables, figures and references.
c) Tables and Figures should be presented on separate sheets, with their proper text position indicated in the original manuscript.
d) Abstracts in both Arabic and English within 200 words each should be submitted.
e) Author's name and affiliation should be written on a separate sheet along with a brief CV. A signed consent from the author(s) that the manuscript has not been published or submitted to another publication.
f) Original figures should be presented on a CD, using appropriate computer software.

2- All references within the text are to be cited according to the followings; Last name of the author, year of Publication, and page number(s) when quoting directly from the text. For example, (Abu Zaid, 1425, p.15). If there are two authors, last names of both authors should be provided for example, (Al-Qahtani & Al-Adnani, 1428, p.50). In case there are more than two authors for the same reference, citation should be in the following form: (Al-Qurashi et al., 1418, p.120). Citations of two references for two authors should be as follows: (Al-Makki, 1425; Al-Madani, 1427) while citation of two references for one author having the same year of Publication should take the form (Al-Mohammady, 1424a, 1424b).

3- All references are to be listed sequentially at the end of the manuscript in an alphabetical order, according to the author(s) last name(s), followed by the first name(s) or their abbreviations; the book title (underlined), or the article title (between quotations).The number of the edition, name of the publisher (for books) or journal, place of publication (for books), and year of publication. For articles, the volume of the journal; or the year, number, and page numbers should be provided.

4- Authors will be provided with 20 reprints, along with a copy of the journal's volume in which the work appears. A free of charge copy will also be forwarded to book reviewers& report dissertation abstract writers.

Correspondence: All correspondences and subscription requests should be addressed to: *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL). Umm Al-Qura University. P.O.Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

E-mail: jll@uqu.edu.sa

Exchanges and Gifts: Requests should be directed to: Deanship of Libraries Affairs. Umm Al-Qura University. P.O. Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

Copyrights: Materials published in UQUJLL solely express the views of their authors, and all rights are reserved to Umm Al-Qura University Press.

Subscriptions (Annual) fees: Seventy-five Saudi Riyals, or twenty US dollars (price per issue + shipping & handling).

Notification: The current Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature (UQUJLL) used to be part of Umm Al-Qura University Journal of Shariah & Islamic Studies.

ISSN: 1658 / 4694

Umm Al-Qura University

Journal of Languages and Literatures

Volume No. 16

1437Ah. 2016